مطبوعات كتابى
ترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها حلمى مراد
١

قصة جبارة
ستفخر دائما بأنك قرأتها



القصة التى بيع منها اكثر من ٣ مليون نسخة!

القلعة!

THE CITADEL

أروع قصة إنسانية عصرية ظهرت فى القرن العشرين
للروائى الانجليزى الكبير : دكتور "كرونين"

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى اول كل شهر ٠

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اربعة واربعون كتاب ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر ٠ وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة ٠

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن سنة (١٢ عددا) من أى من المجموعتين :

فى مصر والسودان ١٢٠ قرشا ٠ وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والمملكة السعودية : مايوازى ١٤٠ قرشا ٠ وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وتركيا ودول أوربا والامريكتين : ١٦٠ قرشا ، خالصة أجر البريد المسجل

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم

◆ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى ٠ وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ٠ علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ٠ ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية

دكتور "ا. ج. كرونين"

القلعة!



THE CITADEL
BY
DR. A. J. CRONIN

الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الخامس والاربعون

القلعــة !

(الجزء الاول)

ترجمة : أنطون العبيدى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

قصة الصراع الرهيب

بين الأنانية .. والمثل العليا !

عزيزى القارىء ...

• **عندما** تقرأ هذه القصة الطويلة الجبارة ، التى تستمد جبروتها من واقعيتها الصارخة القاسية — ومن تطبيقها للمثل العليا الانسانية ، فى وقت واحد ! — وعندما تتقدم فى مطالعتها ، صفحة بعد صفحة ، وفصلا فى اثر فصل .. **سوف تشعر معى بأنها من أقوى ، وأسمى ، نماذج الأدب العالمى التى ظهرت فى هذا القرن !** .. وانها تستحق — عن جدارة — المكانة العالية التى بلغتها بسرعة وثابة فى كل بلد ترجمت الى لغته ، (وقد ترجمت حتى الآن الى نحو عشرين لغة ، وبيع من طبعاتها الانجليزية وحدها نحو مليونى نسخة !)

بل انك ستشعر كأنك تعيش فى فصول القصة بالفعل ، وتنفعل مع أبطالها بقوة وعنف ! .. **ذلك أن من أبرز خصائص هذه القصة العجيبة أنها تتجاوز بك النطاق المحلى للبيئة التى تجرى فيها أحداثها ووقائعها ، الى البيئة التى تعيش فيها أنت — أيا كنت ، وأينما وجدت !** — وسر ذلك أن بيئة القصة ، او الاطار الذى صور المؤلف أحداثها فى نطاقه ، انما هى عنصر ثانوى من عناصرها .. أما العنصر الرئيسى فيها فهو «العمق» الذى استطاع المؤلف أن يصل اليه فى رسم شخصياتها ، وتحليل مشاعرهم ، والتسلسل بهذه المشاعر — وبالاحداث نفسها — تسلسلا منطقيا ، واقعيا ، هادئا وعنيفا فى الوقت نفسه .. **حتى تبلغ ذروة روعتها وقمة جمالها فى فصولها الاخيرة ، فتترك فى نفس قارئها أثرا باقيا لا يمكن أن يمحى** — وهى ، من هذه الناحية ، احدى القصص النادرة التى لاينقضى احساسك بها بمجرد فراغك من قراءتها ، وانما يتجدد تأثرك بها فى كل يوم ، وكل ساعة ، كلما صادفت فى حياتك

اليومية ــ وفى بيئتك المحلية ذاتها ، أينما كنت ! ــ نماذج بشرية مكررة من أبطالها وأشخاصها .. وذلك هو « العمق » الذى أعنيه ، والذى بلغته فيها عبقرية المؤلف .. العمق الذى يتجاوز سطحية البيئة ــ والتوافه المحلية ــ وينفذ الى النفس البشرية ذاتها ، التى لا تتغير بين مكان ومكان ، أو بلد وبلد ، **وانما « تكرر نفسها » فى كل بيئة وكل عصر ، بحيث انك تجد من كل قالب من قوالبها ، أو كل شخصية من شخصياتها ، آلاف « النسخ » المتماثلة ، بعثرتها حكمة الخالق فى شتى أركان الارض !**

.. ومن هنا لن تملك نفسك من الاحساس ، وأنت تقرأ القصة ، بأنك تعرف أبطالها جميعا : تعرف « الدكتور مانسون » .. وتعرف « كريستين » .. وتعرف « مسز بيدج » .. و « فريدى هامبتون .. و « الدكتور دينى » .. و « مسز واتكينز » .. و « جابيل » .. و « جلاديز براموبل » .. و « دكتور ليولين » .. الخ .. **تعرفهم جميعا لانك تلتقى بنماذج مماثلة لهم فى بيئتك كل يوم ، حتى لتكاد تضع يدك عليهم ، لتجردهم من أسمائهم الاجنبية وتطلق عليهم الاسماء المحلية التى تعرف بها نظائرهم فى بيئتك !**

.. فى بيئتك أينما كنت : فى مصر .. أو الكويت .. أو لبنان .. أو فنزويلا .. أو سيام .. أو البرازيل .. او اليابان .. او امريكا .. أو استراليا .. أو مجاهل خط الاستواء !

وهنا تكمن عبقرية المؤلف ، واعجازه ! .. وهذا سر نجاح القصة ورواجها فى كل بلد ، وكل لغة .. **لأنها تصور الصراع الازلى الخالد بين المثل العليا السامية للانسانية ، وبين أحط نوازع النفس البشرية الأمارة بالسوء .. والانانية .. والشر .. والغيرة .. والحسد .. والتكالب الجشع على جمع المال .. على حساب جميع الفضائل والقيم الاخلاقية !**

***

وهناك قصص اخرى كثيرة تتعرض لهذا الصراع الدائم فى النفس البشرية بين نوازع الخير والشر ، فاذا هى تحاول أن تنصر الخير على الشر ،والفضائل على الرذائل ، بأساليب ساذجة ((مكشوفة)) ، تحس من فورك انها ((مصطنعة)) ومتعمدة .. وهذا اللون الصريح من ((الوعظ والارشاد)) فى القالب القصصى ، هو فى رايى أضعف الأساليب أثرا ، وأقلها نفعا ..

اما فى هذه القصة ، فأنت تشهد الفضائل والرذائل تتصارع صراعا حاميا، داميا ، ((واقعيا)) .. فاذا انتصرت قوى الخير فى النهاية على قوى الشر ، جاء انتصارها طبيعيا ، منطقيا ، يتغلغل فى مشاعرك بالتدرج — دون أن تحس به ! — حتى يسيطر عليك تماما ، فلا تملك الا أن تعتنقه اعتناقا .. عن اقتناع ، لا اصطناع !

نعم ، تنتصر قوى الخير فى النهاية — فى هذه الرواية ، كما فى الحياة والواقع — ولكن انتصارها لايكون سهلا ، يسيرا ، عذبا .. بل قاسيا ، عسيرا ، مريرا !

تنتصر قوى الخير فى النهاية ، ولكن .. بعد أن يسقط فى الصراع بعض الابرياء .. ضحايا !

وهكذا الحياة ..

***

بقيت كلمة اخيرة ، تتعلق بترجمة هذه الرواية : فأنت تعلم ان الشعار الذى التزمت به امامك حين أصدرت ((مطبوعات كتابى)) ، هو ان أقدم لك فى هذه السلسلة : الترجمة ((الكاملة الأمينة)) لشوامخ الكتب العالمية . وقد التزمت هذا الشعار فى القصة التى بين يديك ، كما التزمته فى جميع الاعمال الادبية التى قدمتها لك فى الاعداد الماضية . ولكن هناك عقبة ضاعفت من مشقة التزام الحرفية فى هذه القصة بالذات — وفى قصص اخرى ، لم تنشر بعد — وهذه العقبة هى الاختلاف الطفيف بين النصين الانجليزى والفرنسى للقصة أو الكتاب الواحد . (ولابد من وجود مثل هذا الاختلاف فى أية ترجمة من لغة الى اخرى) . وقد كان المفروض ان نتقيد فى ترجمة هذه القصة بالنص الانجليزى وحده ، الذى كتبها به مؤلفها .. ولكن جمود الاسلوب الانجليزى فى بعض التعبيرات ، وقصوره عن التحليق الى امكانيات الاسلوب الفرنسى السلس الجميل ، أعطانا بعض الحرية فى المقارنة بين النصين ، واختيار افضلهما تعبيرا عن المعنى فى بعض المواضع .. دون أدنى اخلال بمبدأ ((الترجمة الأمينة)) للعمل الادبى بنصه الكامل .

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

القلعة!



THE CITADEL

القسم الأول

— ١ —

• في أصيل يوم من أيام شهر أكتوبر من عام ١٩٢١ جلس شاب في ملابس متواضعة ، يحدق بنظرات ثابتة خلال نافذة عربة من عربات الدرجة الثالثة ، في قطار راح يشق طريقه ببطء مصعدا في وادي (بينويل) ، قادما من (سوانسي) . وهو خال من الركاب تقريبا .. وكان « مانسون » — وهو اسم الشاب — قد قضى سحابة نهاره مسافرا ، اذ قدم من الشمال ، وانتقل في (كارليل) الى قطار يبلغ به بلاد الغال الجنوبية (ساوث ويلز) .. ومع أنه غدا في المرحلة الاخيرة من رحلته الشاقة ، فقد ظل يخامره انفعال نفسي متزايد ، وهو يفكر في ما سوف يكون من أمر وظيفته ، وهي أول وظيفة يشغلها كطبيب في تلك البلاد الغريبة الموحشة .

وأمطرت السماء بغزارة ، فحجب ستار الغيث المنهمر عن ناظريه الجبال الممتدة على جانبي خط السكة الحديدية المفرد — الذي راح القطار يطويه متثاقلا — فتلاشت قممها في سماء سنجابية شاسعة . أما جوانبها — التي أوسعتها حفر المناجم شقوقا — فكانت تنحدر قاتمة كئيبة تلوثها أكداس ضخمة من الفضلات والنفايات التي كانت تنبشها بضعة كباش قذرة ، في محاولات جدباء للعثور على شيء تتبلغ به . ولم تكن ثمة أدغال أو أي أثر لنبات ، بل ان الاشجار التي كانت ترى — في هذا الوقت المتأخر من النهار — بدت كأشباح ضامرة تعرت عن اللحم . وفي أحد منعرجات الخط الحديدي ، ظهر بغتة ضوء أحد المسابك ، فكشف عن جماعة من العمال ارتفعت سواعدهم المفتولة بالمطارق لتهوي بها . **ومع أن هذا المنظر**

توارى فى سرعة خاطفة خلف الحافة العليا لاحد المناجم ، الا انه أيقظ فى نفس الفتى شعورا قويا بالحياة . واستغرق « مانسون » فى تفكير عميق ، أحس خلاله بالقوة والحماس يدبان فى كيانه ، وبالامل فى مستقبل زاهر يداعب خياله .

وأقبل الليل مضفيا على تلك الربوع مزيدا من الغرابة والوحشة . ولم ينقض نصف ساعة ، حتى دخل القطار لاهثا محطة (بلينيللى) ، تلك المدينة الواقعة فى طرف الوادى والتى ينتهى عندها الخط الحديدى .. وها قد وصل الفتى أخيرا !

* * *

أمسك مانسون بحقيبته ، وقفز من القطار فأخذ يذرع الرصيف بخطى سريعة ، باحثا فى لهفة عن شخص يرحب بمقدمه . وما ان برح المحطة ، حتى ألفى — على ضوء مصباح زيتى تداعبه الريح — رجلا مسنا يميل لون وجهه الى الصفرة ، تعلو رأسه قبعة مربعة ، ويرتدى قميصا سابغا من المطاط .. وتفرس الرجل فى مانسون بعين العارف بما يبحث عنه ، ثم قال بصوت أجش : « أأنت المساعد الجديد للدكتور بيدج ؟ »

— تماما .. دكتور مانسون .. أندرو مانسون !

— وأنا توماس .. « الشيخ » توماس ، ويسموننى عادة « فيشتر » . هذه هى العربة ، فاصعد اليها ... ما لم تكن تفضل الذهاب سباحة !

وطوح مانسون بحقيبته فوق المركبة القديمة البالية ، التى شد اليها حصان هزيل .. ثم صعد الى جوف المركبة ، وتبعه توماس الذى أمسك بقياد الحيوان وصاح : « هيا يا تافى ! » .. وانطلقا مجتازين المدينة ، فحاول « أندرو » أن يتبين منظرها العام ، بيد أنه لم يبد منها — وراء المطر المنهمر — سوى مجموعة من المساكن السنجابية الواطئة ، اصطفت تحت حواف جبال شامخة هي من طبيعة تلك البلاد .

وظل السائق الكهل صـامتا دقائق عدة ، وهو يلقى على « أندرو » ـ من تحت حافة قبعته التى كان الماء يتساقط منها ـ نظرات تنم عن عدم الثقة به أو الاطمئنان اليه ! ..
ولم تكن تبدو عليه البتة سمات الحوذى المهـذب الأنيق ، الملحق بخدمة طبيب ناجح ، بل كان أقرب الى الغلظة والتجهم والقذارة ، وكانت تنبعث منه بلا انقطاع رائحة دهن كريهة . وقال أخيرا : « لقد حصلت على اجازتك العلميـة من وقت قصير ، أليس كذلك ؟ » . فأومأ أندرو برأسـه أن نعم . فبصق الشيخ توماس وقال : « كنت أدرك ذلك ! » . وكأنما فك فوز حدسه عقدة لسانه ، فقال فى لهجة رصينة : **« لقد تركنا المساعدالاخيرمنذ يومين . انهم لايمكثون، فىالغالب ! »** .
فابتسم « أندرو » رغم انفعاله العصبى وسأله : « لماذا ؟ »

ـ أولا لان العمل كثير فيما أعتقد ..

ـ وثانيـا .. ؟ !

فقال توماس : « لسوف ترى بنفسك ! »

وبعد هنيهة ، أشار ـ وكأنه أحد الادلاء ـ الى كاتدرائية جميلة ، ورفع سوطه نحو نهاية صف من المساكن ، حيث كان ثمة باب مضاء وقد انبعث منـه دخان كثيف ، وقال : « أترى هذا ؟ .. ان فيه زوجتى ، وحانوتى الذى نبيع فيه البطاطس المقلوة . ونحن نقلو السمك كذلك ، مرتين فى الاسبوع .. أحسب أنك سترغب فى معرفة ذلك بعد قليل! »

وهنا انتهى الشارع الرئيسى ، فانحرفا الى طريق جانبى قصير ، مجتازين أرضا خلاء . **ثم دلفا الى درب ضيق يتبع منزلا منعزلا عن المنازل المجاورة له ، خلف ثلاث من أشجار الارز الشيلية . وكانت علىالسور لوحة باسم «برينجوير» ..**
فقال توماس وهو يوقف حصانه : « ها قد وصلنا ! »

وهبط أندرو . وانهى الا برهة وجيزة، أخذ فيها يتأهب لارل



حديث له ، حتى فتح الباب . واذا هو فى ردهة مضاءة ، وثمة سيدة تستقبله مرحبة أيما ترحاب .. كانت ممتلئة فى اتساق ، فى نحو الاربعين من العمر ، ذات وجه مشرق وعينين نفاذتين براقتين .. وهتفت : « هذا هو الدكتور مانسون ولا بد !.. تفضل يا سيدى ، تفضل !.. أنا مسز بيدج ، زوجة الدكتور . أرجو ألا يكون السفر قد أتعبك كثيرا ! .. اننى جد مسرورة لرؤيتك ، فقد كدت أفقد صوابى منذ تركنا الشاب اللعين الذى كان عندنا .. ليتك رأيته ! لم أعرف مثيلا له فى التبذير والاسراف . أؤكد لك هذا ! .. مهما يكن من أمر ، فلن يلبث كل شىء أن يسير على ما يرام ، ما دمت قد حضرت ! .. تعال ، فسأرشدك بنفسى الى غرفتك ! »

وكانت الغرفة فى الطابق الاول .. غرفة صغيرة ، بها سرير من النحاس ، وخزانة صغيرة من خشب الصنوبر لامعة الطلاء ، ومنضدة من الخيزران عليها حوض وابريق .. وتفقد الفتى الغرفة فى كل جوانبها بنظرة خاطفة ، بينما كانت عينا مسز « بيدج » السوداوان ترقبان وجهه ، ثم قال فى أدب جم : « هذه الغرفة تبدو مريحة يا مسز بيدج ! » فقالت : « نعم .. أليس كذلك ؟ » . وربتت كتفه – وهى تبتسم – ربتة أم ، وأردفت : « ستكون هنا على خير ما يرام يا سيدى

العزيز .. كن لطيفا معى ، أكن لطيفة معك ، ولا يسعنى أن أقول خيرا من هذا . الا تراه صحيحا ؟ .. والآن ، لا تضيع دقيقة واحدة ، فتعال لتقدم نفسك الى الدكتور ! »

وابتعدت قليلا وهى لا تفتأ تنظر اليه فى انتظار جوابه ، ثم تابعت كلامها فى لهجة حاولت أن تضفى عليها شيئا من الصراحة والوضوح ، قالت : « لست أدرى أن كنت قد قلت لك هذا فى خطابى .. المسألة فى ايجاز ، أن الدكتور لم يكن فى المدة الاخيرة على ما يرام ! » .. فنظر اليها الفتى فى دهشة . بيد أنها بادرته قائلة بسرعة ، قبل أن يتمكن من أن يقول شيئا : « أواه ! .. ليس الامر بذى بال ، فهو يلازم الفراش منذ بضعة أسابيع ، ولكنه سيشفى وشيكا .. يمكنك الاعتماد على هذا » .

وتبعها أندرو ــ وقد أخذ على غرة ــ حتى نهاية الردهة ، حيث فتحت بابا ، وهى تقول هاشة باشة : « هذا هو الدكتور مانسون مساعدنا الجديد ، قد جاء يحييك يا ادوارد ! »

* * *

ما أن دخل أندرو الغرفة ، وهى غرفة مستطيلة تافهة الاثاث مسدلة الستائر ، وقد أشعل فيها قليل من النار فى مدفأة ، حتى استدار « ادوارد بيدج » فى سريره ، وقد تجلى أنه بذل جهدا شاقا فى ذلك .. وكان رجلا طويل القامة ، بادى العظام ، فى نحو الستين من العمر ، غليظ القسمات ، ذو عينين براقتين متعبتين .. وكانت كل سحنته تشى بالالم وبنوع من صبر نافد . وكان ثمة شىء آخر .. فقد انعكس ضوء المصباح الزيتى على الوسادة ، فكشف عن نصف الوجه غير المعبر وكأنه من شمع . أما جنبه الايسر فكان مشلولا كذلك ، كما أن يده اليسرى ــ التى أسندها الى الحافة الدنيا للسرير ــ لم تعد سوى بقية يد لامعة .

وعندما لحظ أندرو هذه الامارات الدالة على صدمة عنيفة

مزمنة ، أحس بذعر طارىء يسرى فى كيانه . وساد المكان صمت ممض . وأخيرا قال دكتور بيدج ، متكلما ببطء وصعوبة ، ودون نطق مخارج الالفاظ : « آمل أن تسر من الاقامة هنا .. كما أرجو ألا يبدو لك العمل شاقا جدا .. انك فى مقتبل الشباب ! » . فأجاب أندرو فى تسرع أهوج : « أن سنى أربع وعشرون سنة ، وهذه أول وظيفة أشغلها .. ولست أجهل هذا ، ولكنى لا أتهيب العمل ! » . وهنا قالت مسز بيدج مشرقة الوجه : « ألم أقل لك يا ادوارد اننا سنكون موفقين مع المساعد الجديد ؟ » . فازداد وجه بيدج تصلبا ، ونظر الى أندرو ، ثم قال فى وهن ، وقد بدا أن اهتمامه خبا : « آمل أن تبقى معنا ! » . فصاحت مسز بيدج : « يا لله !.. ما هذا القول ؟ » . ثم اتجهت بالحديث الى أندرو ، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة اعتزاز : « انه متعب قليلا اليوم ، ولكنه سيبرأ من مرضه فى وقت قريب ويستأنف نشاطه .. أليس كذلك يا حبيبى ؟ » . وانحنت على زوجها وقبلته فى حب وحنان ، ثم أردفت : « سأرسل لك طعام العشاء مع « آنى » بمجرد انتهائنا من تناول عشائنا ! »

ولم يجب بيدج . وكان الجمود الذى يشمل نصف وجهه ، يبدى فمه كما لو كان ملتويا .. وامتدت يده السليمة الى الكتاب الموضوع على طرف وسادته ، والذى رأى « أندرو » أنه كان يحمل عنوان : « الطيور الكاسرة فى أوربا » . وقبل أن يبدأ الرجل المشلول القراءة ، أحس الفتى بأنه قد أذن له بالانصراف .. وكانت أفكار « أندرو » — وهو يهبط لتناول العشاء — مضطربة أسوأ اضطراب . فلقد تقدم لهذه الوظيفة بناء على اعلان نشر فى صحيفة « لانسيت » الطبية . ومع هذا فلم ترد فى الخطابات — التى تبادلها مع مسز بيدج ، والتى أسفرت عن تعيينه فى هذا المنصب — أية اشارة عن مرض

دكتور بيدج . **ولكنه كان مريضا ، ولم يكن ثمة ريب فى خطورة النزيف المخى الذى أوصـــله الى هــذه الحالة ، بل لابد من انقضاء أشهر قبل أن يكون فى مقدوره استئناف عمله .. اذا قدر له يوما أن يستأنفه !**

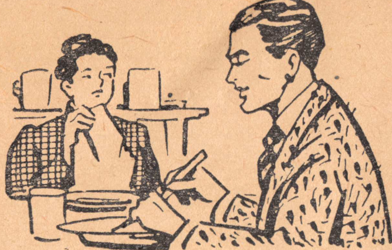
وأقصى أندرو هذه الخواطر عن رأسه بجهد . فقد كان شابا قويا ، وليس ثمة ما يدعوه للاحتجاج على العمل الاضافى الذى يفرضه عليه مرض بيدج .. بل أنه كان ـ فى تحمسه للعمل ـ يتوق الى سيل من المرضى !

وفيما كانا يدخلان غرفة الطعـــام ، قالت له مسز بيـــدج مغتبطة : « أنك سعيد الحظ يا عزيزى ، ففى وســـعك أن تتناول عشاءك على الفور هذا المساء ، اذ لا جراحة هناك .. لقد تكفل بها داى جنكينز ! »

ـ داى جنكينز ؟

فأجابت مسز بيدج فى غير اكتراث : « انه صيدلينا .. شاب صغير ، طيع .. كماأنه محب للعمل ، حتى أن بعض الناس ينادونه بيا «دكتور» ، وان كان لا يقاس بالدكتور بيدج طبعا ! .. لقد قام بالجراحة ، وبعيادة المرضى كذلك ، فى الايام العشرة الاخيرة ! » . **وحملق فيها « أندرو » وقد تولاه اهتمام جديد ، اذ أومض فى ذهنه كل ما قيل له ، وكل ما نبه اليه عن الاساليب المشكوك فيها ، التى يمارس بها الطب فى تلك الاودية النائية من بلاد الغال .. ومرة أخرى ، بذل جهدا لكى يظل صامتا !**

وجلست مسز بيدج عند طرف المائدة ، وظهرها الى الموقد . فلما استراحت فى جلستها ، تنهدت اغتباطا بالعشاء المنتظر ، ودقت الجرس الموضوع أمامها . واذا بخادم متوسطة السن ، شاحبة الوجه ناعمته ، تحضر الطعام ، مختلسة نظرة خاطفة الى أندرو ! .. وصاحت مسز بيدج وهى تضـــع الزبد على



شريحة خبز ألقت بها الى فمها : « تعالى يا آنى .. هذا هو دكتور مانسون ! » . فلم تجب « آنى » ، بل قدمت الى أندرو ـ فى صمت ـ قطعة باردة من لحم العجل المسلوق ، ولكنها قدمت لمسز بيدج قطعة من « البفتيك » الساخن ، والبصل ، وزجاجة من البيرة « الستاوت » . وقالت زوجة الطبيب وهى ترفع غطاء طبقها الخاص ، وتقطع اللحم الدسم ، ولعابها يسيل : « اننى لم أتناول غداء جيدا يا دكتور ، فضلا عن أننى مضطرة الى اتباع نظام غذائى خاص لتقوية الدم .. »

ومضغ « أندرو » ـ فى اصرار ـ قطعة اللحم المستعصية على أسنانه ، وشرب ماء باردا . وبعد لحظة من الاستنكار والاباء ، راقت مشكلته الرئيسية لروح الدعابة الذى فطر عليه ، فبدا له ضعف مسز بيدج المزعوم مهزلة صارخة ، حتى أنه راح يكافح كى لا يضحك ساخرا ! .. وأكلت مسز بيدج ـ أثناء العشاء ـ كثيرا ، وتكلمت قليلا .. فلما فرغت من التهام اللحم ، ومن اغتراف مرقه بالخبز ، شربت آخر جرعة فى زجاجة الجعة ، ولعقت شفتيها بصوت مسموع ، ثم اضطجعت فى مقعدها ، وهى تتنفس بشىء من العناء ، وقد علت وجنتيها الصغيرتين المستديرتين حمرة متألقة .. وبدا

أنها كانت مستعدة للبقاء لدى المائدة مــدة أطول ، متأهبــة لحديث شخصى ربما حاولت فيه ــ بطريقتها الجريئة ــ أن تنتزع بعض الاعترافات من مانسون .

* * *

تأملته فاذا هو شاب نحيــل ، ســمح ، قمحى البشرة ، واضح القسمات بارز الخدين ، له ذقن بديع ، وعينان زرقاوان .. اذا رفع عينيه متطلعا ، بقيتا ــ برغم الارهاف العصبى البادى على جبهته ــ ثابتتين، متسائلتين الى درجة غير عادية . كان أمام السيدة « بلودوين بيدج » شاب من طراز العنصر « السلتى » ، وان لم تكن تدرى شيئا عن ذلك ! .. ومع أنها تبينت فى وجه أندرو القوة والذكاء الخارق ، **الا أن أكثر ما أعجبها فيه هو الطريقة التى تقبل بها شريحة اللحم العجلى المسلوق الصغيرة ، التى مضت عليها ثلاثة أيام ، دون ما تذمر . ورأت أنه قد أكتفى بها ، رغم ما بدا عليه من جوع ، واذن فلا شك فى أنه لن يتشدد فى أمر الطعام !**

واستطردت تقول مبتهجة ، وهى تنظف أسنانها بمشبك شعر : « انى على ثقة من أننا سنكون متفاهمين تماما . والحق اننى بحاجة الى قدر من التغيير فى جو حياتى ! » .. وراحت تتحدث اليه ــ وقد صفا مزاجها ــ عن الامور التى تضــيق بها ، فأعطته فكرة عامة عن المهنة ، وعن أحوالها .. وقالت : « كانت الحالة سيئة الى درجة لا تتصورها يا عزيزى ! .. فالدكتور بيدج مريض، والمساعدون مهملون وسيئو الاستعداد ، والدخل معدوم ، والنقود تفر من يدنا .. حال لا تستطيع أن تتصورها ! .. أضف اليها العناء الذى ألاقيه فى مصانعة مدير الشركة وموظفيها !.. أليسوا مصدر رزقنا ؟ » .. ثم سارعت الى القول مستدركة : « أعنى الرزق القليل الموجود .. لعلك تدرك من هذا كيف تسير الامور فى (بلينيللى) .. ان للشركة

ثلاثة أطباء مقيدين فى سجلاتها ، ولكنك خليق بأن تعرف أن الدكتور بيدج أفضلهم جميعا .. هذا ، فضلا عن المدة التى قضاها هنا ، وهى ثلاثون عاما أو تزيد .. وهو فيما يبدو لى أمر له وزنه الكبير ! .. ثم أن لهؤلاء الاطبـاء أن يستعينوا بأى عدد يرونه من المساعدين : فأنت للدكتور بيدج ، وللدكتور لويس مساعد يدعى « دينى » .. غير أن المساعدين لا يثبتون فى سجلات الشركة . **وعلى أية حال ، فان الشركة – كما قلت لك – تحتجز من مرتبات جميع من تستخدمهم فى المناجم والمحاجر نسبة مئوية ، وتوزع الحصيلة على الاطباء بنسبة عدد المرضى الذين يعالجهم كل منهم !** » . ثم توقفت عن الكلام ، اذ أعياها الجهد الذى بذلته بحكم جهلها ، وبسبب امتلاء معدتها .

– أحسب يا سيدتى أننى أدرك الآن سير العمل !

فضحكت مبتهجة ، وهى تقول : « اذن فلن يقلقك هذا الامر بعد الآن .. ان كل ما عليك أن تذكره هو أنك تعمل لحساب الدكتور بيدج ، هذا هو المهم يادكتور . لا تنس انك مساعد الدكتور بيدج ، وسوف تسير وهذه البائسة الصغيرة التى تحدثك على ما يرام ! » .. ولاح لمانسون – وهو يتأملها فى صمت – أنها كانت تحاول أن تستدر شفقته ، وأن توطد نفوذها عليه ، متذرعة فى ذلك بلطف متكلف ورشاقة مصطنعة فى الحديث .. ولعلها أحست بأنها قد قطعت شوطا بعيدا فى هذا الاتجاه ، اذ التفتت الى ساعة الحائط ، واعتدلت فى جلستها ، وأعادت المشبك الى شعرها اللزج ، ثم نهضت .. وأصبحت لهجتها حاسمة أو كادت ، وهى تقول : « بهذه المناسبة ، هناك زيارة يجب أن تقوم بها الى المنزل رقم ٧ بميدان (جليدار) . فقد استدعى الدكتور فى حوالى الساعة الخامسة ، وتحسن صنعا لو ذهبت على الفور ! »

— ٢ —

• **انصرف** أندرو على الفور ، يغمره شعور فريد ، هو شعور الارتياح لهذه الفرصة التى تتيح له الانطلاق من ذلك الجو الحافل بالتفاهات والمتناقضات ، الذى عاش فيه منذ وصل الى (برينجوير) .. لقد أصبحت لديه فكرة عامة عما سيكون عليه الموقف ، وعن الطريقة التى ستتبعها معه « بلودوين بيدج » لاحلاله محل رئيسه القعيد العاجز .. وكان الموقف فريدا ، يختلف تماما عن كل ما يمكن لخيال روائى أن يتصوره . **على أن المهم ــ بعد كل شىء ــ هو عمله ، وقد كان راغبا فى أن يبدأه فى أقرب وقت . فراح يستحث خطاه باطراد ، متلهفا للعمل ، مغتبطا أشد الاغتباط بفكرة عيادة أول مريض .. أجل كانت هذه أول حالة يفحصها !**

وكان المطر لا يزال ينهمر ، وهو يعبر أراضى خلاء سوداء قذرة ، ثم سار فى شارع (لاشابيل) فى الاتجاه الذى عينته مسز بيدج بغير دقة . وعلى الرغم من الظلام الذى كان يسود المدينة ، فانه تبين ــ وهو يجوس خلالها ــ شكلها ومعالمها ، حوانيتها وكنائسها وما اليها . ومر بنحو اثنتى عشرة كنيسة ، ثم بجمعية تعاونية كبيرة ، وبفرع لبنك المقاطعات الغربية ، ماضيا فى الطريق الرئيسى الممتد فى جوف الوادى . وأمضه ــ الى حد بعيد ــ احساسه بأنه مقبور فى هذا المنخفض السحيق ، بين الجبال .. وكان الطريق خاليا من المارة أو يكاد . وكانت ثمة صفوف وصفوف من مساكن العمال ذات القباب الزرقاء ، وقد أقيمت على مسافة بسيطة من جانبى الطريق ، فى وضع رأسى على امتداد شارع (لاشابيل) . وعلى البعد ــ عند مدخل الوادى ــ بدا مبنى « منجم (بلينيللى) للاحجار الحمراء ، ومصانع الحديد الخام » تحت ضوء قوى

امتد الى السماء المعتمة على شكل مروحة .

ووصل الى المنزل رقم ٧ بشارع (جليدار) ، فما ان طرق الباب حتى اقتيد الى المطبخ، حيث كانت المريضة مضطجعة فى فراشها .. كانت شابة ، متزوجة من سباك يدعى « وليام » . **واذ اقترب « أندرو » من سريرها ، بقلب تسارعت دقاته ، طغى عليه الشعور بما لعمله من قيمة .. انه كان البداية الحقيقية لحياته ! .. لكم تمثلها وهو يستمع – مع جموع الطلبة – الى الدروس فى قاعة المرضى التى كان يشرف عليها البروفيسور « لامبلو »** . وها هو ذا الآن ، وليس الى جانبه زملاء يعينونه ، وليس لديه شرح مبسط .. لقد كان وحيدا أمام حالة عليه أن يشخصها ، وأن يعالجها دون مساعدة من أحد .. فأحس بوجل مفاجىء، أدرك معه انه متوتر الاعصاب، تنقصه الخبرة ، ويعوزه الاستعداد الكامل لهذه المهمة ! ..

وبينما وقف الزوج الى جانبه – فى تلك الغرفة السيئة الاضاءة، ذات الارض الحجرية – أخذ « مانسون » يفحص المريضة بعناية فائقة .. ولم يكن ثمة شك فى انها مريضة ، فقد كانت تشكو من صداع لايحتمل ، وكانت درجة الحرارة ، والنبض، واللسان ، تشى كلها بخطورة الحالة .. ترى ما هى هذه الحالة ؟ .. وراح يوجه هذا السؤال الى نفسه – فى توتر عصبى – وهو يعيد فحص أول مريضة يعودها .. آه ، لقد كان يدرك انه منفعل أكثر مما ينبغى ! .. ولكن هب انه ارتكب خطأ ، خطأ شنيعا ؟ ! .. وهناك ماهو أسوأ من هذا .. هب انه ألفى نفسه عاجزا عن تشخيص الداء ؟ .. انه لم يغفل شيئا .. أى شىء ، ومع هذا فقد ظل يكافح لايجاد حل للمشكلة ، جاهدا أن يجمع الاعراض تحت اسم مرض محدد. **وأخيرا أدرك أنه لا يستطيع المضى فى أبحاثه أكثر مما فعل ، فاعتدل فى وقفته ببطء ، وطوى مسماعه باحثا عن كلمات**



يقولها . ثم تساءل وعيناه الى الارض : « هل أصابها برد ؟ »
وأجاب وليام فى لهجة الواثق ، وقد كان بادى القلق أثناء الفحص الطبى الذى دام طويلا : « نعم يادكتور . الواقع أنها اصيبت ببرد منذ ثلاثة أو أربعة أيام .. اننى متأكد من هذا » . فأومأ أندرو برأسه موافقا ، جاهدا فى عناء أن يوحى بثقة لم تكن عنده هو نفسه ، وقال : « ستشفى فى وقت قصير . احضر الى الصيدلية بعد نصف ساعة ، وسأعطيك زجاجة دواء ! »

واستأذن فى الانصراف ، ثم مضى وهو يفكر فى يأس ، مطأطىء الرأس ، مهرولا الى الصيدلية ، التى كانت عبارة عن كوخ خشبى أقيم فى مدخل الدرب المؤدى الى منزل بيدج .. وهناك أشعل المصباح الغازى ، وأخذ يذرع المكان طولا وعرضا — أمام أرفف مغبرة ، صف عليها زجاجات زرقاء وخضراء — شاحذا ذهنه الى أقصى حد ، يتلمس سبيلا فى ظلام دامس ، عله يجد مخرجا ! .. لم تكن هناك أعراض تشير الى مرض معين .. لابد — أجل لا بد ! — أن يكون بردا . وراح يزمجر فى غيظ شديد ، وهو يسخط على عجزه وقصوره . كان مضطرا — على الرغم منه — الى أن يتمهل . **لقد كان البروفيسور « لامبلو » يعمد — حين يواجه فى قاعة مرضاه**

حالة مشكوكا فيها – الى صيغة بسيطة أنيقة ، يطبقها بحذق ومهارة هى : « ح٠م٠أ » .. حمى مجهولة الاصل ! صيغة لاتشى بأى خطأ ، بل انها صحيحة تماما ، وتنطوى على تمكن علمى رائع !

وتناول أندرو من صندوق الزجاجات الفارغة – وهو مهموم – زجاجة سعة نصف لتر ، وشرع فى تركيب مزيج ضد الحمى ، وعلى محياه عبوس التفكير : نترات البوتاس ، سلسلات الصودا .. ياللشيطان ، أين ملح الصودا ؟ .. ها هو ذا أخيرا .. وحاول أن يسرى عن نفسه ، متذكرا أن هذا المزيج رائع ، كله من عقاقير بديعة ، تؤدى قطعا الى خفض الحرارة ، ويكون لها فعلا أثرطيب. لقدطالما أعلن البروفيسور لامبلو أنه ليس من دواء أكثر فاعلية بوجه عام من سلسلات الصودا !

* * *

وما أن فرغ من تركيب مزيجه وكتابة البطاقة – فى شعور بنشوة النجاح – حتى دق جرس الكوخ ، ففتح الباب .. ودخل شاب بدين – نوعا ما – فى نحو الثلاثين من العمر ، أحمر الوجه ، يتبعه كلب . وساد المكان صمت ، أقعى خلاله الكلب – الذى كان ذا لون أسود متفاوت الدكنة – على مؤخرتيه الموحلتين . أما الرجل الذى كان يرتدى بذلة قديمة من المخمل القطنى ، وجوربين قصيرين ، وحذاءين غليظين ثبتت بنعليهما مسامير ، وعلى كتفيه معطف من القماش الشمعى .. أما هذا الرجل ، فقد راح يتأمل أندرو من الرأس الى اخمص القدم ، ثم بدأ حديثه فى لهجة تنم عن أدب ساخر ودقة فى التعبير مثيرة ، فقال : « رأيت ضوءا فى النافذة – وأنا أمر بالمكان – فرأيت أن أدخل لارحب بمقدمك .. أنا « دينى » ، مساعد الدكتور لويس المبجل ، الحاصل على « ل . ج . ص . » ،

أي — اذا لم يكن قد صادفك هذا اللقب — « ليسانسييه من جمعية الصيادلة » . وهو أرقى لقب يعرفه الله والناس ! »

ونظر اليه أندرو — بدوره — فى تردد وحيرة ، فأخرج « فيليب دينى » لفافة تبغ من علبة بالية ، وأشعلها ، وألقى عود الثقاب على الارض ، ثم تقدم — فى غير حياء — فتناول زجاجة الدواء ، وقرأ البطاقة والتعليمات المدونة عليها ، ثم فتحها وشمها . وأغلقها وقد نمت قسمات وجهه الاحمر الغليظ عن تهنئة ودية ، وقال : « بديع ! .. لقد بدأت العمل فعلا ! .. ملعقة كبيرة كل ثلاث ساعات .. يالقدرة الله ! لكم تطيب النفس للعودة الى ممالأة الناس بعد انقطاع ! **لكن يادكتور ، لماذا لا تكون الجرعات ثلاث مرات يوميا ؟ .. ألا ترى يادكتور — من الناحية العلمية البحتة — أن الملاعق ينبغى أن تمر بفم المريض ثلاث مرات يوميا ؟ »** . وأمسك عن الكلام وقد غدا — برغم ما تظاهر به من حسن نية — أقل ميلا الى الاهانة ، واستطرد قائلا : « والآن ، قل لى يادكتور : ماذا فى داخل الزجاجة ؟ .. نترات البوتاس ، ان لم تخنى حاسة الشم . ان النترات عقار حلو المذاق ، عجيب .. عجيب حقا يادكتورى العزيز ! .. انه عقار طارد للغازات ، منشط ، مدر للبول ، يود الانسان لو يشرب زجاجة منه فى جرعة واحدة . هل تذكر ماقيل عنه فى الكتيب الاحمر : « عندما يساورك الشك ، فاعط المريض نترات البوتاس » ..أو تراها « جرعة اليود » ؟ يخيل الى أنى نسيت بعض القواعد الطبية الاولية ! » .

ومرة أخرى ، ساد الكوخ الخشبى صمت لم يكن يخرقه غير خرير المطر المنهمر على السقف المصنوع من الصاج . وفجأة ، ضحك « دينى » ساخرا من عبوس أندرو ، وسأله متهكما : « دعنا يادكتور من حديث العلم .. هلا أشعت

فضولى ، وحدثتنى عما جاء بك الى هنا ؟ » . فأجاب أندرو ضجرا . **وقد بدأ يغضب : « كان فى نيتى أن أجعل من (بلينيللى) مدينة صحية .. أشبه بمدن المياه المعدنية ، كما تعرف ! »**

وعاد دينى الى الضحك ، الى الضحك المهين ، حتى أوشك أندرو أن يصفعه . ثم قال دينى : « ياللفكاهة ، يادكتورى العزيز ! .. هذا مثال رائع للروح الاسكتلندية المرحة ! .. ولكننى لا أشهد — للأسف — بأن المياه هنا مياه معدنية صالحة لقيام مدينة صحية . أما السادة الاطباء — فى هذا الوادى يا دكتورى العزيز — فهم بقايا ونفايات مهنة مجيدة ونبيلة حقا ! » . فتساءل أندرو : « حتى انت ؟ » . فأومأ دينى موافقا وقال : « أجل » .

وسكت هنيهة محملقا فى أندرو ، ثم أمسك عن سخريته اللاذعة ، وعادت ملامحه الغليظة الى عبوسها . ثم قال ممعنا فى الفلظة ، وقد تحولت لهجته الى الجد : « انصت لى يا مانسون .. اننى أدرك أنك لست هنا الا لتشق طريقك الى شارع (هارلى) ، ولكن هناك أمرا او أمرين يجب أن تعرفهما — فى الوقت ذاته — عن هذا المكان . انك لن تجده متمشيا مع خير التقاليد التى يصورها الخيال لهذه المهنة . فلا مستشفى هنا ، ولا أية وسيلة من وسائل المواصلات ، ولا أشعة اكس .. **لا شىء اطلاقا . واذا تطلب الامر اجراء عملية ، فانها تجرى على منضدة مطبخ ، ثم تغتسل بعدها من الابريق والآنية . أما الناحية الصحية ، فلن تجد التفاتا اليها ! ..** ففى الصيف الشديد الجفاف ، يتساقط الصغار موتى كالذباب بكوليرا الاطفال . لقد كان بيدج — رب عملك — طبيبا بدائيا قديما ، طيبا ، ولكنه انتهى ، بفضل سعار « بلودوين » ، ولن يحمل المبضع ثانية ! .. أما سيدى

« لويس » ، فليس أفضل من « مولدة » بخيلة ، تجرى وراء المال .. فى حين أن « براموبل » ، « ملك الفضة » ، لا يعرف شيئا سوى بعض المقطوعات العاطفية ، وأناشيد سليمان ! .. أما أنا ، فانى أحتسى الخمر بشراهة . آه ، وهناك «جنكينز»، صيدليكم الأليف ، فانه ـ الى جانب عمله ـ يتجر فى أقراص ضد أمراض النساء ! .. وأحسب أن هذا هو كل شىءتقريبا . هيا يا « هوكنز » ننصرف ! » .. وأهاب بكلبه ، ثم سار نحو الباب بخطى متثاقلة ، وما لبث أن توقف قليلا ، وأجال بصره بين زجاجة الدواء ومانسون . وما لبث ان قال فى فتور وعدم اكتراث : **« بهـذه المناسبة .. لو اننى كنت مكانك ، لانصرف تفكيرى ـ وأنا فى ميـدان جليدار ـ الى الالتهاب الرئوى . ان بعض الاصابات به لاتبدو مطابقة لاعراضه تماما ! »**

وسمع أندرو صوت الباب يغلق . وقبل أن يستطيع الاجابة ، كان الدكتور « فيليب دينى » وكلبه « هوكنز » قد اختفيا فى الظلام ، تحت المطر .

— ٣ —

• **لم** تكن خشونة الفراش ـ المصنوع من صوف غير مندوف ـ سببا فى ان « اندرو » لم ينعم بنوم هنىء فى تلك الليلة . فما سهده سوى قلقه المتزايد على المريضة التىعادها



فى ميدان (جليدار) . أتراها مصابة بالتهاب رئوى ؟ .. لقد أثارت آخر كلمة فاه بها « دينى » مزيدا من الهواجس فى نفسه المضطربة القلقة ، فخشى أن يكون قد أغفل عرضا أو آخر من أعراض الحالة .. وود لو يذهب لرؤية المريضه : لولا أن الوقت كان جد مبكر . والحق أنه ظل ـ طيلة تلك الليلة الليلاء ـ يتقلب على فراشه ، ولا ينى يسائل نفسه عما اذا كان يعرف حقا أى شيء عن الطب !! .. فلقد كان مانسون ذا مزاج حاد ، ورثه دون شك عن أمه .. وهى امرأة من أهل المرتفعات ، كانت فى طفولتها تشاهد ـ من منزلها فى (أولابول) ـ أضواء الشمال تتعالى الى السماء الجليدية . أما أبوه « جون مانسون » ، فكان أحد صغار الزراع فى اقليم (فايفشاير) . وكان رجلا جادا مجتهدا ، له مكانته بين قومه ، وان لم يصب فى أى وقت نجاحا يذكر فى استغلال أرضه . حتى اذا قتل خلال السنة الاخيرة من سنى الحرب ، كانت شؤون مزرعته الصغيرة فى أسوأ حال ، **فظلت « جيسى مانسون » تكافح اثنى عشر شهرا ، لتديرها كمزرعة لانتاج الالبان ، حتى لقد كانت توزع اللبن بنفسها على عملائها ، كلما وجدت « أندرو » منهمكا فى استذكار دروسه** . ثم ألح عليها السعال ـ الذى تحملته دون أن يساورها أى ريب لعدة سنوات ـ حتى قضت نحبها ـ فى النهاية ـ متأثرة بداء الرئة الذى يفتك بهذا الجنس ذى البشرة الرقيقة والشعر الاسود !

وألفى « أندرو » نفسه وحيدا ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، يطلب العلم فى السنة الاولى بجامعة « سانت أندروز » ، معتمدا على منحة دراسية قدرها أربعون جنيها فى العام ، ولكنه لم يكن يملك شيئا عداها . وكانت هذه المنحة التى أنقذته ، هى « اعانة جلين » ، تلك المؤسسة الاسكتلندية النموذجية ، التى قال عنها طيب الذكر « سير أندرو جلين » ،

فى عبارة ساذجة : « انها تدعو الطلبة النابهين المعوزين ـ ممن يحملون اسم «أندرو» ـ الى أن يلتمسوا اعطاءهم قروضا لاتتجاوز خمسين جنيها سنويا ، لمدة خمس سنوات، بشرط أن يكونوا على استعداد ـ فيما بينهم وبين ضميرهم ـ لان يردوا هذه المبالغ فور تخرجهم » .. وقد ساعدت هذه الاعانة ـ الى جانب بعض صنوف الحرمان ـ على تمكين « أندرو » من اتمام دراسته فى « سانت أندروز » ، ثم فى مدرسة الطب بمدينة (داندى) . **وقد أدى عرفانه بصنيع هذه المؤسسة ، فضلا عن أمانته المضنية ، الى مسارعته الى (ساوث ويلز) ـ حيث يستطيع المساعدون الحديثو التخرج أن يحصلوا على أعلى المرتبات ـ ليتقاضى مرتبا قدره مائتان وخمسون جنيها سنويا .** بيد أنه كان فى قرارة نفسه يفضل أن يحصل على منصب فى عيادات مستشفى (ادنبره) الملكى، ولو بعشر هذا المرتب .

وها هو ذا فى (بلينيللى) ينهض ، ويحلق ذقنه ، ويرتدى ملابسه ، وقد أخذ به الهم كل مأخذ خوفا على مريضه الاول .. وتناول افطاره فى سرعة خاطفة ، ثم صعد الى غرفته ، حيث أخرج من حقيبته صندوقا من الجلد الازرق فتحه وراح يتأمل ـ وهو عابس ـ « الميدالية » التى كان يضمها .. ميدالية « هانتر » الذهبية ، التى تمنح كل عام لافضل طالب من طلاب الطب العلاجى فى « سانت أندروز » .. ولقد فاز بها هو ، أندرو مانسون ، وصار يعتز بها فوق كل شىء آخر، حتى أصبح يعتبرها أشبه بتميمة يستوحيها أمر مستقبله .. ولكنه ـ فى ذلك الصباح ـ لم يكن يتأملها باعتزاز ، بقدر ماكان يتأملها بتوسل غريب ، خفى ، وكأنما كان يحاول أن يسترد ثقته بنفسه . ثم هرول الى عيادة الصباح .

وكان « جنكينز » فى الكوخ الخشبى ـ حين وصل اليه

أندرو ـ منهمكا فى ملء جرة من الطين بماء من الصنبور .. كان رجلا صغير الحجم ، ساذجا ، نشيطا ، ضامر الخدين ، ذا عينين تتجه نظراتهما الى كل اتجـاه فى وقت واحد ! .. وكان يرتدى « بنطلونا » ملتفا حول فخـذين نحيلين ، لم يشهد « أندرو » مثلهما من قبل .

وتقدم يحيى مانسون فى تجلة واحترام ، قائلا : « لاداعى للحضور مبكرا الى هذا الحد يادكتور ، ففى استطاعتى تجديد الادوية الموصى بها من قبل ، واعداد الشهادات ريثما تحضر . لقد استصنعت مسز بيدج خاتما من المطاط لامضاء الدكتور منذ أن أقعده المرض! » . فقال أندرو : «شكرا .. اننى أفضل أن أفحص بنفسى الحالات التى تفد ! » . وأمسك عن الكلام وقد انصرف ذهنه ـ بعض الوقت ـ عن اهتمامه البـالغ بأمر مريضته ، الى ماكان يفعله الصيدلى ، ثم سأله : « لم تفعل هذا ؟ » . فأجاب جنكينز وهو يغمز بعينيه : **« ان الماء يبدو ألذ مذاقا حين يخرج من هذه الجرة ! .. اننا نعـرف معنى الماء المقطر ، أليس كذلك يادكتور ؟ .. ولكن المرضى لايعرفون . ومن ثم فلا بد من أن أبدو فى غاية الغباء لو انهم رأونى أمـلأ زجاجاتهم من الصنبور ، أليس كذلك يادكتور ؟ »**

وبدا جليا أن الصيدلى النحيل كان راغبا فى الاستطراد فى الحديث ، غير أنه سمع ـ فى تلك اللحظة ـ صوتا مرتفعـا ، انبعث من باب المنزل الخـلفى ، الذى كان على بعـد أربعين ياردة : « جنكينز ، جنكينز .. أريدك فورا ! » . فقفز ككلب سمع قرقعة سوط سيده ، وقال : « معذرة يادكتور ، فان مسز بيدج تنادينى .. يجب .. يجب أن أسرع ! »

.. ولم يفد على العيادة الصباحية سوى نفر قليل، لحسن الحظ . ففرغ أندرو من فحصهم فى الساعة العاشرة والنصف .. ثم قدم له جنكينز قائمة بالزيارات التى ينبغى أن تؤدى،

فسارع الى أدائها ، مستقلا العربة ، يقودها توماس . ثم طلب الى الحوذى – فى صبر نافد – أن يذهب به الى المنزل رقم ٧ بميدان جليدار .

وبعد عشرين دقيقة ، برح المنزل « رقم ٧ » مهموما ، وهو يعض على شفتيه ، وقد تجلى على أساريره تعبير غريب . فسار الى المنزل « رقم ١١ » ، الذى كان فى القائمة كذلك . . ومن المنزل « رقم ١١ » ، عبر الطريق الى « رقم ١٨ » ، ثم عرج على ميدان (رادنور) ، حيث عاد مريضين كانا قد فحصا بالامس على ما دونه جنكينز فى قائمة الزيارات . **وفى خلال ساعة ، كان قد أتم سبع زيارات فى الحى المجاور للعيادة مباشرة ، بينها خمس حالات تنم بجلاء عن اصابات معوية ، بما فى ذلك الحالة التى كانت فى المنزل رقم ٧ بميدان جليدار ، والتى تكشفت عن تطورات تتطلب عناية عاجلة .** فلقد ظل جنكينز عشرة أيام وهو يعالج هؤلاء المرضى بكربونات الكلسيوم والافيون . وها قد أحس « أندرو » وهو يرتجف فى وجل وخوف – بالرغم من الجهد الذى بذله فى الليلة السالفة – بعبء ثقيل ملقى على كاهله . . كان عليه أن يواجه حمى « التيفويد » بشكل وبائى . . فأتم بقية زياراته بأسرع ما يمكن ، وهو فى حالة نفسية تكاد أن تذهب بلبه .

* * *

وفى أثناء تناول الغداء ، راحت مسز بيدج تستمتع برغيف محمص بديع ، قالت عنه بابتهاج : « لقد أمرت به للدكتور بيدج ، ولكنه لم يستسغه » . . ولكن أندرو استغرق فى التفكير فى مشكلته فى صمت عميق . فقد رأى أنه لن يحصل من مسز بيدج الا على القليل من المعلومات ، لم تغنه فتيلا ، فعول على أن يحدث الدكتور بيدج نفسه فى الامر . ولكن الستائر كانت مسدلة فى غرفة الطبيب – حين صعد اليه –

وبدا الرجل منهوك القوى تحت وطأة صداع حاد لايطاق،وقد احمر جبينه كالقرمز ، وتجلى عليه الالم . وعلى الرغم من أنه دعا زائره الى الجلوس لحظة ، فان أندرو وجد انه من القسوة ازعاجه بالمشكلة فى الوقت الحاضر . **واذ تهيأ للانصراف — بعد بضع دقائق — اضطر الى أن يقتصر على أن يسأل : « ما أفضل مايجب عمله ، اذا وجدنا حالة وبائية ، يا دكتور بيدج ؟ »**

وسادت فترة من الصمت ، أجاب بعدها الدكتور بيدج وعيناه مغلقتان ، وكأن الكلام كان يضاعف الصداع : « نحن نضيق دائما بمثل هذه الحالات ، فليس هنا مستشفى ما ، وبالتالى لايوجد معزل . اذا عرضت لك حالة جدية من هذا النوع ، فاتصل تليفونيا بجريفيث ، فى (توينجلان) ، على مسافة خمسة عشر ميلا من هنا ، فى جوف الوادى . فهو مفتش صحة الاقليم » .. وعاد الصمت يسيطر برهة أطول من ذى قبل ، ثم قال : **« على أننى لا أعتقد أنه سيقدم عونا يذكر ! »**

وارتاح أندرو الى هذا التوجيه ، فهبط الى الردهة ، وطلب (توينجلان) تليفونيا . وكانت الخادم « آنى » فى المطبخ ،وقد أبصرها تنظر اليه وهو يتحدث واقفا ، وقد ألصق المسماع



بأذنه : « آلو ، آلو ، الدكتور جريفيث ؟ » .. وأجابه أخيرا صوت رجل كان يتكلم بتحفظ شديد : « من الذى يطلبه ؟ »

ـ الدكتور مانسون مساعد الدكتور بيدج فى (بلينيللى) .

وكان أندرو يتكلم كالمحموم .. واستطرد قائلا : « لدى خمس حالات «تيفويد» ، وأرجو أن يحضر الدكتور جريفيث على الفور ! » . ومضت ثانية من الصمت ، جاء بعدها الرد . وكان المتحدث يتكلم بلكنة أبناء (ويلز) ، وبلهجة رتيبة : « آسف يادكتور ، آسف جدا ، فان الدكتور جريفيث قد سافر الى (سوانسى) ، فى مهمة مصلحية هامة ! » . فرفع مانسون صوته ، اذ كان الخط التليفونى رديئا : « ومتى يعود ؟ »

ـ لا أستطيع أن أقول لك بالتحديد متى يعود !

وسمع صوت اعادة السماعة الى موضعها من التليفون الآخر مؤذنا بقطع الحديث ، فثارت ثائرته ، وراح يسب ويلعن بصوت مرتفع : « ياللشيطان ، أعتقد أن المتكلم كان جريفيث نفسه ! » .. وطلب الرقم مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع الاتصال به . وهم أن يعيد الكرة فى اصرار ، وفى هذه اللحظة لمح « آنى » تتقدم نحوه فى الردهة ، وقد عقدت ذراعيها على مئزرها ، وراحت تنظر اليه فى جد .. كانت امرأة فى نحو الخامسة والاربعين، غاية فى النظافة، شديدة الاعتناء بمظهرها، لينة الجانب . فقالت : « لم يكن فى وسعى يادكتور الا أن أستمع .. ليس بوسعك قط ان تجد الدكتور جريفيث فى هذه الساعة من النهار ، فى (توينجلان) ، فهو يذهب فى مساء كل يوم تقريبا ، الى خليج سوانسى » . فأجاب محنقا مغيظا ، وفى نفسه غصة مريرة : « بل أعتقد أنه هو الذى كان يكلمنى بنفسه ! »

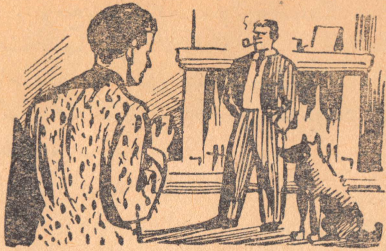
وحاولت أن تبتسم قائلة : « ربما .. فقد سمعت أنه اذا أراد التهرب زعم أنه قد ذهب ! » .. ونظرت اليه فى ود وادع، وقالت وهى تنصرف : « لو كنت مكانك ما أضعت وقتى معه ! » . فأعاد أندرو السماعة الى موضعها من التليفون وقد اشتد غيظه وضيقه . وغادر الدار ـ وهو ساخط ـ فزار مرضاه ثانية . حتى اذا عاد ، كان موعد العيادة المسائية قد أزف ، فمكث ساعة ونصف الساعة فى الغرفة الخلفية المظلمة الضيقة ، التى كانت مخصصة لفحص المرضى، منهمكا فى عمله .. بينما تندت جدران «العيادة» المزدحمة بالبخار المتصاعد من الاجسام الرطبة ، وكاد الحضور يختنقون .. وكانوا من عمال المناجم المصابين بانخلاع فى عظام الركب ، أو قطوع فى الاصابع ، أو التهابات مفصلية .. كما كانت هناك زوجاتهم ، وأطفالهم يشكون من سعال ، أو نزلات برد ، أو رضوض .. وكافة العلل التافهة التى تنتاب البشرية . ولو ان الامور كانت تسير سيرها العادى ، لاستمرأ عمله ، ولرحب بنظرات هؤلاء القوم ذوى الشعر الاسود ، والبشرة الشاحبة ، الذين شعر بأنهم كانوا يضعونه فى بوتقة الاختبار . ولكنه تحت وطأة المشكلة الكبرى، شعر برأسه يدور ازاء هذه العلل التافهة ، ومع ذلك فقد ظل ـ طوال الوقت ـ يسعى الى اتخاذ قرار ، ويفكر وهو يكتب الوصفات العلاجية ، ويفحص الصدور ، ويوجه النصح .. وراح يقول لنفسه : **« انه هو الذى زج بى فى هذه الحيرة .. اننى أبغضه .. أجل أمقته .. هذا الشيطان المتعالى .. ولكنى لا أملك غير هذا .. يجب أن أذهب وأراه ! »**

وعندما انتصفت الساعة العاشرة ، كان آخر مريض قد برح العيادة ، فغادر أندرو وكره ، وقد بدا عليه أنه اعتزم أمرا . وصاح : « جنكينز ، أين يقطن دكتور دينى ؟ » . وأغلق الصيدلى النحيل باب الغرفة بمزلاج ، خشية أن يدخل عليهما مريض

يكون قد تباطأ فى الخروج ، واستدار صوبه وقد بدا عليه فزع كاد أن يثير الضحك ، وقال : **((ما أراك تعتزم أن تتصل بهذا الشخص يا دكتور ؟ .. ان مسز بيدج لا تحبـه !)) .** فسأله أندرو فى تجهم : ((ولماذا لا تحبه ؟)) . وكان جوابه : ((لنفس السبب الذى من أجله يكرهه الجميـع ، فقد كان مسلكه معها غاية فى الغلظة والخشونة !)) .. ثم أمسك عن الحديث ، وتفرس فى عينى مانسون ، وأضاف على كره منه : ((ما دمت مصرا ، فانه يقطن عنـد مسز سـيجر ، بشارع لاشابيل ، رقم ٤٥))

وغادر أندرو الدار .. لقد ظل طـوال النهار واقفـا على قدميه ، بيد أن تعبه كله تلاشى ازاء شعوره بمسئوليته ، فان عبء هذه الامراض قد ألقى على كاهله ، وراح يزعجه بالحاح .. وأحس بارتياح بالغ عندما وصل الى حيث كان ((دينى)) يقيم .. وابلغته السيدة التى كان يقطن عندها بأنه موجود ، وقادته اليه . **واذا كان دينى قد دهش لرؤيته ، فانه لم يبد شيئا من هذه الدهشة ، وانما سأله بعد أن تأمله طويلا : ((ما وراءك ، هل قتلت فى هذه الفترة انسانا ما ؟))**

وكان أندرو يقف على عتبة الغرفة القائظة ، ذات الاثاث المبعثر . واحمر وجهه ، بيد أنه كظم غيظه فى جهد ، وكبت اعتزازه بنفسه ، وأجاب قائلا : ((لقد كنت على حق ، فان الاصابة كانت حمى معوية ، وانى لجدير بأن أرمى بالرصاص اذ عجزت عن أن أعرفها . ان لدى خمس حالات ، ولست مغتبطا كثيرا بقدومى الى هنا ، ولكنى لا أعرف الاجراءات التى تتبع ، وقد اتصلت بمفتش الصحة ، فلم أحصل منه على كلمة واحدة .. ولهذا جئت أستشيرك !)) .. واستدار ((دينى)) قليلا على المقعد الذى اتخذه بجوار المدفأة ، وغليونه فى فمه ، ثم أومأ فى غيظ ، قائلا : ((أدخل ، بحق السماء ..



أدخل ! » . وتولاه انفعال مفاجىء ، وهو يستطرد قائلا : « اجلس ! .. لا تبق واقفا هكذا كقسيس يوشك أن يرفض عقد زواج . هل لك فى كأس من الشراب ؟ .. كلا ؟ ! .. لقد حدست أنك لن تقبل ! »

وبالرغم من أن مانسون قبل على مضض دعوة « دينى » فجلس ، ثم أشعل - بعد تمنع - لفافة تبغ ، فان دينى لم يبد متعجلا ، بل أخذ يداعب كلبه « هوكنز » بطرف خفه المقطوع . حتى اذا انتهى مانسون من تدخين لفافته ، قال أخيرا ، وهو يومىء برأسه : « الق نظرة على هذا ، ان شئت ! »

* * *

كان فوق المنضدة التى أومأ اليها « ميكروسكوب » من طراز « زايس » البديع ، وبضع لوحات . فأمسك أندرو باحدى هذه اللوحات ، ووضعها تحت « الميكروسكوب » ، ثم أسال عليها مادة زيتية ، وما لبث أن رأى مجموعات من البكتريا التى على شكل العصا . وبادر دينى الى القول بلهجته الساخرة كما لو كان يستبق النقد : « جهاز عتيق ردىء الصنع دون شك .. الواقع اننى - بتعبير عملى - لست من هواة المعمل ، ولله الحمد . واذا كنت شيئا ما ، فأنا جراح . على ان الواحد منا مضطر الى أن يمارس كل الفروع التى تضمها

مهنتنا اللعينة . ومع هذا فلا مجال للخطأ .. حتى بالنظر المجرد . لقد سخنتها على الجيلاتين فى فرنى ! » . فسأله أندرو فى اهتمام بالغ : « هل عندك حالات أنت الآخر ؟ »

ـ أربع فى عين منطقتك ، وقد جئت بهذه الميكروبات من بئر ميدان جليدار !

وتطلع اليه أندرو وقد تبادر الى ذهنه سيل من الاسئلة يريد توجيهها اليه ، وقد أدرك ما فى عمل زميله من مبادرة ؛ واغتبط كل الاغتباط ، اذ اطلع على مصــدر الوباء .. أما « دينى » ، فقــد استطرد يقول فى لهجته الســخرة الفاترة المريرة : « انك تعرف أن الباراتيفويد مرض متوطن هنا ، الى درجة ما . ولن نلبث أن نشهد فى يوم قريب جدا عودة المرض الى الانتشار السريع . وسيكون الذنب فى ذلك على المجارى الرئيسية ، اذ أن القاذورات تتسرب منها ، وتتسلل الى نصف آبار المدينة المنخفضة . ولقد تحدثت كثيرا جدا مع جريفيث فى هذا الصدد ، حتى مللت ! .. **انه رجل كسول ، قذر ، متدين ، تعوزه الكفاية . وعندما اتصلت به تليفونيا أخيرا ، قلت له أنى سأشوه خلقته ، ولعله لهذا أنكر نفسه عنك عندما كلمته اليوم ! »** .. فصاح أندرو ، وقد نسى نفسه فى غمرة الاستهجان المباغت : « انه لعار مزر ! » . فهز دينى كتفيــه قائلا : « انه يخشى أن يطلب من المجلس البلدى أى شىء ، حتى لا يقتطعوا من مرتبه الضئيل شيئا لسد نفقات ما يطلبه ! »

وســادهما الصمت .. وتولت أندرو رغبــة متأججــة فى مواصلة الحديث ، فقد رأى فى تشاؤم دينى ـ بالرغم من عدائه له ـ حافزا يدفعه الى مجاذبته الحديث . ولكنه لم يؤت حجة لاطالة بقائه بعد ذلك ، فنهض عن مقعده ، واتجه نحو الباب مخفيا احساساته ، محاولا أن يعبر عن شــكره بلهجة تشى بما داخله من ارتياح ، فقال : « أشكر لك كل الشكر

أن زودتنى بهذه المعلومات . فلقد بصرتنى بموقفى ، اذ كنت قلقا بشأن المصدر ، وقد خطر لى أن ثمة حامل ميكروب نقل العدوى الى هنا .. أما وقد أوضحت لى أن البئر هى المصدر ، فقد أصبح الامر أهون بكثير .. ان كل نقطة ماء فى ميدان جليدار يجب أن تغلى ! » . **فنهض دينى بدوره من مقعده ، مغمغما : « بل أن جريفيث هو الاحق بأن يغلى ! »** . ثم عاوده مزاجه الساخر ، فقال : « لا داعى لعبارات الشكر العاطفية يا دكتور . اننا قد نضطر الى أن يحتمل كل منا الآخر بعض الوقت ، قبل أن تنتهى هذه المسألة ، فاحضر لزيارتى كلما استطعت .. ان الحياة الاجتماعية هنا ضيقة المجال ! »

ونظر الى كلبه ، واختتم الحديث فى غلظة قائلا : « اننا نرحب بأى طبيب ، ولو كان اسكتلنديا .. أليس كذلك ياسير جون ؟ » . فضرب « سير جون هوكنز » البساط بذيله ، وأخرج لسانه الوردى لمانسون مستهزئا !

وفيما كان مانسون عائدا ، مر بميدان جليدار ، فأصدر تعليمات مشددة بصدد الماء .. وتبين أنه لم يكن يكره دينى بالقدر الذى حسبه !

— ٤ —

• شن أندرو ضد الحمى المعوية معركة بث فيها كل ما انطوت عليه فطرته من حمية وحماس .. اذ كان مشغوفا بمهنته ، وقد اعتبر نفسه سعيد الحظ اذ أتيحت له مثل هذه الفرصة فى مستهل حياته العملية .. وأنفق الاسابيع الاولى فى عمل شاق مضن ، نهض به فى غبطة وابتهاج . وكان عليه عبء العمل اليومى المعتاد الذى تتطلبه المهنة ، فراح يؤديه كيفما اتفق ، ثم كان ينصرف باغتباط الى اصابات التيفويد . **وكأنما كان الحظ فى جانبه فى حملته الاولى ، فما**

ان أشرف الشهر على الانتهاء ، حتى كان جميع مرضاه قد تماثلوا للشفاء ، وبدا انه قد قهر الوباء . وكان كلما فكر فى الاحتياطات التى فرضها بصرامة : غلى الماء ، والتعقيم ، والعزل والاغطية المشبعة بحامض الفنيك وقد بسطت فوق كل باب ، وكميات « كلورور الكلسيوم » التى طلبها لحساب مسز بيدج ، ومراقبته شخصيا لمجارى تصريف القاذورات فى ميدان جليدار .. كان كلما فكر فى كل هذا ، صاح مفاخرا : « لقد أفلحت الخطة .. اننى لست جديرا بهذا النجاح ، ولكنى أحرزته بعون الله ! »

وكان يحس بغبطة مرذولة كلما تبين أن مرضاه كانوا أسرع شفاء من مرضى دينى . ولكن دينى كان يحيره ويثقل عليه . فقد أصبح من الطبيعى أن يتقابلا كثيرا ، نظرا لتقارب مساكن مرضاهما ، فكان يطيب لدينى أن يبدى سخريته اللاذعة من المهمة التى كانا يضطلعان بها . وكان يذكر عن مانسون وعن نفسه انهما « يكافحان الوباء فى استماتة » ، ويروح يتشدق بالعبارة وكأنه يستعذب شعورا بالتضحية والاستشهاد . **على أنه — برغم كل انتقاداته وتهكماته ، وبرغم ترديده بلا انقطاع : « لاتنس يادكتور أننا ندافع عن شرف مهنة مجيدة حقا ! » — كان مقربا الى نفوس مرضاه ، يجلس على أسرتهم ، ويضع يديه عليهم ، وينفق الساعات الى جانبهم ..** فكان « أندرو » يشعر — فى بعض الاحيان — بأنه يوشك أن يحبه لما كان يبدو عليه أحيانا من ومضات من التواضع والخجل . ثم لاتلبث أن تصدر منه كلمة تنطوى على التشاؤم والسخرية ، فاذا بكل شىء ينهار !

وفى ذات يوم — وقد بلغت الحيرة بأندرو مبلغا جسيما — رأى أن يلتمس مخرجا فى الدليل الطبى . وكانت ثمة نسخة مضى عليها خمس سنوات ، فتناولها من أحد رفوف الدكتور

بيدج ، فاذا فيها بعض بيانات أذهلته ، اذ بينت ان « فيليب دينى » **قد حصل على درجات الشرف فى جامعتى «كامبردج» و « جاى » ، وعلى درجة جراح ، وانه كان ــ عندما صدرت تلك الطبعة من الدليل ــ يتولى منصبا فخريا كجراح ، فى مدينة (ليبورو) !**

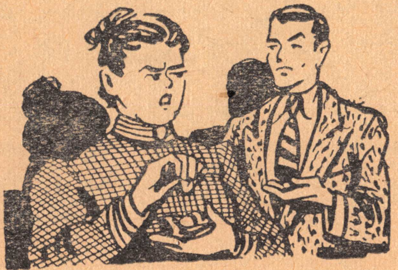
ثم فوجىء أندرو ــ فى العاشر من نوفمبر ــ بدينى يحدثه تليفونيا على غير توقع ، قائلا : « مانسون ، أحب أن أراك ، فهل تستطيع الحضور الى منزلى فى الساعة الثالثة ؟ .. انه أمر هام ! » . فأجاب : « حسنا .. سأحضر ! »

واستغرق أندرو فى التفكير أثناء الغداء . وبينما كان يتناول نصيبه من الفطير المصنوع فى المنزل ، لحظ أن « بلودوين بيدج » كانت ترمقه بنظرة حادة ، تنم عن الاستعلاء والسيطرة . ثم قالت : « من الذى كلمك تليفونيا ؟ .. ألم يكن دينى ؟ لاحاجة بك الى مخالطة هذا الشخص ، فهو لايصلح لشىء ! » . فقال معارضا فى برود : « لقد وجدته على العكس ، ذا نفع عظيم ! » . فصاحت كعادتها كلما عورضت : « هراء يا دكتور ! » . ثم استطردت فى ازدراء : « انه مخلوق غريب ، قلما يأمر بدواء ما . فعندما ذهبت اليه « ميجان ريس مورجان » ــ التى لاتستغنى عن الادوية اطلاقا ــ نصحها بأن تسير كل يوم ميلين فى الجبال ، وألا تستغرق فى غسل الاوانى المنزلية !.. هذه ألفاظه بالنص . ثم جاءت الينا فراح جنكينز يعطيها ــ منذ ذلك الحين ــ زجاجة تلو أخرى من الادوية العجيبة . يالله ، لكم هو رجل بغيض سفيه ! .. ولا بد أن له زوجة فى مكان ما ، لاتعيش معه .. ثم انه سكير كذلك ، فدعه وشأنه يادكتور ، وأذكر انك انما تعمل لحساب الدكتور بيدج ! »

واستشاط « أندرو » غضبا وهى تقذفه فى وجهه بهذا

النصح والتذكير .. الذى لم تكن تكف عن ترديده .. لقد كان يبذل كل مافى طاقته لارضائها ، ولكن مطالبهـا لم تـكن تعرف حدا تقف عنده .. كان موقفها منه يتراوح بين الشك حينا والارتياح والسرور حينا ، وكأنما كانت تبغى الحصول منه على أكثر مايمكن بأقل مقابل ممكن . وكانت قد انقضت ثلاثة أيام على موعد استحقاق مرتبه عن الشهر الاول ، دون أن يتقاضاه . ولعل الامر لم يكن أكثر من سهو بسيط ، بيد أن هذا التأخير قد ضايقه أشد المضايقة .

وراح يحملق فى المرأة ، التى كانت تشبه الكرة المستديرة ، وهى مغتبطة بأنها تقيم من نفسـها حكما على « دينى » ، فلم يتمالك نفسه وقذفها — فى حرارة مباغتة — بهذه العبارة : **« كنت خليقا بأن أكون أكثر استعدادا لان أذكر اننى أعمل لحساب الدكتور بيـدج ، لو اننى كنت قد تقاضيت مرتبى الشهرى يا مسز بيدج ! »** . فتضرج وجهها بسرعة أيقن معها أن الفكرة قد استقرت فى مقدمة ذهنها . ثم رفعت رأسـها متحدية ، وقالت فى غلظة « ستحصل عليه !.. يا لتفكيرك ! » . وظلت — حتى نهاية الطعام — جالسة فى تعال ، لا تنظر نحوه ، وكأنه قد أهانها . بيد أنها عندما استدعته — بعد ذلك — الى



قاعة الجلوس ، بدت متلطفة ، مبتسمة ، مرحة . وقالت : « هاك مرتبك يا دكتور . اجلس وكن لطيفا ، فليس بوسعنا أن نفعل شيئا اذا لم نتعاون ! »

وجلست فى المقعد الوثير المخملى الاخضر ، وفى حجرها الواسع عشرون ورقة مالية من فئة الجنيه ، وحافظة نقودها الجلدية السوداء . ورفعت الاوراق ، وأخذت تضعها ببطء فى يد مانسون ، واحدة بعد أخرى ، وهى تعدها : « جنيه ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ! » .. وكانت كلما اقتربت من نهاية حزمة الاوراق ، ازدادت تباطؤا ، وعيناها السوداوان الماكرتان تومضان فى انفعال . فلما بلغت فى العد ثمانية عشرة ، توقفت وأطلقت زفرة صغيرة ، اشفاقا على نفسها ، وقالت : « آه **يا دكتور .. يا عزيزى الدكتور ، هذا مبلغ كبير فى هذه الاوقات الصعبة ، فما رأيك ؟ .. « خذ واعط » هى شعارى على الدوام ، فهل أحتفظ بالجنيهين الباقيين كتعويذة للحظ السعيد ؟ »**

ولاذ بالصمت ، اذ كان الموقف الذى خلقته بشحها الخسيس أكثر مما يطيق . فقد كان يعرف أن دخل العيادة كبير .. وظلت دقيقة كاملة تتفرس فى وجهه الجامد ، فلما لم تلمح غير صلابة كصلابة الصخر ، ألقت اليه ببقية الاوراق المالية متجهمة ، وقالت بحدة : « احرص اذن على أن تكون جديرا بربحها ! » . ونهضت فجأة ، وهمت بالانصراف ، غير أن أندرو استوقفها قبل أن تبلغ الباب ، قائلا : « لحظة واحدة يا مسز بيدج ! » . وكان فى صوته حزم وانفعال ، فقد عقد العزم على ألا يسمح لها أو لجشعها بأن يتغلبا عليه ، برغم أنه كان يكره هذا الموقف . وقال: « **انك لم تعطنى سوى عشرين جنيها ، ومعنى هذا أن المرتب مائتان وأربعون جنيها فى السنة ، فى حين أننا اتفقنا على مائتين وخمسين ، فحق عليك يا سيدتى أن**

تدفعى لى الباقى ، وهو ستة عشر شلنا وثمانية بنسات ! »
واستشاطت غضبا واستياء ، وقالت فى حدة : « لكأنك تريد لموضوع النقود أن يباعد بيننا . طالما سمعت أن الاسكتلندى بخيل ، وها أنا ذا أتبين ذلك . اليك شلناتك اللعينة وكسورها ! » .
فأحصى القطع التى أخرجتها من حافظة نقودها بأصابع مرتجفة ، وهى تحملق فيه ساخطة . ثم اندفعت منصرفة ، وأغلقت الباب وراءها بعنف . وبارح أندرو الدار ودمه يغلى غضبا . فان الاهانات المتلاحقة التى وجهتها اليه « بلودوين » آلمته أكثر مما كان ينبغى ، اذ شعر بأنها لم تكن فى جانب الحق ! .. أفما كان بوسعها أن ترى أن الامر لم يكن أمر المبلغ التافه ، وانما كان أمر العدالة كمبدأ ؟ .. هذا الى أنه كان بفطرته — وبصرف النظر عن كل أعتبار خلقى — يعتز بنعرة قومه — شأن كل أهل الشمال — فما كان ليسمح لكائن من كان بأن يسخر منه ، طالما ظل فيه نفس يتردد !

* * *

ولم يهدأ روعه الا بعد أن ذهب الى مكتب البريد فأرسل العشرين جنيها — بحوالة بريدية — الى مؤسسة « جلين » ، مستبقيا الكسور لنفقاته النثرية . وفيما كان يهبط درجات مكتب البريد ، رأى الدكتور « برامويل » مقبلا نحوه ، فازداد اشراقه .. واقبل « برامويل » ببطء ، وقدماه الضخمتان تطآن الافريز فى عظمة ، وقد ارتدى بذلة سوداء ، وتدلى شعره الابيض الطويل على ياقة متسخة ، وراح يحدق فى كتاب بسطه أمامه ، على طول ساعده . فلما بلغ أندرو — وكان قد لمحه عن بعد — أظهر بحركة مسرحية أنه قد فطن اليه لتوه ، فهتف : « آه مانسون ، يا فتاى العزيز ! .. لقد كنت منهمكا حتى كدت لا أراك ! »

وابتسم أندرو ، اذ كان على علاقة ودية مع « براموبل »

الذى كان – خلافا لما فعله لويس ، الطبيب الآخر – قد استقبله عند وصوله استقبالا وديا . ولم تكن قلة العمل فى عيادة « براموبل » لتسمح بأن يكون له مساعد ، بيد أنه كان حميد الخصال ، ذا مواقف تليق بأستاذ عظيم ! .. وأغلق الكتاب معنيا بأن يدس اصبعا قذرة عند الصفحة التى كان يطالعها ، ثم أولج – بحركة رشيقة – يده الخالية فى صدر معطفه البالى . كان يتكلف فى حركاته ، فكأنه ممثل يؤدى دورا ، ولكن .. فى شارع (بلينيللى) الرئيسى . فلا عجب أن دعاه دينى : « الملك الفضى » !

– قل لى يا فتاى العزيز ، كيف وجدت مجتمعنا الصغير ؟ .. انه – كما قلت لك عندما قدمت لزيارة زوجتى العزيزة واياى فى « بيت التقاعد » – ليس من السوء كما يبدو لاول وهلة .. ان لنا مناقبنا وثقافتنا ، وان زوجتى واياى لنبذل جهدنا لتحسينها . اننا يا مانسون نحمل المشعل ولو فى الصحراء . يجب أن تزورنا فى احدى الامسيات .. هل تغنى؟

ولكم ود أندرو أن يضحك ، ولكن براموبل استطرد : « لقد سمعنا جميعا – بطبيعة الحال – بكل ما فعلته مع مرضى التيفويد ، وان (بلينيللى) لفخورة بك يا صديقى الشاب . والشىء الوحيد الذى آسف له هو أن الحظ لم يسعدنى بالمساهمة فى هذا الجهد . اذا احتجت لى فى أية حالة عاجلة ، فبوسعك أن تركن الى ! » .. وساور أندرو شعور بالاشفاق – فمن هو حتى يتلهى على حساب طبيب متقاعد ؟ – مما دفعه الى أن يقول : « الواقع – يا دكتور براموبل – أن لدى حالة « ميديا ستينيت » طريفة ، غير عادية ، فلعلك تعنى بأن تفحصها معى ، اذا كان لديك فراغ ! » . فتساءل براموبل ، وقد فتر تحمسه بعض الشىء : « حقا ؟ .. لست أريد أن أضايقك ! » . وألح أندرو فى رقة ، قائلا : « ان المريض قريب

من هنا ، ولدى نصف ساعة من الفراغ قبل أن أذهب لزيارة الدكتور دينى .. سنكون هناك بعد دقيقة واحدة ! ». وتردد براموبل ، وبدا لحظة أنه يوشك أن يرفض ، ثم أبدى موافقته فى استخذاء ، فاتجها صوب ميدان (جليدار) ، لعيادة المريض.

وكانت الحالة ـ كما ذكر أندرو ـ ذات أهمية خاصة ، فهى التهاب مستمر فى الغدة « التيموسية » ـ أو « الزعترية » ـ فريد فى بابه ، نادر كل الندرة .. وكان أندرو فخورا بأنه شخص المرض التشخيص الصحيح ، فتولاه تحمس حار وهو يدعو « براموبل » الى أن يشاطره نشوة الاكتشاف . غير أن براموبل ـ برغم احتجاجاته ـ لم يبد اهتماما كبيرا بالامر ، اذ تبع أندرو الى داخل الغرفة فى غير تعجل ، واقترب من السرير فى حرص وحذر ، ثم توقف على مسافة كافية لتجنب كل خطر ، وأجرى فحصا سريعا .. ولم يعد مستعدا للبقاء أكثر من ذلك ، ولا هو استرد طلاقة لسانه الا بعد أن خرجا ، فاستنشق الهواء الطلق فى نهم ، ثم استدار نحو أندرو ، وقال له : « لكم سرنى يا فتاى أن رأيت مريضك معك ، أولا لاننى أشعر أن من واجب الطبيب ألا يتراجع أمام خطر العدوى ، وثانيا لانى أغتبط بفكرة أى تقدم علمى . **وصدقنى أو لا تصدق ، اذا قلت ان هذه حالة من أطرف حالات التهاب البانكرياس التى رأيتها فى حياتى ! »**

وصافح زميله ، ثم ابتعد مخلفا اياه فى ذهول .. البانكرياس؟! .. وراح أندرو يفكر فى دهشة بالغة .. ان براموبل لم يقع فى هذا الخطأ الفاحش نتيجة لزلة لسان بسيطة ، بل ان كل تصرفاته أمام المريض كانت تنم عن جهله .. عن أنه لم يكن يعرف ، وهذا كل ما هناك ! .. وفرك أندرو جبينه . **منذا الذى يتصور أن طبيبا يحمل « ديبلوما » ، وفى يده حياة مئات من الناس ، لا يفرق بين البانكرياس والغدة « الزعترية » ،**

والاول فى البطن والثانية فى الصدر ؟ !.. انه لامر مذهل حقا !

وسار فى الطريق صعدا ، متجها صوب منزل « دينى » ، وقد استبد به – مرة أخرى – احساس بأن فكرته المعقولة عن المهنة كانت تنهار من أساسها .. كان يعرف عن نفسه أنه طبيب ناشىء ، لم يتم تدريبه ، فمن الممكن أن يقع فى أخطاء نتيجة لافتقاره الى مزيد من التجربة والاختبار ، ولكن هذه لم تكن حال « براموبل » ، فهل لجهله من عذر ؟ .. واتجه فكر « أندرو » – بالرغم عنه – نحو « دينى » ، الذى لم يكن يكف عن السخرية من المهنة .. كان « دينى » قد غاظه – بادىء ذى بدء – بقوله أن فى بريطانيا العظمى آلافا من الاطباء غير الاكفاء ، فهم مبرزون فقط فى الغباء وفى خبرة مكتسبة بصنوف خداع مرضاهم .. أما الآن فقد بدأ يتساءل : أليس فى سخرية دينى شىء من الحقيقة ؟ .. هذا ما قرر أن يبحثه معه فى هذا المساء بالذات ! .. ولكنه لم يكد يدخل غرفة « دينى » حتى تبين أن اليوم لم يكن ملائما لبحث علمى . فقد استقبله فيليب دينى فى صمت واجم ، وقد بدا الحزن فى عينيه وفى تقطيب جبينه . ثم قال بعد هنيهة : « لقد مات الشاب جونز اليوم .. فى الساعة السابعة صباحا ! » .. وكان يتكلم بصوت أجش ، وقد بدا عليه هم ممض ، ووجوم يخفى وراءه سخطا وغضبا شديدين . ومضى يقول : « وعندى حالتا تيفويد جديدتان فى حى (استراد) ! »

وطأطأ أندرو رأسه وقد زخر قلبه بالاشفاق والعطف ، فلم يعرف ماذا يقول . واستطرد دينى يقول فى حرارة : « لا تبد شماتة ولا غرورا .. حسن جدا بالنسبة لك أن ترى مرضاى يزدادون سوءا ، بينما مرضاك يتحسنون . ولكنك لن تظل مزهوا عندما تسيل الفضلات من مجرى القاذورات فى منطقتك ! » . فصاح أندرو على الفور : « لا ، لا ! .. الحق

اننى آسف ، ولا بد لنا من أن نفعل شيئا فى هذا الصدد .. يجب أن نكتب الى وزارة الصحة» . **فصاح دينى قائلا: «اننا قد نكتب عشرة خطابات لوزارة الصحة ، ولن تكون النتيجة سوى ايفاد مفتش صحة هرم ، بعد ستة أشهر ! .. كلا ، لقد فكرت فى الامر طويلا ، وليست هناك غير وسيلة واحدة لارغامهم على انشاء شبكة جديدة للمجارى!» . فسأله أندرو: «وما هى ؟» .. وكان جوابه : «نسف المجارى القديمة !»**

وخيل لاندرو لحظة أن دينى قد فقد صوابه ، ولكنه ما عتم أن فهم شيئا مما انطوى عليه مقصد صاحبه العنيف . ونظر اليه مليا ، محاولا جهده أن يعيد تنسيق أفكاره المضطربة .. وبدا له أن « دينى » قد صح عزمه على هدم تلك المجارى ، فغمغم : « ستكون فضيحة رخيصة .. اذا اكتشف الامر! » : فقال دينى وهو يرفع رأسه مزهوا : « لست بحاجة الى أن تشترك معى فى هذا الامر ، اذا كنت لا تستريح له ! » . فأجاب أندرو فى هدوء : « بل اننى معك .. والله وحده يعلم ما يدفعنى الى ذلك ! »

* * *

أكب أندرو على عمله طوال ما بعد ظهر ذلك اليوم ، فى قلق ، يساوره الندم على الوعد الذى قطعه على نفسه .. لقد كان دينى أهوج ، فاقد الصواب ، ولن يلبث أن يجره ــ ان عاجلا أو آجلا ــ الى متاعب خطيرة . انه لأمر مخيف هذا الذى يقدم عليه ، انها جريمة اذا قدر لها أن تتكشف يوما ما فقد تقوده الى القضاء ، وقد يؤدى الامر الى شطب اسمه من سجل الاطباء !.. وسرت فى جسد أندرو قشعريرة هزت كيانه رهبة وفزعا ، وهو يتمثل مستقبله فى المهنة يمتد أمام خياله لامعا مشرقا ، ثم يهتز فجأة وينهار ويصبح خرابا . ولعن فيليب فى سخط بالغ ، وأقسم عشر مرات على الاقل ألا يعاونه .

غير أنه لسبب خفى معقد لم يستطع التراجع . ففى الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة ، سار هو و « دينى » ـ يتبعهما الكلب هوكنز ـ متجهين صوب نهاية شارع (لاشابيل) .
وكان الظلام مخيما على المنطقة ، والريح تعصف عند تقاطع الطرق فتلفح وجهيهما . وكان المطر يتساقط رذاذا ..

وكان « دينى » قد رسم خطته ، وحدد ساعة العمل . فلقد انقضت ساعة على هبوط عمال النوبة الليلية الى جوف المنجم ، وخلت الطريق من المارة ، اللهم الا قليل من الرجال كانوا يتسكعون بالقرب من مطعم السمك الذى يمتلكه الشيخ توماس فى نهاية الشارع . وتقدم الرجلان والكلب فى سكون واطمئنان .. وكان فى جيب معطف دينى السميك ست أصابع من «الديناميت» سرقها له خصيصا ـ فى ذلك المساء ـ « توم سيجر » ، ابن صاحبة المنزل الذى يقطنه ، من مخزن متفجرات المحجر . وكان أندرو يحمل ستا من علب الكاكاو ـ مثقوبة الاغطية ـ وأحد مصابيح الجيب الكهربائية (بطارية) ، ولفة من الفتيل . **وكان أندرو يسير منكس الرأس ، وقد رفع ياقة معطفه ، وراح يجيل بصره حوله فى خوف ووجل ، وهو مضطرب الجنان لما كان يحسه من انفعالات متضاربة ، لا يجيب عن عبارات « دينى » المقتضبة بغير كلمات من مقطع واحد ..** وراح يسائل نفسه فى وجوم عما يقول عنه «لامبلو» ـ أستاذه المثالى الرقيق الجانب ـ لو أنه رآه وقد زج بنفسه فى هذه المغامرة الليلية الآثمة !

وما ان بلغا ميدان (جليدار) ، حتى أتجها صوب البالوعة الكبرى ، المؤدية الى المجارى وشرعا فى العمل . ولم يكن غطاء البالوعة الصدىء قد رفع منذ أعوام ، بيد أنهما استطاعا ـ بعد جهد عنيف ـ أن يرفعاه ، ثم سلط أندرو ضوء بطاريته على جوف البالوعة ، حيث كان يجرى سيل من الاوساخ ، فى مجرى

حجرى .. وقال دينى بصـوت أجش : « بديع .. أليس كذلك ؟ ! .. تأمل الشقوق التى تتخلل المجرى .. تزود بنظرة أخيرة يا مانسون ! » . ولم يتبادلا كلمة واحدة أخرى .. ومن عجب أن حالة أندرو النفسية كانت قد تبدلت تماما ، فأصبح يحس بزهو يملأ جوانحه ، ولم يعد أقل عزما من دينى .. **كان الناس يموتون من هذه المباءات المنكرة ، والنظم الحكومية لا تفعل شيئا لانقاذهم .. ان اللحظة لم تكن تتطلب رفقا ولا علاجا طبيا !**

وأخذا يعدان العلب الصفيحية الفارغة ــ بحماس ــ واضعين فى كل منها اصبعا من «الديناميت» ، ثم أجزاء من فتائل مختلفة الاطوال . وأومض فى الظلمة وهج ثقاب أضاء وجه دينى الخشن الشاحب ، كما أضاء يدى أندرو المرتعشتين ، وفى هذه اللحظة أخذ أول فتيل يشتعل . وألقيا العلب ــ واحدة بعد أخرى ــ فى المجرى ، مبتدئين بأطولها فتيلا . ولم يكن أندرو يرى ما حوله بوضوح ، وقد راح قلبه يخفق بانفعال .. قد لا يكون هذا العمل من الطب الحقيقى فى شىء ، ولكن أندرو لم يعش فى حياته لحظة خيرا من هذه اللحظة ! .. وعندما هوت آخر علبة ، والنار تسرى فى فتيلها ، تراءى



لهوكنز أن يصيد فأرا . ومرت فترة من الصمت الممض ، تخللها نباح الكلب وهو يصطاد الفأر ويفوز به ، بينما انصرف ذهنا الرجلين — فى فزع قوى — الى الانفجار الشديد الذى كان موشكا أن يقع تحت أقدامهما . وما لبثا أن أعادا غطاء البالوعة الى مكانه وأسرعا ما وسعهما الركض الى مسافة ثلاثين قدما من حيث كانا !

وما أن بلغا ركن ميدان (ريد نور) ، وتوقفا يستطلعان الطريق حولهما ، حتى دوى انفجار العلبة الاولى . فصاح أندرو بصوت مختنق ، وان كان يشى بالزهو : « يا الله ، لقد أدينا المهمة يا دينى ! » .. **وأحس بزمالة قوية تربطه بالرجل الآخر ، فود لو أمسك بيده وصاح معبرا عن انتصارهما ! .. ثم تعاقبت الانفجارات بسرعة ، وعلى أحسن وجه : الثانى ، فالثالث ، فالرابع ، فالخامس .. وفى النهاية ، دوى الانفجار الاخير فكان رائعا ، وسمع على بعد ربع ميل فى الوادى ! ..**
وهتف دينى بصوت منخفض : « ها ! » .. وكأنما احتشد كل ما كان يخفيه فى نفسه من مرارة حياته ، فى هذه الكلمة . واستطرد قائلا : « هذه نهاية جزء من الفساد ! » . ولم يكد يتم عبارته حتى كان أهل الحى قد أحسوا بما حدث ، فدب الهرج والمرج ، وفتحت الابواب والنوافذ مرسلة الضوء على الطريق المظلم ، وخرج خلق كثير غص بهم الشارع فى دقيقة واحدة . وظن القوم — فى أول الامر — أن انفجارا وقع فى المنجم ، بيد انه سرعان ما تبين غير ذلك ، اذ ان دوى الانفجارات كان ينبعث من الوادى ذاته . وثارت المجادلات ، وكثرت التخمينات ، وذهبت جماعة منهم تستكشف الامر على ضوء المصابيح . وساد الاضطراب سكون الليل ، واستطاع أندرو ودينى — بفضل الظلام والاضطراب العام — أن يعودا الى دارهما من طرق ملتوية .. وغمرت « أندرو » نشوة النصر !

* * *

لم تكتمل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، حتى كان جريفيث قد وصل بسيارته ، وقد أقصى عن فراشه الدافىء عنوة ، على صياح « جلين مورجان » عضو البلدية . وكان بوسع « جريفيث » أن يعرض عن اجابة دعوات أطباء المنطقة، ولكنه لم يكن يستطيع عصيان الاوامر التى أصدرها اليه « جلين مورجان » فى غضب وسخط . والحق انه كان على حق فى غضبه ، فان داره الجديدة كانت على مسافة نصف ميل فى الوادى ، وقد أصبحت – خلال ليلة واحدة – محوطة بقاذورات تتحدى قاذورات القرون الوسطى . وظل عضو البلدية ومعه عضوان آخران من مؤيديه – هما « هامار ديفيس » و « ديون روبرتس » – نصف ساعة يحدثان مفتش الصحة ، بأصوات تناهت الى مسامع الكثيرين ، بكل ما كانوا يرونه فيه ! .. حتى اذا فرغوا ، جفف جريفيث جبينه ، ثم اتجه نحو دينى ومانسون ، اللذين كانا وسط الجمع المتحمس . واذ رآه أندرو يتقدم ، أحس بضيق مفاجىء . كانت أحداث هذه الليلة الصاخبة قد هدأت روعه ، **فأصبح يستشعر الخجل من نفسه – فى هذا الصباح الذى لم يشتد بعد ضوء نهاره – وهو يرى ائتلاف الطريق المنسوف ، ومن ثم أحس بأنه متضايق ، قلق ، متوتر الاعصاب ، فى حين أنه لم يكن يبدو على « جريفيث » ما ينم عن أنه كان يتهم أحدا !**

وقال جريفيث لفيليب بصوت مرتعش : « يا صديقى ، يا صديقى .. اننا مضطرون الآن الى أن نبنى لكم مجارى جديدة دون ابطاء ! » . فأجابه دينى فى برود ، ودون أن يشى وجهه بشىء : « لقد نبهتك منذ أشهر ، ألا تذكر ؟ » . فقال مفتش الصحة : « بلى ، بلى .. ولكن كيف كان يمكننى أن أتصور أن هذه المجاري اللعينة ستنفجر على هذا النحو .

كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ .. أنه بالنسبة لى لغز ! » .
فرمقه دينى بنظرة باردة ، وقال : « ماذا تفعل بمعلوماتك فى الصحة العامة ؟ .. ألا تعرف أن غازات هذه المجارى قابلة للاشتعال الى أقصى حد ! »

وفى يوم الاثنين التالى، بدأ العمل فى بناء المجارى الجديدة .

— ٥ —

• ومضت ثلاثة أشهر ، ثم أقبلت تباشير الربيع تشيع البهجة فى جنبات الوادى . كانت الطبيعة تصحو من اغفاءتها، وتتهيأ لتتخذ زينتها ، فاخضرت الارض وأورقت الاشجار — او كادت — وتعطرت نسائم الربى بعبير النبت الوليد . وفى ذات أمسية صحوة من أمسيات شهر مارس ، بدت (بلينيللى) ذاتها — وهى تلك الرقعة من الارض التى أظهرت قبح منظر الجبال والمناجم — فى حلة قشيبة تحت سماء زرقاء صافية !

واذ برح أندرو الدار لعيادة مريض فى المنزل رقم ٣ بشارع (ريسكين) — تلبية لطلب عاجل من أهله — خيل اليه أن نبضات قلبه تتجاوب مع أنغام ذلك اليوم البديع .. انه يتأقلم ويألف — شيئافشيئا — الحياة فى هذه المدينة البدائية المنعزلة الدفينة فى أغوار الجبال ، الخالية من أى ملهى حتى أنك لتبحث فيها عن دار واحدة للسينما فلا تجد .. ليس فيها غير هاتيك المناجم الكئيبة والمصانع المعدنية ، وتلك الكنائس المتجاورة ، وتلك الصفوف المرصوصة من الدور القاتمة ! .. يالها من مدينة تافهة حقا ، يخيم عليها سكون شامل !

وكان أهلها غريبى الاطوار بدورهم ، فلم يكن أندرو يتمالك — اذ يراهم مختلفين عنه — أن يحس نحوهم بالمودة والاشفاق .. كانوا جميعا — فيما عدا التجار ورجال الدين وبعض أرباب المهن — فى خدمة الشركة .. وفى نهاية كل نوبة

عمل، وبداية النوبة التى تليها، كانت الطرق الساكنة تستيقظ فجأة ، وتتردد فيها أصداء وقع النعال ذات المسامير ، وتزخر — على غير ارتقاب — بجيش من المشـاة .. وكانت مـلابس وأحذية وأيدى أولئك الذين يعملون منهم فى منجم «الهيماتيت» — الصخور الحمراء — بل ووجوههم أيضا ، تحمـل بقـايا غبار أحمر . أما عمال المحاجر فكانوا يرتدون ملابس من جلد سميك ، ذات وقاءات وأربطة عند الركب .. وكانوا يمتازون عن سواهم بسراويل زرقاء .. كمـا كانوا قليـلى الـكلام ، يعمـدون الى لغـة (ويلز) فى أكثر مايقولون .. وكم كانوا يبدون — فى انطوائهم واستكفائهم — كمـا لو كانوا من عنصر غير عنصر الباقين. ومع هذا فقد كانوا قوما حميدى الخصال، ينصرفون الى اللهو البرىء كل البراءة ، سواء داخل بيوتهم ، أو فى أفنية الكنائس ، أو على أرض ملعب كرة القدم الصغير فى طرف المدينة . وكانت الموسيقى هى هوايتهم المفضـلة — بوجه عام — ولا نعنى بذلك الاغانى المبتذلة الشائعة ، وانمـا الموسيقى الجدية الكلاسيكية . **وكثيرا ماكانوا يجيئـون الى اندرو سيرا على الاقدام ليلا — عبر الشـوارع والطرقات — لكى ينصتوا تحت نافذته الى أنغام البيانو المنبعثة من داخل مسكنه المتواضـع : الى « سـوناتا » لبيتهوفن ، أو مقـدمة لشوبان ، تعزف بمهارة فائقة ، وتتصاعد ألحانها الى ذرى الجبال المنيعة !**

أما عن العمل فى عيادة الدكتور بيدج ، فقد انجلى الموقف تماما أمام أندرو : فما كان مقدرا لمخدومه أن يرى مريضـا بعد ذلك . بيد أن المترددين على العيادة أبوا أن يتركوا بيدج، الذى عالجهم بأمانة طيـلة ثلاثين عـاما . أمـا « بلودوين » الجريئة ، فقد نجحت فى استبقاء « بيدج » فى قائمة أطبـاء الشركة ، بمـا كانت تبـديه لواتكينز مدير المنجم من خداع

ومصانعة ، اذ كان الرجل الذى تجىء من طريقه أجور معالجة العمال . فكانت تحصل — لذلك — على دخل وفير ، تعطى نحو سدسه لمانسون الذى كان ينهض بعبء العمل كله ! ..
وكان أندرو يشعر بأسى عميق على ادوارد بيدج .. فان هذا الرجل الطيب الساذج ، كان قد تزوج من «بلودوين» الممتلئة الجسم فى تناسق ، والانيقة المدللة ، دون أن يعرف ما كانت تخفيه عيناها المتراقصتان السوداوان — الشبيهتان ببرقوقتين — من خبث ودهاء . وكان قد تعرف اليها فى مشرب للشاى فى (ابريسويت) . **أما وقد أقعده المرض ولزم الفراش ، فقد بات تحت رحمتها ، يستكين لمعاملة تمتزج فيها صنوف الملاطفة بنوع من قسوة باشة .. ولا يعنى هذا أنها لم تكن تحبه ، اذ أنها كانت — فى الواقع — مشغوفة به ، ولكن على طريقتها الفريدة الشاذة ! ..** لقد كان الدكتور بيدج ملك يديها . وكانت اذا أقبلت على الغرفة — وأندرو يجلس الى جانب المريض — تقدمت وعلى شفتيها ابتسامة مفتعلة ، ثم هتفت وقد داخلتها غيرة عجيبة لانفرادهما دونها : « هاى ! .. فيم تتكلمان ؟ »

وما كان من الممكن ألا يحب المرء ادوارد بيدج ، فقد كانت تتجلى فيه تلك الصفات الروحية المبنية على التضحية والبذل ونكران الذات . كان مضطرا الى أن يبقى طريح الفراش ، مجردا من كل حول ، مهدما ، راضيا بكل ما كانت تحيطه به تلك المرأة الجريئة ، السمراء الوجه ، العديمة الصبر — التى كانت زوجة له — من عناية صاخبة ، وهو فريسة لجشعها ومطالبها المزرية الملحاحة ! .. وما كان ثمة مايضطره الى البقاء فى (بلينيللى) ، بل لقد كان يود لو غادرها الى جهة أخرى أدفأ وألطف .. **ولقد تنهد — اذ سأله أندرو يوما عما اذا كان فى حاجة الى شىء ما — وقال : « أود**

أن اغادر هذا المكان يافتاى ! .. لقد قرأت قصصا كثيرة عن تلك الجـزيرة .. جزيرة كابرى ، حيث سينشـــأ مأوى للطيور ! » . ثم أدار وجهه على الوسادة..وكان الحنين الذى خالط صوته جد محزن !

وكان الاطفال يثيرونه .. وما تحدث عن مهنته ، الا قال بصوت خائر : « بوسعى أن أقول انى لم أوت من المعـرفة الا قليلا ، ولكنى بذلت غاية جهدى ! » .. وكان يظل السـاعات الطوال محدقا - فى سكون - فى حافة نافذته ، حيث كانت « آنى » تضع فى كل صباح بعض فتات الخبز ولحم الخنزير وشحمه والجوز المبشور .. وفى ضـحى أيام الاحد من كل أسبوع ، كان يزوره عامل مسن من عمـال المناجم ، هـو « أونوك دافيز » ، فيقبل مشدود القوام فى بذلته السـوداء المخططة ، وقميصه المصنوع من السيليلويد ، ويجلس الى بيدج ، ويروحان يرقبـان الطيور فى صمت تام ! .. ولقـد التقى أندرو - ذات مرة - بأونوكوهو يهبط بادىالاضطراب، فبادره العامل المسن : « ياالله ، لقد قضينا هذا الصباحنتأمل عصفورين ظلا يتناوشان زهاء الساعة على حافة النافذة !» .

وكان أونوك هو صديق بيدج الوحيد ، وقد أوتى نفوذا كبيرا على زملائه ، وكثيرا ماكان يقسم بأغلظ الايمـان أن أحدا من عمال المناجم لن يفرط فى الدكتور بيدج ما بقى هو - لونوك - فى هذه الدنيا ! .. وما كان يدرى مدى ما كان يسببه وفاؤه لادوارد بيدج المسكين من أذى !

وثمة شخص آخر كان يتردد على دار بيدج ، هـو مدير « بنك المقاطعات الغربية » ، انيورين ريس . وكان رجلابدينا، جافا ، أصلع ، لم يرتح اليه أندرو لاول وهلة .. وكانمواطنا محترما ، ذا شـخصية لا يصـادفها المرء فى كل وقت .. وكان يجىء لرؤية الدكتور بيدج - فى الظاهر - ولكنه لم يكن

يمكث معه سوى خمس دقائق ، ثم يختلى بمسز بيدجساعة .. وكانت مقابلات بريئة كل البراءة ، لايدور فيها الحديث الا حول المال فحسب ! .. وحدس أندرو ان بلودوين كانت تملك قدرا من المال يستثمر باسمها ، وانها كانت تضاعفه ـ من آن لآخر ـ تحت ارشادات « انيورين ريس » البارع ! .. ولم يكن للمال ـ فى ذلك الوقت ـ أى وزن لدى أندرو ، بل كان كل مايعنيه أن يدفع بانتظام ما عليه لمؤسسة « جلين » ، ويستبقى فى جيبه بضعة شلنات لسجائره ، وفيما عدا ذلك لم يكن يشغل بغير عمله !

وكان قد أدرك أكثر من أى وقت مضى ، أهمية العمل فى العيادة بالنسبة له ، فلقد كانت المعرفة متوفرة لديه ، أشبه بشعور داخلى حار يحس به فى كل لحظة ، ويلتمس فيه الدفء كلما انتابه اعياء أو ضيق أو قلق . بل لقد تملكته ـ فى الفترة الاخيرة ـ بعض الهواجس التى راحت تتجمع وتتحرك فى نفسه كما لم تتحرك من قبل .. ذلك أنه كان قد بدأ يكون آراء شخصية من الناحية الطبية . **ولعل دينى هو الذى كان المسئول عن ذلك بآرائه الهدامة ، فقد كانت شرعة دينى تخالف تماما كل ما تعلمه مانسون ، ولو أنها أوجزت وسجلت فى اطار يعلق فوق سريره ، لتمثلت فى : «لست أعتقد فى شىء!»** .. وكانت الدراسة الطبية قد شكلت مانسون وصبغته بصبغتها ، فخرج يواجه المستقبل متذرعا بثقة قوية بالكتب المدرسية . وكان قد اكتسب معلومات سطحية فى الطبيعة والكيمياء وفى علم الاحياء .. وكان ـ على أقل تقدير ـ قد درس دودة الارض وتولى تشريحها . ثم حشا رأسه بتعاليم جامدة ، ألقيت اليه كمبادىء مسلم بها ، فعرف كل الامراض بأعراضها المدونة فى الكتب ، وكافة العقاقير الملائمة لكل منها . فالنقرس ـ مثلا ـ يمكن أن يعالج بذلك النبات المسمى

« كولشيك » .. وما برح يتمثل البروفيسور لامبلو ، وهو يقول فى قاعة المحاضرات : « ان نبيذ الكولشيك ، أيها السادة، اذا أعطى بجرعات تتراوح بين عشرين وثلاثين نقطة على الاقل، كان دواء حاسما للنقرس » .. ولكن ، أكان كذلك حقا ؟ .. **ذلك هو السؤال الذى أصبح يردده لنفسه ، فلقد جرب « الكولشيك » ــ منذ شهر ــ مع مريض كان مصابا بنقرس لا شك فيه .. نقرس حاد مؤلم ، فجاءت النتيجة مخيبة للأمل !**

ثم ، ماذا يقال عن نصف ــ بل ثلاثة أرباع ــ العقاقير الاخرى ؟ .. وفى هذه المرة ، خيل اليه انه يسمع صوت الدكتور ايليوت ، يحاضر فى « المواد الطبية » فيقول : « والآن أيها السادة ، نصل الى مادة « ايليمى » ، وهى مستخلص صمغى صلب ، لايعرف أصله النباتى على وجه التحقيق ، وانما يحتمل أن يكون من « الكناريوم كومونى » ، الذى يستورد من (مانيلا) غالبا .. وهذا المستخلص اذا استخدم على شكل دهان بنسبة ١ الى ٥ ، كان له مفعول عجيب فى التنشيط ، وفى تطهير الجروح والقروح » .. هراء ، وأى هراء ! .. لقد أصبح أندرو يدرك هذا . هل جرب ايليوت هذا الدهان ؟ .. لقد أيقن أندرو من أن أستاذه لم يجربه ، وانما كل هذه المعلومات التحليلية مستمدة من كتاب مصدره ــ هو الآخر ــ كتاب آخر ، وهكذا .. حتى يصل الى مصدر قد يرجع الى القرون الوسطى . ان الكلمة التى كان الاستاذ يستعملها للتعبير عن « القروح » كانت من الكلمات المنقرضة، مما يؤيد هذا الظن !

ولقد سخر منه دينى ــ فى أول لقاء ــ عندما رآه يركب فى سذاجة ملء زجاجة من الدواء ، اذ اعتاد دينى أن يسخر دائما من مركبى الادوية ، ومن متناولى الادوية ــ على السواء

ـ اذ كان يرى أن ستا فقط من هذه العقاقير هى التى تحدث مفعولا ، وكل ماعداها من الادوية « وحل » ! .. وكان هذا الرأى يهز عقيدة « أندرو » فيمـا تعلم ، ومع ذلك فانه لم يستطع أن يستوعبه !

★★★

واذ وصل فى تفكيره الى هذه النقطة ، كان قد بلغ المنزل رقم ٣ بشارع (ريسكين) ، حيث وجد أن المريض طفـل فى التاسعة من عمره يدعى « جوى هويلز » ، أصيب بحصبة موسمية بسيطة . وكانت الحالة غير ذات خطورة ، ولكنهـا كانت تنذر بمتاعب لام الطفل ، نظرا لظروف الاسرة الفقيرة .. فقد كان أبوه عاملا باليومية فى المحاجر ، وقد لازم الفراش منذ ثلاثة أشهر بمـرض ذات الجنب ، وهـو مرض لم يكن يخوله الحق فى أية اعانة ، فأصبحت مسز « هويلز » ـ وهى امرأة رقيقة البنيان ـ تتولى تنظيف كنيسة « بيثيسدا » ، الى جانب عنايتها بمريض ، وسعيها لتعول المريض الآخر !.. ولقد قال لها « مانسون » ، وهو يحدثها عند عتبة البـاب ، فى نهاية الزيارة : « شد ما أنت مرهقة بالعمل ، ومن المؤسف أن تضطرى الى ابقاء « أدريس » بدوره فى البيت ، كى لا ينقل العدوى الى المدرسة » ـ وكان أدريس هو الاخ الاكبر لجوى .

ورفعت مسز هويلز رأسها .. كانت شابة ، رصينة ، ذات يدين حمراوين لامعتين تورم كفاهما من العمل .. وقالت : « ولكن مس بارلو أنبأتنى بأن لاداعى الى ابقـائه » .. وعلى الرغم من اشفاق أندرو عليها ، فقد ساءه ماسمع ، وسألها : « ومن هى مس بارلو ؟ » . فأجابت السيدة ، دون أن يساورها ريب فى سؤاله : « انها معلمة مدرسـة شارع البنك .. لقد جاءت هنا هـذا الصباح . فلما رأت ما أنا عليـه ، سمحت

للصغير أدريس بأن يذهب الى مدرسته ، والله وحده يعلم ماذا كان يحل بى لو اضطررت الى حمل أعبائه هو الآخر ! » .

وأحس أندرو بحافز قوى يدفعه الى أن يقول لها ان عليها أن تطيع أوامره هو ، لا أوامر تلك المعلمة التى تتدخل فى ما لا يعنيها . بيد أنه أدرك أن مسز هويلز ليست ملومة على أية حال .. لذلك لم يبد أية ملاحظة – اذ ذاك – ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى اكفهر وجهه غيظا . فقد كان يكره التدخل ، والتدخل فى عمله بوجه خاص.. وكان يكره التدخل من النساء أكثر من أى شىء آخر .

وأخذ يزداد غضبا ، كلما أمعن فى التفكير .. كان ذهاب « أدريس » الى المدرسة ، مع أنه كان يخالط أخا مريضـا بالحصبة ، مخالفة صارمة للوائح ! .. وقرر فجـأة الذهاب لرؤية « مس بارلو » هذه ، التى تجاوزت حدود اختصاصها، ليشرح الامر لها . فان هى الا خمس دقائق ، حتى كان يمضى صاعداً فى شـارع البنك ، حتى اذا بلغ المدرسـة ، طلب الى حارسها أن يرشده الى مكان المعلمة . وسرعان ما كان أمـام قاعة الفصـل الاول ، فطـرق البـاب ودخل . وكانت قاعة فسيحة ، حسنة التهوية ، فى أحد أطرافها مدفأة .. وكان التلاميذ جميعا ممن لايتجاوزون السابعة من العمر . ولماكان الوقت موعد فسحة مابعد الظهر ، فقـد انهمك كل منهم فى تناول قدح من اللبن كان يوزع كجزء من الاعانة التى يقدمها الفرع المحلى لجمعية « أصـدقاء المدرسة » .. ورأى المعلمة منهمكة فى كتابة أرقام على « السبورة » ، وظهرها اليه ، فلم تفطن الى وجوده . بيد أنها استدارت بغتة ، فاذا بها تختلف كثيرا عن الصورة التى تمثلها فى خاطره ، فى ساعة غضبه .. حتى لقد اضطرب، وارتبك . أو لعل مرد هذا الاضطراب الى المباغتة والدهشة اللتين ارتسمتا فى عينيها القمحيتين ..



وتساءل وقد تضرج وجهه : « أنت مس بارلو ، أليس كذلك ؟ » . فأجابته : « بلى ! » . وكانت ذات قوام نحيل ، ترتدى ثوبا من صوف قمحى سميك ، وجوربين من الصوف كذلك ، وحذاءين صغيرين ، سميكين . وقال أندرو لنفسه : « ان سنها تقارب سنى ، بل أقل من سنى ! .. انها لاتتجاوز الثانية والعشرين ! » .. وكانت تفحصه فى شيء من التوجس ، وعلى شفتيها ابتسامة واهنة ، كما لو انها كانت ترحب بما يشغلها ــ فى ذلك اليوم من أيام الربيع ــ عن تدريس الحساب للاطفال ! .. وما لبثت أن تساءلت : « ألست المساعد الجديد للدكتور بيدج ؟ »

وأجاب فى لهجة جافة : « ليس هذا ما جئت لاجله ، وان كنت الدكتور مانسون حقا .. ان عندك هنا طفلا حاملا للعدوى ، هو ادريس هويلز .. وأنت تعرفين أن أخاه مريض بالحصبة ! » . وسادتهما فترة صمت ظلت خلالها عينا الفتاة متطلعتين ، وان نمتا عن رقة وملاطفة . وأجابت وهى ترفع خصلة متدلية من شعرها : « أجل ، أعرف هذا ! » . فضاعف عدم اكتراثها من غضبه ، وقال : « ألا تدركين أن ابقاءك اياه هنا مخالف للوائح ؟ » .. **وازاء هذه اللهجة ، امتقع وجه الفتاة ، وسرت عنها روح الزمالة . فلم يتمالك أن فكر فيما**

هى عليه من ملاحة مشرقة غضة ، وفى طابع الحسن القمحى ـ بلون عينيها ـ الذى كان يعلو خدها الايسر. وكانت تبدو رقيقة هشة فى قميصها الابيض ، كما كانت تبـدو جد صـغيرة . وازدادت سرعة أنفاسها ، ومع ذلك فقد قالت فى بطء : « ان مسز هويلز مرهقـة الى أقصى درجة ، وقـد أصيب معظم الاطفال هنا بالحصبة من قبل ، ولا بد للباقين من أن يصابوا بها ان عاجلا أو بعد حين .. ولو ان ادريس بقى فى بيتـه ، لما حصل على حظه من اللبن الذى يفيده كثيرا ! »

فقال الطبيب بلهجة جافة : « ليس الامر أمر لبن ، وانما يجب أن يعزل الطفل! » . فأجابت فى اصرار: « لقد عزلته بطريقة ما ، فاذا لم تصدق ، فيمكنك التحقق من ذلك بنفسك ! » . وتبعت عيناه نظرها فألفى ادريس ـ وهو طفل فى الخامسـة من عمره ـ وحيدا أمام منضدته ، بالقرب من المدفأة ، وقد بدا مغتبطا أشد الاغتباط بما هو عليه . وكان يجيل عينيـه الزرقاوين مبتهجا ، من تحت كوب اللبن ، فأثار هذا المنظـر ثائرة أندرو ، وضحك فى استخفاف ، وقال : « قد يكون هذا مدى فهمك للعزل ، أما أنا فأفهمه على نحو آخر .. يجب أن يعود هذا الطفل الى بيته على الفور ! » . **فأبرقت عينا مس بارلو بوميض طارىء ، وقالت : «كأنى بك لا تدرك أننى صاحبة الامر فى هذا الفصل ؟ .. من حقك ـ دون شك ـ أن تصدر الاوامر فى أوساط أرقى ، أما هنا فأنا التى آمر ! »**

ورماها بنظرة ملؤها الغضب لـكرامته : « انك تخـالفين القانون ، ولا تملكين استبقاءه هنا . فان فعلت ، اضطررت الى ابلاغ أمرك للمسئولين ! » . وسادت برهة صمت قصيرة ، لحظ خلالها أنها راحت تضغط قطعة الطباشير بين أصابعها . وضاعفت هذه الحركة التى تشى بالانفعال ، من حنقه عليها . وعلى نفسه . وما لبثت ان قالت فى ازدراء : « اذن ، يحسن

بك أن تبادر الى ابلاغهم ، أو أن تعمل على اعتقالى . فلست أشك فى أن هذا سوف يسرك كثيرا ! » . ولم يجب ، وقد اشتد غضبه . وأحس بأنه فى موقف حرج ، فحاول أن يستعيد هدوءه ، ورفع عينيه محاولا أن يحملها على أن تخفض عينيها اللتين كانتا تقذفانه بالشرر . وتقاربا لحظة ، حتى لقد أبصر نبضات عروق رقبتها وبريق أسنانها وراء شفتيها .. **وأخيرا قالت : ((أهذا كل مالديك ؟)) . ثم استدارت نحو التلاميذ، وقالت : ((قفوا أيها الصغار، وقولوا : سعدت صباحا يادكتور مانسون ، شكرا لك على قدومك !))**

وقعقعت المقاعد اذ وقف الصغار ورددوا — فى ترنم منغوم — الصيغة الساخرة التى أملتها عليهم . وفيما كانت الفتاة تصحبه الى الباب ، راحت أصوات التلاميذ تدوى فى أذنيه . وتولاه شعور ممض من عدم الارتياح ، ضاعف من حدته احساسه بأنه كان مضحكا ، اذ غضب وانفعل بينما ظلت هى مسيطرة على نفسها بشكل رائع . وأخذ يبحث عن عبارة يختتم بها الحديث ، ويكون فيها تحذير وتهديد لها ، غير أنها كانت قد أغلقت الباب خلفه ، قبل أن يهتدى الى العبارة المنشودة !

— ٦ —

• **بعد** أصيل عاصف — صاغ فيه أندرو ثلاث رسائل لاذعة الى مفتش الصحة ثم مزقها — حاول أن ينسى ما حدث .. كان قد فقد روح الرضى فى منطقة شارع البنك ، فلم يعد يطيق نفسه لما أبداه فى لقاء المعلمة من مشاعر مزرية . وبعد معركة حامية مع كبريائه الاسكتلندى الصلب ، قرر أنه كان على خطأ .. وما كان ليهضم أن يشى بالامر الى السلطات ، والى رجل لا يطاق كجريفيث ، بوجه خاص .. ومع كل ما

بذله ، فانه لم يستطع الفكاك من طيف « كريستين بارلو » !

وكان من السخف أن تشغل معلمة شابة تفكيره بمثل هذا الالحاح ، أو أن يعنيه ما عسى أن يكون رأيها فيه . وراح يردد لنفسه أن الامر كله كان مجرد غباء ناشيء عن كبرياء جريح . فقد كان يعرف عن نفسه أنه خجول أمام النساء ، شديد الارتباك فى معاملته اياهن . ولكن أى منطق ما كان ليثنيه عن الاحساس بقلق ، وبشيء من الانفعال . فقد راح المشهد الذى وقع فى المدرسة يعاوده فى ومضات حية ، فى لحظات يكون فيها ساهى البال ــ كاللحظات التى كان يوشك فيها أن يستسلم للنوم ــ فلا يلبث أن يعبس فى الظلام ، اذ يتمثل الفتاة وهى تسحق الطباشير بين أصابعها ، وعيناها القمحيتان تقذفان الشرر فى استهجان .. ثم يتمثل ثلاثة أزرار لؤلؤية صغيرة ، كانت فى صدر قميصها .. وكان قوامها نحيلا ، رشيقا ، غير مسرف فى تثنياته ، مما كان يشى اليه بأنها اعتادت أن تكثر من الجرى والقفز فى طفولتها .. **وما ساءل نفسه عما اذا كانت الفتاة جميلة ، بل كان يكفيه أنها كانت تقف ــ فى خياله ــ رشيقة ، مليئة بالحيوية ، فيخفق قلبه قسرا عنه ، فى تمرد عذب لم يتذوقه من قبل !**

وحدث أن كان يسير ــ بعد أسبوعين ــ فى شارع لاشابيل ، مستغرقا فى تأملاته ، واذا به بغتة أمام مسز براموبل ، حتى لقد كاد يصطدم بها . وهم أن يمضى متغافلا ، لولا أنها توقفت ونادته ، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة فتنته ، وقالت : « أهذا أنت يا دكتور مانسون ؟ .. الرجل الذى أبحث عنه بالذات . اننى أقيم الليلة احدى سهراتى المتواضعة ، وآمل أن تكون بيننا ! » .. وكانت « جلاديز براموبل » شابة فى الخامسة والثلاثين ، شقراء شقرة القمح ، جميلة القوام ، تعنى بملبسها عناية فائقة .. ذات عينين زرقاوين كأنهما عينا طفل رضيع ،

وذات طباع حميدة . وكانت تطلق على نفسها هذا الاسم الروائى: « زوجة رجل واحد » ، أما أهل (بلينيللى) ، فكانوا يستعملون لقبا آخر . اذ كان زوجها يهيم بها الى حد الجنون ، فكان طوال اللسان يقولون ان عبادته العمياء لها هى وحدها الى تمنعه من أن يلحظ علاقات زوجته المريبة بالدكتور جابيل ، الطبيب غير الابيض فى (تونيجلان) .

وبينما كان أندرو يتأملها ، أخذ يبحث فى سرعة عن مهرب . وما لبث أن قال : « أخشى كثيراً ياسيدتى ألا يكون لدى متسع من الوقت ، هذا المساء ! »

ــ بل يجب أن تحضر أيها الاهوج ، فلسوف يكون لدى قوم لطاف : السير واتكينز ــ من شركة المناجم ــ وزوجته .. (وهنا أفلتت منها ابتسامة) والدكتور جابيل ، من تونيجلان .. آه ! كدت أنسى تلك المعلمة الصغيرة : كريستين بارلو !

وانتفض مانسون وشردت منه ــ فى غير حذر ــ ابتسامة . ثم قال : « حسنا يا مسز براموبل ، سأحضر .. لكم أنا شاكر لك هذه الدعوة ! » .. وتعمد أن يواصل الحديث لبضع لحظات مع المرأة الشابة ، حتى اذا انصرفت ، لم يستطع أن يفكر ــ أثناء بقية النهار ــ فى شىء سوى أنه كان سيرى مرة أخرى كريستين بارلو .

* * *

وكانت سهرة مسز براموبل تبدأ فى التاسعة، مراعاة لأوقات السادة الاطباء الذين كان عملهم بعياداتهم يضطرهم الى البقاء فيها الى قرب هذه الساعة . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والربع ــ فى الواقع ــ حينما فرغ أندرو من آخر استشاراته ، ثم غسل يديه على عجل فى حوض مكتبه ، وأصلح من شأن شعره بمشط ، ثم انطلق الى « دار التقاعد » .. وكانت على خلاف اسمها الشعرى ، فقد كانت تقع فى قلب المدينة، وكانت

مبنى صغيرا من الطوب .. وتبين أندرو أنه كان آخر من حضر ، وقد عاتبته مسز براmويل عتابا وديا ، ثم قادت مدعويها الخمسة الى قاعة الطعام ، يتبعها زوجها .

وكان العشاء البارد مقدما فى أطباق من الورق المقوى صفت على مائدة من الخيزران . فقد كانت مسز برامويل تفاخر بأنها قدوة تحتذى فى (بلينيللى) كربة بيت ومضيفة ، وكانت تبهر الرأى العام بتصرفاتها ، متوسلة الى ذلك بالافراط فى الكلام والضحك .. وقد اعتادت أن توحى بأن الوسط الذى كانت تعيش فيه قبل زواجها ، كان مترفا ، باذخا .

وقالت ضاحكة وهى تجلس فى ذلك المساء : « ترى هل لدى الجميع كل ما يلزمهم ؟ » .. وكان أندرو لا يزال يلهث من جراء تعجله فى المجىء ، فأحس فى أول الامر بارتباك ، وظل نحو عشر دقائق لا يجرؤ على النظر الى كريستين ، بل ظل منكس الرأس ، وهو يشعر بها ـ كما لو كان يراها ـ وقد جلست فى أقصى المائدة ، بين الدكتور جابيل ـ وكان رجلا أسمر البشرة ، أنيقا ، يرتدى بنطلونا مخططا ، ويزين ربطة عنقه بلؤلؤة ـ والسيد واتكينز مدير المنجم .. وكان رجلا مسنا ، ذا شعر قصير خشن ، وقد راح يولى الفتاة رعاية ، بأسلوب غير مصقول !.. وأخيرا ، صدرت من واتكينز عبارة أثارت ضحك الجميع ، اذ قال للفتاة : « ألا تزالين يا حسنائى مؤمنة بيوركشير ؟ » .. واذ ذاك رفع أندرو رأسه ، فتطلع فى غيرة .

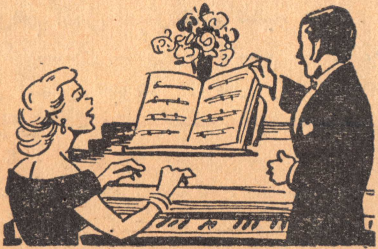
ورآها تجلس فى غير كلفة ، فى ثوبها الرمادى الناعم ، ذى الياقة والسوارين البيضاوين .. فأخذ ، وأشاح بوجهه خشية أن تقرأ ما يختلج فى نفسه !

وانصرف بكليته منذ هذه اللحظة الى جارته مسز واتكينز ، ليخفى ما اعتراه ، وهو لا يكاد يعرف ماذا يقول .. وكانت مسز واتكينز امرأة صغيرة الحجم ، وقد أحضرت معها قطعة

من «التريكو» راحت تنسجها .. وهكذا ظل ـ طيلة العشاء ـ يعانى عذاب التحدث الى شخص غير الذى كان يتحرق شوقا للتحدث اليه .. لشد ما كان يود لو استطاع أن يطلق زفرة مكبوتة ، تخفف من العبء الذى أثقل نفسه ! .. وما لبث الدكتور براموبل ـ الذى كان يرأس المائدة ـ أن ألقى نظرة الى الاطباق الفارغة ، وقال فى لهجة مسرحية ، وكأنه يقلد نابليون : « أحسب يا عزيزتى أن الجميع قد فرغوا ، فهلا انتقلنا الى الصالون ؟ »

واتخذ الجميع أماكنهم فى « الصالون » ، فامتلأت بهم المقاعد والاريكة . وتجلى أن الموسيقى كانت أهم ما فى برنامج السهرة . اذ نظر براموبل فى حب غامر الى زوجته وقادها الى « البيانو » ، وهو يقول : « ترى ماذا نقدم لهم أولا يا غرامى ؟ »

وأخذ يقلب الصفحات الموسيقية الموضوعة على الدرج . واقترح جابيل لحن « أجراس المعبد » قائلا : « هذا ياسيدتى لحن لا أمل سماعه ! » . فجلست مسز براموبل على مقعد البيانو ، وأخذت تعزف وتغنى . ووقف زوجها الى جانبها ، واحدى يديه الى ظهره والاخرى مبسوطة الى أمام يقلب بها الصفحات . وكان لجلاديز صوت عميق ممتلىء ،



فكانت تطلق الانغام الخفيضة من صدرها وهى ترفع ذقنها .. وبعد الالحان الغرامية أسمعتهم قطعتى « الهائم » و « مجرد فتاة » .. وكان ثمة اطراء عام . وغمغم براموبل فى ابتهاج ، وهو شارد الذهن : « ان صوتها رائع هذا المساء ! » .. وألحوا على الدكتور جابيل ، فنهض وانحنى أمام سيدة الدار ، وأخذ يعزف ويغنى : « الحب فى اشبيلية » و « توريادور » ، فقالت مسز واتكينز الطيبة : « انك تغنى المقطوعات الاسبانية باتقان أصيل يادكتور جابيل » . وأجاب فى تواضع : « الفضل فى هذا يرجع يقينا الى الدم الاسبانى الذى يجرى فى عروقى » .

ولمح أندرو فى عينى واتكينز بريقا يشى بعدم التصديق .. وكان هذا المدير المسن ، الذى تجرى فى عروقه دماء أبناء (ويلز) الاصيلة ، من أهل الخبرة فى الموسيقى ، وقد قاد الى لندن — فى الشتاء السابق — عمال المناجم الذين تحت امرته ، لتسجيل احدى أوبرات « فردى » التى لا يكاد يعرفها الا القليلون .. وقد راح — فى تلك الليلة — ينعم بنشوة خفية ، وقد بدا كأنه نائم خلف غليونه ! .. **ولم يتمالك أندرو نفسه من التفكير فى انها كانت تسلية طريفة لواتكينز ، أن يرقب هؤلاء الاغراب عن موطنه ، يزعمون انهم كانوا يبثون الثقافة بتكرارهم الممل لعبارات عاطفية جوفاء لاقيمة لها !..**

وعندما أبت كريستين — وهى تبتسم — أن تعزف شيئا ، التفت الرجل المسن نحوها ، وقال وقد اختلجت شفتاه : « أرى ياعزيزتى أنك مثلى تحبين البيانو الى حد الزهد فى العزف عليه ! » . وهنا لمع نجم السهرة — الدكتور براموبل — اذ توسط القاعة ، وأجلى صوته ، ثم دفع رأسه الى خلف ، ووضع يديه فى صدر سترته وصاح : « النجمة التى هوت : مونولوج غنائى » .. ثم نهضت جلاديز الى البيانو ، وشرع

هو فى الغناء .. وكانت القصيدة ـ التى تروى المحن التى حلت بمغنية ذاع صيتها ، اذ هوت الى درك الفقر ـ حافلة بالعاطفة ، وقد راح براموبل يلقيها فى تأثر وشجى . وكانت جلاديز تبرز المواضع العنيفة من المأساة بأنغام بطيئة متثاقلة ، فاذا هدأت المشاعر بعد ذلك ، تسارعت الانغام متواثبة . فلما كان ختام المأساة ـ الذى يروى موت المغنية جوعا فى ازرى بقاع المدينة ـ أداه براموبل فى انفعال شديد . وصاحت مسز واتكينز ، وقد سقطت قطعة « التريكو » من يديها : « ياللمرأة المنكودة ! » . وأضافت قائلة لبراموبل : « ما أروع أداءك هذه القطعة يادكتور براموبل ! »

* * *

وعندما حانت الساعة الحادية عشرة ، احس الضيوف بأن أية محاولة لطلب المزيد من « براموبل » ـ بعد هذا الجهد العنيف الذى بذله فى أداء هذه القطعة ـ محاولة فاشلة ، فوق أنها تقتضيه عناء شديدا ، ومن ثم أخذوا يتأهبون للانصراف . وانطلقت الضحكات وتلاحقت عبارات الشكر القلبية ، واتجه الجمع نحو الردهة . وذكر أندرو فى مرارة ـ وهو يرتدى معطفه ـ انه قضى السهرة كلها دون أن يبادل كريستين كلمة واحدة . واذ برح الدار توقف عند الباب الخارجى .. وشعر بأن لابد من أن يكلمها ، فقد كان يثقل قلبه انه أضاع هذه الفرصة المواتية لاصلاح ذات البين معها .. ومع انها لم تبد مكترثة به الا انها كانت معه فى غرفة واحدة ، ومع ذلك فقد ظل ـ طيلة الوقت ـ يتأمل حذاءيه فى غباء ! .. وقال فى نفسه : « يا الهى ، اننى أسوأ حالا من النجمة التى هوت ، ولخير لى أن أعود الى دارى وأنام ! » . ولكنه لم يفعل ، بل بقى هناك .. وتسارعت دقات قلبه فجأة ، اذ رآها تهبط الدرجات ، وتسير نحوه ، وحيدة . فاستجمع

شجاعته ، وقال متلعثما : « هل لى يامس بارلو أن أرافقك حتى دارك ؟ »

— آسـفة ، فقـد وعدت السيد واتكينز وزوجتـه بأن انتظرهما .

وأحس بانقباض شديد . وهم بأن يهرب ، مثلما يهرب كلب ألهبت ظهره بعصاك . غير أن شيئا ما أوقفـه ، وقد شحب وجهـه ، وتجلى الاصرار على محيـاه .. وراحت الكلمات تتواثب من فمه : « انما أردت أن أبدى لك أسفى لما وقع بشأن هويلز ، فقـد تماديت فى اظهار سلطتى بوسيلة رخيصة ، وانى أستحق أن أضرب ، وان أضرب بشدة ! .. **أما ما فعلته أنت من أجل الصغير فكان رائعاً ، وانى لمعجب بتصرفك ، فليس من شك فى أن التصرف وفقا لروح القانون خير من التصرف وفقا لنصه ! .. معذرة اذا كنت قد ضايقتك بكل هـذا .. كان لا بد لى من أن أقوله لك ! .. طابت ليلتك ! »**

ولم يكن فى وسـعه أن ينظر الى وجه كريستين ، لا ولم ينتظر جوابها ، بل استدار وانصرف هابطا الشـارع ، وقـد أحس — لاول مرة منذ عدة أيام — بأنه سعيد !

— ٧ —

• **كانت** ادارة الشركة قد أرسلت أتعاب الاشهر الستة الاخيرة الى مستر بيدج ، مما أسلمها الى تفكير طويل ، وأتاح لها موضـوعا جديدا تناقشـه مع « اينورين ريس » مدير البنك . فلأول مرة — منـذ ثمـانية عشر شهرا — ارتفعت الارقام ، اذ زاد عـدد المترددين على عيـادة الدكتور بيـدج سبعين شخصا منذ قدوم « مانسون » . وبقدر ماغتبطت بلودوين لارتفاع قيمة الاذن المصرفى ، فانها تعرضت لاشـد الافكار ازعاجا . ولقد فاجأها أندرو مرارا — أثناء تناولهمـا

الوجبات ـ وهى تحدق فيه دون تحرز ، بنظـرة فاحصـة مستريبة . وفى يوم الاربعاء التالى للسهرة التى أقامتها مسز براموبل ، دخلت بلودوين قاعة الطعـام فى نشـاط موفور ، وغبطة غامرة ، وقالت : « أصارحك بأننى كنت أفكر لتوى فى انه قد انقضت على قدومك أربعة أشهر ، أصبت فيها نجاحا لابأس به يادكتور ، فليس ثمـة مايدعونى الى الشـكوى .. **ولكن ، ضع نصب عينيك أن الامور لم تصل الى ماكانت عليه حين كان الدكتور بيدج يزاول العمل . آه ، كلا ! .. ومنذ أيام قلائل ، قال لى السيد واتكينز نفسه ان الجميع يتطلعون الى عودة الدكتور بيدج الى مزاولة عمله ، واضاف انه رجل فذ ، لايمكن أن يحل محله أحد ! »**

ومضت تعـدد مناقب زوجها فى تفصيل واسـهاب ، ثم صاحت : « ما أراك تصدقنى اذا قلت لك أنه مامن شىء تعذر عليه عمله .. العمليات الجراحية ؟ ! .. ليتك رأيت ماأجراه منها . واسمح لى أن أذكر لك يادكتـور ، انه نزع مخ رجل ـ ذات مرة ـ ثم أعاده الى موضعه . أجل ، حملق كماتشاء ، ولكنى أؤكد لك أنه أخرج المخ وأعاده الى مكانه ! » . والتفتت اليه وراحت تتفرس فيه محاولة أن تستشف وقع كلماتها فى نفسه ، ثم استطردت : « ستعم الفرحة (بلينيللى) عنـدما يستأنف الدكتور بيدج عمله ، وسيتحقق هذا عما قريب .. فى الصيف .. فى هـذا الصيف بالذات ، كمـا قلت للسـيد واتكينز ، سيعود الدكتور بيدج لمزاولة مهنته ! »

وذات يوم ـ قرب نهاية الاسـبوع ذاته ـ عاد أندرو من جولة العصر ، وشد مابهت اذ وجد ادوارد بيدج يجلس مكوما فى مقعـد مريح ـ قرب مدخل الدار ـ وعلى ركبتيـه غطاء سميك ، وقد ارتدى كل ملابسه ، وفوق رأسه المهتز قبعة منحـرفة .. وكانت الريح تهب باردة ، وشمس ابريل التى

غمرت هـذا الهيكل العظمى الكئيب شـاحبة ، خاليـة من الحرارة . وصاحت مسز بيدج صيحة الظافر وهى تتقـدم نحو « مانسون » فى مدخل الدار : **« ها هو ذا الدكتور بيدج قد غادر الفراش ، كما ترى ! .. وقد اتصلت تليفونيابالسيد واتكينز وأخبرته بأنه يتماثل للشفاء ، وسيسـتأنف عمله فى وقت قريب ، أليس كذلك ياغرامى ؟ ! »**

وغلى دم مانسون فى عروقه ، وسأل : « من الذى أنزله الى هنا ؟ » .. فأجابت بلودوين متحدية : « أنا .. لماذا ؟ .. انه زوجى ، وصحته فى تقدم ! »

– ان حالته لاتسمح له بترك الفراش ، وأنت تعرفين هذا جيدا .

قذفها أندرو بهـذه الكلمات بصـوت خافت ، ومضى يقول : « افعلى ما أقوله لك ! .. ساعدينى على اعادته الى مخدعه على الفور ! » . وهنا قال لها ادوارد فى وهن شديد : « نعم .. أجل ، أعيدونى الى مخدعى ، فانى أشعر بالبرد .. لست مرتاحا ! » . وأخذ المريض يتأوه ، فانفعل مانسـون لانينه انفعالاشديدا . وللحال ارتمت بلودوين على قدمى زوجها باكية ، وأحاطته بذراعيها نادمة منتحبـة : « كفى ، كفى ، ياكنزى ، ستعود الى فراشك أيها الحمل المسكين !.. لسوف تفعل بلودوين هذا من أجلك .. ستعنى بك ، انهـا تحبـك يازهرتى! » . وراحت تطبع على خديه الجامدين قبلات رطبة .

* * *

وبعد نصف ساعة ، كان ادوارد قـد استراح فى فراشه ، فدلف أندرو غاضبا الى المطبخ . وكانت « آنى » قد أصبحت صديقة حميمة له ، وكثيرا ما تبـادلا فى هـذا المطبخ عينـه أسرارهما ، وكم أعطته هذه المرأة الناضجة المتزنة من تفـاح أو شرائح من الفطير عندما كانت كميات الطعام تقل على المائدة

.. بل لقد كانت تهرع أحيانا الى حانوت توماس فتبتاع من السمك مايكفى لشخصين ، ويتناولانه معا على ضوء الشموع فى المطبخ ! .. **وكانت آنى فى خدمة أسرة بيدج منذ عشرين عاما ، فاتصلت الاواصر بينها وبين كثيرين من أهل (بلينيللى)، كلهم من حسنى السمعة . ولم يستبقها فى خدمة الاسرة طيلة هذا الزمن ، سوى ولائها للدكتور بيدج .**

وقد قال لها أندرو فى ذلك اليوم : « سأتناول الشاى هنا يا آنى ، فلست أحتمل بلودوين فى الوقت الحاضر ! » . ولم يكن قد فطن الى أن لدى آنى ضيفين هما : أختها «أولوين» ، وزوجها « ايمريزهيوز » ، اللذان كان قد رآهما من قبل عدة مرات . وكان ايمريز يشتغل ببث المتفجرات فى المحاجر المرتفعة فى (بلينيللى) ، وهو رجل بدين ، دميم ، شاحب الوجه .

وما ان وقع نظر مانسون على الضيفين حتى ارتبك وتلعثم ، فابتدرته أولوين ــ وهى امرأة شابة مليئة بالحيوية ، ذات عينين سوداوين ــ قائلة : « اذا كنت تريد تناول الشاى يادكتور ، فلا يضايقنك وجودنا . لقد كنا نتكلم عنك عندما دخلت ! » . فهتف : « أحقا ؟ » . وأجابت : « أجل تماما » .. ثم التفتت الى أختها ، وقالت : « لافائدة من أن ترمقينى هكذا يا آنى ، فسوف أقول ما أعتقد : **ان جميع عمال المناجم يقولون أنهم لم يروا منذ سنين طبيبا فى مثل طيبتك .. وهم يتحدثون عن العناية الفائقة التى تفحصهم بها** .. واذا لم تصدقنى ، فسل ايمريز ، فهم غاضبون أشد الغضب للاسلوب الذى تتبعه معك مسز بيدج ، ويقولون انك أنت الذى يجب أن تكون الطبيب المعتمد لدى الشركة . وقد بلغتها هذه الاقوال ، ومن أجل هذا ــ والق بالك جيدا ــ أنهضت عصر اليوم هذا المشلول المسن المسكين من فراشه ، وادعت

انه أوشك أن يبل من مرضه ، وياله من ابلال ! »
وما ان فرغ أندرو من تناول الشاى حتى غادر المكان ،وقد أزعجته صراحة « أولوين » المباغتة . على أنه كان مزهوا بأن يعلم أن أهل (بلينيللى) يحبونه كثيرا . ومصداق ذلك أنه لم تكد تنقضى بضعة أيام ، حتى قدم اليه « جو مورجان » — أحد رؤساء عمال الثقب فى منجم الهيماتيت — وبصحبته زوجته .. وكان مورجان وقرينته زوجين فى أوسط السن ، تزوجا منذ عشرين عاما . ولم يكونا على شىء من الثراء ، ولكنهما كانا موضع احترام أهل المنطقة . وقد سمع أندرو انهما كانا يزمعان السفر الى جنوب افريقيا ، حيث حصل مورجان على وعد بوظيفة فى محاجر (جوهانسبرج) .

على أن أحدا لم يدهش قدر ما دهش اندرو حينما أخذ مورجان يشرح له سبب زيارته وزوجته له . اذ قال : « يبدو يادكتور اننا قد وفقنا أخيرا . فان زوجتى لن تلبث أن تنجب طفلا ، بعد تسعة عشر عاما من زواجنا . . تصور .. ما أشد ابتهاجنا ! .. وقد قررنا ارجاء السفر الى ما بعد الوضع . **ولقد فكرنا طويلا — فى الواقع — فى من يكون الطبيب الذى يعنى بها فى هذا الظرف ، ووصلنا الى أنك أنت الطبيب الذى لابد لنا منه ! ..** الامر غاية فى الاهمية بالنسبة لنا ، ويخيل لى أن التجربة خطيرة ، اذ أن زوجتى فى الثالثة والاربعين ، أجل فى الثالثة والاربعين تماما .. موجز القول اننا نوقن من أننا معك لن نخشى شيئا ! »

وقبل أندرو المهمة وهو يشعر بأنها لون من التكريم .. كان تأثرا غريبا واضحا ، تأثرا نفسيا بحتا شد من أزره كثيرا فى حالته المعنوية الراهنة . اذ كان قد شعر — فى الفترة الاخيرة — بالقنوط والهم القاتل ، وصار نهبا لانفعالات غريبة مزعجة ممضة .. **وأصبحت تمر به لحظات يفيض فيها قلبه**

بألم مكتوم ، كان يحسبه ـ كطبيب ـ لونا من المستحيلات . . ذلك أنه لم يكن قد فكر ـ حتى ذلك الحين ـ فى الحب ! . .

كان فى الجامعة فقيرا جدا ، رث الملابس ، منصرفا كل الانصراف الى تحصيل العلم والنجاح فى الامتحانات ، حتى لقد كان ينأى عن أن تكون له صلات كثيرة بالجنس الآخر . . كان لابد له ـ فى سانت أندروز ـ من أن يكون سىء السلوك ، كصديقه وزميل دراسته « فريدى هامبتون » ، اذا شاء الاندماج فى الجماعات التى ترقص وتقيم الحفلات وتفاخر بأنها من نجوم المجتمع ! ولكنه كان يحرم نفسه من كل هذا ، فلم يسمح لها بأكثر من أن انضم الى جماعة لم تكن تعرف سوى اللهو البرىء ، وكانت تنفق أكثر أوقات فراغها فى احدى قاعات « البليارد » فى المدينة . . وليس من شك فى أن الرؤى الشاعرية ـ التى لابد من أن تتراءى فى هذه السن ـ كثيرا ماطافت بخياله ، غير أنها كانت تتركز ـ من جراء فقره ـ فى تصور ماكان يرجوه من غنى فاحش !. . أما وقد أصبح فى (بلينيللى) ، يطل من نافذة مستوصفه على أكداس قذرة من نفايات المصانع ، فقد صار كل أمله أن يظفر بمعلمة متواضعة فى مدرسة قروية . . وانه ليسخر من تفاهة أمانيه !

وكان يفخر دائما بتفكيره الواقعى ، وبحسن تقديره الفطرى لعواقب الامور . ولهذا راح يحاول ـ جاهدا ، وفى عزم أكيد ـ أن يقنع نفسه بالتحول عن هذه العاطفة . . حاول فى منطق هادىء أن يتمثل عيوب الفتاة . . فهى لم تكن جميلة ، بل كانت صغيرة الجسم ، رقيقة القوام ، أكثر مما يستساغ ، يزين خدها طابع حسن . . فاذا ابتسمت ، تجعدت شفتها العليا قليلا . **هذا الى أنها كانت ـ على الارجح ـ تكرهه ، فراح يلوم نفسه فى غضب ، لانصياعه بحماقة ـ وبمثل هذا الضعف ـ الى عواطفه ! . . لقد كرس نفسه**

لمهنته ، وهو لم يعد ان يكون مساعدا لطبيب ، فاى شأن له حتى يعقد فى مستهل حياته العملية صلات قد تعوقه عن بناء مستقبله وتصرفه عن عمله ؟ !

وفى محاولته أن يتغلب على نفسه ، راح يبحث عن مهرب ، فأوحى الى نفسه بأنه كان يفتقد علاقاته القديمة فى « سانت أندروز » ، وكتب خطابا طويلا الى « فريدى هامبتون » ، الذى يشغل — منذ قليل — وظيفة فى أحد مستشفيات لندن . وتقرب أكثر الى دينى .. غير أن فيليب ، وان بدا فى بعض الاحيان ميالا للصداقة ، كان — فى أحيان أخرى — فاترا متشككا ممتعضا امتعاض الرجل الذى قست عليه الايام !

* * *

بيد أن كل مافعله «أندرو» لم يستطع أن ينسيه كريستين أو أن ينزع من قلبه شوقه المستعذب اليها . ولم يكن قد رآها ، منذ اختلى بها وحدثها عند مدخل « بيت التقاعد » . ترى ماذا يجول بخاطرها عنه ؟ .. وهل خطر ببالها مرة ؟ .. انه لم يكن قد لمحها — منذ وقت طويل — بالرغم من انه كلما مر بشارع البنك ، أجال بصره فى ارجائه متلهفا لرؤيتها ، حتى لقد يئس من لقائها ! .. وأخيرا ، وفى عصر يوم السبت الخامس والعشرين من مايو ، وصلته البطاقة التالية ، بعد أن فقد كل أمل أو كاد :

« عزيزى الدكتور مانسون : سيحضر السيد واتكينز وزوجته لتناول العشاء معى مساء غد (الاحد) . فهل تتفضل بالانضمام اليهما اذا لم يكن لديك ماتفعله خيرا من هذا ؟ .. ان موعدنا منتصف الثامنة — المخلصة : كريستين بارلو »

وصاح صيحة هرولت لها آنى من المطبخ ، فقالت لائمة : « اواه يادكتور ! .. انك مزعج فى بعض الاحيان ! » . فأجاب وهو فى أشد الاضطراب : « هذا صحيح ياآنى ، ولكنى



أحسب . . أحسب أن المسألة قد مرت بسلام ! . . انصتى ياآني الطيبة، هل لك أن تكوى لى «بنطلوني» غدا، على الاكثر . سأعلقه على باب غرفتي من الخارج عندما آوى الى فراشي الليلة ! »

وفي مساء اليوم التالي ، لم تكن ثمة عيادة ، لانه كان يوم الاحد .. وبلغ منزل مسز هربرت ، القريب من المعهد ـ حيث تقطن كريستين ـ وهو يرتجف انفعالا .. وكان قد وصل قبل الموعد وهو يعرف هذا ، بيد أنه لم يطق المزيد من الانتظار .. **وكانت كريستين نفسها هى التى فتحت له الباب ، وقد أشرق وجهها وأفتر ثغرها عن ابتسامة عذبة لقيته بها .. أجل ، كانت تبتسم ابتسامة صادقة ، فى حين انه كان يحسب أنها تكرهه !** .. وشعر بابتهاج غامر ، حتى لقد عاني مشقة فى الكلام ، فقال مغمغما ، وهو يتبعها الى الصالون : « لقد كان الطقس بديعا طيلة هذا اليوم ، أليس كذلك ؟ » . فقالت : « رائعا حقا ، وقد نعمت عصرا بنزهة ممتعة الى ماوراء (باندى) ، ووجدت خشخاشا صغيرا ! »

وجلسا .. وهم بأن يسألها وهو متوتر الاعصاب عما اذا كانت تحب المشى ، بيد انه أمسك عن هذه التفاهة الى حين . وقالت : « جاءتنى منذ برهة رسالة من مسز واتكينز تخبرنى فيها بأنها وزوجها سيتأخران قليلا ، لاضطراره الي أن يعرج

على مكتبه . فعسى أن لا يضايقك كثيرا أن تنتظرهما بضع دقائق ؟ » .. **يضايقه ؟ ! .. بضع دقائق ! وود لو انفجر ضاحكا لفرط السعادة التى تغمره . ليتها تعرف كيف كان انتظاره هذه الايام الاخيرة ، وكم يستمتع الآن بأن يكون هنا بجوارها !..** وأجال بصره فيما حوله : كان « الصالون » مؤثثا بأثاث يحمل طابعها الخاص ، الذى يختلف تماما عن كل مارآه فى أية دار دخلها فى (بلينيللى) .. فلا مخمل ، ولاستائر من الوبر ، ولا وسائد من « الستان » اللامع كتلك التى يزدان بها « صالون » مسز براموبل بشكل يلفت النظر . أما الارضية اللامعة المصقولة ، فقد بسط عليها أمام المدفأة بساط قمحى من لون واحد .. وأما قطع الاثاث ذاتها فكانت قاتمة الى حد أنه تبينها بصعوبة . وفى وسط المائدة ــ التى كان قد وضع عليها الغطاء استعدادا للعشاء ــ كان ثمة طبق أبيض عادى ، تطفو فيه الخشخاشات التى قطفتها ! .. أثاث تلمس الفتنة فى بساطته !.. وعلى حافة النافذة ، كانت ثمة علب ــ من تلك التى توضع فيها الحلوى ــ وقد ضمها صندوق خشبى ، وملئت بالتراب ، وظهر على سطحها نبت أخضر . وعلقت فى أعلى المدفأة لوحة من القماش ، فريدة فى نوعها ، وقد رسم عليها شكل واحد ــ لم يرق لاندرو ــ يمثل مقعدا خشبيا مطليا باللون الاحمر ، من مقاعد الاطفال . ولعل كريستين لاحظت ماتولاه ، فابتسمت ، وقالت مداعبة : « أرجو ألا تكون قد خلت الرسم مقعدا حقيقيا ! »

وارتبك ولم يحر جوابا .. لقد تبدت له فى هذه الغرفة شخصيتها ، وأيقن من أنها كانت تعرف أشياء فوق متناول فهمه ، الامر الذى أزعجه كثيرا . **على أن فضوله كان قد استيقظ ، حتى لقد نسى رعونته ، وتسلل من تفاهته وتبلده ، فأمسك عن حديث المطر والجو البديع وأخذ يسألها عن**

نفسها .. وأجابته فى بساطة انها من أهل (يوركشير) ، وأنها فقدت أمها فى سن الخامسة عشرة . وكان أبوها فى ذلك الوقت مساعد مدير لاحد مناجم فحم (براموبل) الكبرى ، وقد تلقى أخوها الوحيد « جون » تدريبه كمهندس فى نفس المنجم . وبعد خمس سنوات ـ وكانت قد بلغت التاسعة عشرة ، وأتمت تعليمها ـ عين أبوها مديرا لمنجم فحم (بورث)، الواقع على مسافة عشرين ميلا من (بلينيللى) ، فى الوادى . ولحقت هى وأخوها بأبيهما فى جنوب (ويلز) ، فتولت هى العناية بالبيت ، واضطلع جون بمساعدة أبيه . **وبعد ستة أشهر من وصولهما ، حدث انفجار فى المنجم . وكان جون فى جوفه ، فلقى حتفه . وما أن علم أبوها بالفاجعة حتى أسرع الى مكان الانفجار ، وهبط الى قاع المنجم ، حيثمات مختنقا بالغازات .. وبعد أسبوع ، انتشلت جثته وجثة ابنه !**

واذ فرغت من حديثها ، ساد المكان صمت ممض ، ثم قال أندرو مواسيا : « لكم أنا حزين ! » . فقالت : « لقد لقيت أحسن معاملة ، لاسيما من السيد والسيدة واتكينز : ثم الحقت بهذه الوظيفة فى المدرسة .. » . وأمسكت عن الكلام، وأشرق وجهها من جديد ، واستطردت : « على اننى غريبة هنا مثلك ، ولا بد من أن ينقضى وقت طويل قبل أن يألف المرء حياة الوديان ! » .. فتطلع اليها ، وهو يبحث فى ذهنه عن جملة يمكن أن تعبر ـ ولو تعبيرا واهنا ـ عن مشاعره نحوها .. عن عبارة لبقة تمحو الماضى وتفتح صفحة جديدة لمستقبل مشرق : « ان المرء يحس سريعا بالعزلة والوحدة هنا .. أعرف هذا ، وكثيرا مايحدث لى ، وكثيرا مااستشعر الحاجة الى وجود انسان بجانبى أخاطبه ! » . فابتسمت قائلة : « عم تحب أن تتحدث ؟ »

وتضرج وجهه اذ أحس أنها كانت تستدرجه ليتحدث

بدوره عن نفسه ، فقال : « عن عملى على الارجح » . ثم أمسك .. وشعر بأن عليه أن يشرح قصده ، فقال : «أشعر بأننى أتخبط ، وارتطم بمشكلة بعد اخرى ! » . فتساءلت : « أتعنى أن عليك معالجة حالات صعبة ؟ » . وأجاب : «كلا، ليس هذا ماأعنيه » . وبعد تردد قليل ، استطرد : « لقد جئت الى هنا ورأسى ملىء بصيغ علمية يؤمن بها الجميع أو يتظاهرون : فتورم المفاصل معناه روماتيزم ، والروماتيزم يحتاج الى سلسيلات .. القواعد الاولية الجامدة ! .. وها أنذا أكتشف أن بعضها محض اخطاء ! .. والادوية كذلك .. ويخيل لى أنها تخدث من الضرر اكثر مما تحدث من الفائدة ! .. انه « الروتين » ! **يأتى المريض الى المستوصف ، وهو يتوقع « زجاجة دواء » ، فيتسلمها ولو كانت سكرا محروقا، أو كربونات الصودا ، أو مجرد ماء جيد نقى .. ولهذا نكتب الوصفات الطبية بكلمات لاتينية .. حتى لايفهمها !** وليس هذا صوابا .. بل انه ليس عمليا ! .. وهناك أمر آخر، وهو اننى أجد عددا كبيرا من الاطباء يعالجون المرضى على نسق تجريبى، أى أنهم ينظرون الى الاعراض منعزلة دون أن يكلفوا انفسهم عناء التقريب فى ذهنهم بين مختلف الاعراض واستنباط التشخيص من هذا التقريب ! .. انهم يبتون بسرعة ، لانهم دائما فى عجلة : « آه ، آلام فى الرأس ؟ ! .. جرب هذه الاقراص ! » ، أو « فقر دم ؟ .. أنت بحاجة الى حديد ! » .. يقولون هذا ، وكان خليقا بهم أن يتساءلوا عن سبب الصداع أو فقر الدم .. » . ثم أمسك عن الاستطراد وقال: « أوه ! .. معذرة ، اننى أضايقك ! »

وقالت بحرارة : « كلا ، كلا ، هذا مشوق للغاية ! » . فعاد يقول نافد الصبر ، وقد أدهشه اهتمامها : « اننى لست سوى مبتدىء ، أتلمس طريقى . بيد أنى أعتقد مخلصا ـ

على ضوء مارأيت حتى الآن ، على الاقل - ان الكتب التى قرأتها فى دراستى تضم عددا كبيرا من الآراء العتيقة التى عفا عليها الزمن : أدوية لاتصلح لشىء ، وأعراض ذكرها هذا أو ذاك من أطباء العصور الوسطى ! .. **وقد تقولين ان هذا لايهم الطبيب العام ، ولكن .. لماذا يقتصر هذا الطبيب على وضع اللصقات ، أو تركيب « المراهم » ، أو وصف المسهلات .. لقد حان الوقت لان يكون للعلم المقام الاول ! ..** ان كثيرين من الناس يتصورون أن العلم يكمن فى قاع انبوب الاختبار ، أما أنا فأعتقد أن لدى الطبيب العام كافة الفرص لرؤية الحالات المرضية المتباينة ، واكتشاف أعراض امراض جديدة ، أكثر مما لو كان فى مستشفى . ان المريض عندما يدخل المستشفى يكون عادة قد تجاوز المراحل الاولى للمرض ! »

* * *

وهمت بأن تتكلم ، لولا ان رن جرس الباب ، فنهضت وقد أرجأت حديثها ، واكتفت بأن ابتسمت قائلة : « آمل ألا تنسى وعدك بأن تحدثنى مرة أخرى عن هذه المسائل ! »

وأقبل واتكينز تصحبه زوجته ، معتذرين عن تأخرهما .. وجلس الجميع الى المائدة على الفور . وكان العشاء مختلفا تماما عن ذلك العشاء البارد الذى ضمهم فى المرة السابقة ، فقد اشتمل على شرائح من لحم « البتلو » ، وبطاطس مطهوة بالزبد ، ثم « تورتة » بالكريم ، ثم قهوة . ومهما يكن من بساطة الطعام ، فقد كان شهيا وموفورا . وكان من دواعى سرور أندرو أن يحظى بهذه الاطعمة الساخنة ، بعد الاطعمة الهزيلة التى تقدمها له بلودوين . فقال متنهدا : « انك سعيدة الحظ يامس بارلو ، اذ تقيمين عند صاحبة دار كهذه .. الحق أنها طاهية مدهشة ! »

وضحك واتكينز فجأة - اذ كان قد لحظ بعين ماكرة

محاولات التقرب التى كان أندرو يبديها ــ وقال : « يالها من فكاهة ! » .. ثم وجه الخطاب الى زوجته ، قائلا : «أسمعت هذا ؟ .. انه يقول ان مسز هربرت العجوز طاهية مدهشة!»

.. وقالت كريستين لاندرو ، وقد احمر وجهها قليلا : «لاتلق بالك اليه .. ان هذا خير ثناء تلقيته ، لانه غير متعمد أو مقصود . الحقيقة ان العشاء من صنعى أنا ، اذ أن مطبخ مسز هربرت تحت تصرفى ، وأنا أحب ان اصنع الاشياء بنفسى ، فهذا دأبى ! » .. وأدخل هذا الايضاح على نفس مدير المنجم مزيدا من الانشراح الصاخب . وبدا ــ فى ذلك المساء ــ غيره ليلة سهرة براموبل ، فهو هنا مداعب مرح ، بينما كان هناك منطويا ساكنا ، يحتمل اللهو فى صرامة وجلد .. وراح يستمرىء عشاءه ، ويلعق شفتيه ــ فى غير تحرز ــ ويسند مرفقيه الى المائدة ، ويروى الحكايات لاضحاكهم .

وانقضت السهرة سريعا . ونظر أندرو الى ساعته ، فاذا هى تشير الى قرب الحادية عشرة ، الامر الذى باغته ، إذكان قد وعد بأن يعود قبل العاشرة والنصف لعيادة مريض فى ميدان (بلينا) . لذلك نهض مستأذنا فى الانصراف على مضض ، فصحبته كريستين الى الباب . وفى الردهة الضيقة، مس ذراعه بغير قصد منه فخذ الفتاة ، فأحس لهذه اللمسة برعشة هزته فى غبطة غامرة .. فقد كانت كريستين تختلف كل الاختلاف عن سائر النساء اللواتى عرفهن : تختلف عنهن بهدوئها ، ورقتها ، وعينيها السوداوين الناضحتين بالذكاء .. لتغفر له السماء أن حسبها قبيحة ! .. وغمغم متلعثما : « لست أملك أن أوفيك حقك من الشكر اذ دعوتنى هذا المساء . ايمكننى رؤيتك مرة أخرى ، ان طاب لك ذلك ؟ .. اننى لاأتحدث دائما عن مهنتى، فهل توافقين ياكريستين ؟.. أتقبلين الذهاب معى الى السينما فى تونيجلان يوما ؟ »

وتطلعت اليه بنظرة باسمة وقد بدت مثيرة ـ نوعا ما ـ لاول مرة ، وأجابته : ((حاول أن تدعونى !))
وشملهما الصمت لدقائق طويلة ، وهما واقفان على السلم فى ضوء النجوم ، والهواء الندى يرطب وجنة اندرو الملتهبة . وارتفعت أنفاس كريستين نحوه ، لحظات ، فتمنى فى وجد لو



انه عانقها !.. لكنه شد على يدها مرتبكا ، وتحول منصرفا ، فى طريقه الى مسكنه ، وفى رأسه حشد من الافكار الصبيانية . وسار بخطى خفيفة ، فى هذا الطريق الذى طرقه قبله ملايين من البشر ، حسبوا انهم افذاذ ، آثرهم القدر بهناءة أبدية ! .. ياللفتاة الخارقة ! .. لكم فهمت ماكان يعنى حينما تحدث عن صعوبات مهنته ! .. انها أذكى منـه بكثير ، وانها لطاهية ممتازة أيضا ! .. ثم أنه قد دعاها باسمها .. كريستين !

— ٨ —

• **وبالرغم** من أن كريستين أصبحت تشغل تفكيره اكثر من ذى قبل ، فان حالته المعنوية برمتها قد تبدلت ، فلم يعد يستشعر اليأس، بل تولته السعادة والغبطة ، والامل .. وكان لهـذا التغير أثر مباشر فى عمـلـه . **فقد كان من الشباب بحيث يستطيع أن يتمثل كريستين ـ فى خياله ـ ترقبه فى**

استشاراته ، وتتأمل طرائقه وفحوصه المسرفة فى الدقة ، وتطريه لما كان يبديه من عناية قبل تشخيصه لمختلف الحالات التى كان يعالجها .. فإذا راودته نفسه على اغفال عيادة مريض ما ، أو التسرع فى تكوين رأى عن حالة ما ، قبل فحص المريض جيدا ، أنبه على الفور خاطر : « ياالله ، ماذا تقول عنى ان فعلت هذا ! » . وكم من مرة باغت « دينى » وهو يركز عليه نظره الساحر المتغلغل ، بيد أنه لم يكترث لهذا ، اذ كان — بطريقته الجدية المثالية — يشرك كريستين فى طموحه ، ويجعل منها ، دون أن يفطن، حافزا له فى صراعه العنيف ضد المجهول !

وكان يعرف عن نفسه أنه مازال خلوا من المعرفة بمعناها الصحيح ، ولكنه راح يروض نفسه على الاستقلال فى التفكير، والبحث فيما «وراء» المظاهر، جاهدا أن يكشف السبب المباشر. واصبح يحس — كما لم يحس فى أى وقت مضى — بأن المثل الاعلى العلمى يبهره ويجتذبه ، فأخذ يدعو الله ألا يصبح — فى يوم من الايام — مقصرا فى واجبه ، أو خرب الذمة ، أومتعجلا فى تكوين رأيه ، أو يتعود كتابة عبارة : « يكرر الدواء السابق » **.. اصبح يتوق الى أن يكتشف ، وأن يكون عالما، وأن يكون جديرا بكريستين .. وازاء هذا التحمس الخالص ، كان من المؤلم أن تصبح ممارسته للمهنة ذات طابع متكرر ، ممل .. صار يود أن يتسلق الجبال ، ولكنه — فى الاسابيع القلائل التالية — لم يجد سوى كثبان ضئيلة من التراب !** .. فان الحالات التى كان يعالجها ، كانت أمراضا بسيطة ، لاتثير أى اهتمام، ولا تعدو أن تكون سلسلة تافهة من التواءات المفاصل، او جروح الاصابع ، أو الزكام . وزاد الطينة بلة أن عجوزا شمطاء استدعته ذات يوم الى دارها — على مسافة ميلين من (بلينيللى) — ليستأصل لها بثرة (كالو) فى قدمها . فجن جنونه ، وضاق بانعدام الفرص أمامه ، فتمنى لو وقعت

الواقعة وأودت الريح والعواصف بكل شيء . بل لقد بدأ يشك فى ايمانه ، فراح يسائل نفسه : كيف يتسنى لطبيب فى هذا المكان المنعزل ، ألا يصبح اكثر من أجير بائس ؟!

وفى أقصى خالات قنوطه ، وقع حادث رفع من روحه المعنوية مرة أخرى الى السماكين . فبينما كان يجتاز جسر المحطة — قرب نهاية الاسبوع الاخير من يونيه — صادف الدكتور براموبل .. كان « الملك الفضى » يتسلل من حانة السكة الحديدية ، وهو يمسح فمه بظهر يده . وكان من عادته أن يسرى عن نفسه بقدح او اثنين من البيرة ، كلما ذهبت جلاديز الى (تونيجلان) لتتسوق لوازمها ، وهى فى أكمل مرحها وأبهى ثيابها .. وارتبك براموبل قليلا ، اذ باغته أندرو، ولكنه تمالك نفسه فى لباقة، وهتف : « آه ، مانسون ! .. انني سعيد لرؤيتك . لقد استدعاني بريتشارد ! » .. وكان بريتشاردهو صاحب الحانة، وقد رآه أندرو قبل خمس دقائق يروض كلبه . **على انه لم يصارح صاحبه بذلك ، اذ كان يعطف على هـذا الرجل الطيب ، الذى كان يصطنع الفصاحة ومظاهر البطولة المضحكة ، وفى أعماقه حياء وجبن، وفى جوربيه ثقوب أغفلت جلاديز المرحة رتقها !**

وأخذا — وهما يمضيان فى الطريق — يتحدثان فى شؤون المهنة ، واذ كان براموبل على استعداد دائما لان يتناقش فى الحالات التى يعالجها، فقد أخبر صاحبه برصانة أن « ايمريز هيوز » — صهر « آنى » — تحت العلاج . وكان ايمريز فى الايام الاخيرة قد أخذ يتصرف تصرفات غريبة ، ويتشاجر فى المنجم ، كما أخذ فكره يشرد ، وتحول الى فظ ، عنيف .

وقال براموبل بادى الاهتمام : « ان هـذا يشغلنى كثيرا يامانسون ، فقد رأيت الاضطرابات العقلية من قبل ، وان حال ايمريز لتشبهها كل الشبه » . فأبدى أندرو اهتماما بالامر ، اذ كان يرى « هيوز »رجلا رصينا ، مستحب الصحبة .

وذكر أن « آنى » أصبحت تبدو قلقة من ناحية صهرها ـ فى الفترة الاخيرة ـ دون أن تفصح عن أية تفصيلات ، اذ كانت برغم ميلها الى الافاضة فى الحديث ، جد كتومة فيما يتعلق بشؤون أسرتها .. وتمنى أندرو للمـريض ـ وهو يفـارق برامويل ـ تحسنا سريعا فى صحته .

* * *

غير أنه استيقظ فى الساعة السادسة ـ من صباح يوم الجمعة التالى ـ على طرقات على بابه .. ولم يـكن الطارق سوى « آنى » ، وقد ارتدت كل ملابسها ، واحمرت عيناها احمرارا شديدا . وقدمت له خطابا فضه فاذا هو من الدكتور « براموبل » يقول فيه : **« أحضر على الفور ، فانى فى حاجة اليك لتساهم معى فى اقرار حالة جنون خطيرة »** .

وقالت « آنى » وهى تحبس دمعها بمشقة : « الامر يتعلق بايمريز يادكتور .. لقد وقع خطب جلل ، وآمل أنا الاخرى أن تسرع بالذهاب ! » .. فارتدى أندرو ثيابه فى ثلاث دقائق . وشرحت له « آنى » ـ وهى تصحبـه فى الشـارع ـ حالة ايمريز بقدر مااستطاعت . فقد كان مريضا منذ ثلاثة أسابيع ، وقد تغير تغيرا تاما . وفى تلك الليلة ، عنف فى هياجه .. فقد عقله تماما ، وانقض على زوجته بسكين ، واستطاعت « أولوين » الافلات منه الى الشـارع بقميص النوم ! .. وكانت هـذه القصة المثيرة محزنة ، لاسيما وقد روتها « آنى » فى عبارات متقطعة ، وهى تعدو بجانب أندرو فى ضوء الفجر الخافت . ولم يجد مايسرى به عنها سوى القليل . حتى اذا وصلا الى منزل هيوز ، وجد أندرو الدكتور براموبل فى الحجرة الامامية ، غير حليق ، وبدون ياقة أو ربطة عنق ، وقد جلس الى منضدة ممسـكا بقلمه ، وأمـامه ورقة زرقاء ملئت بالكتـابة حتى منتصفها . وما ان رآه حتى صاح : « آه يا مانسـون ! ..

جميل منك أن حضرت بمثل هذه السرعة .. انه لامر محزن حقا ، ولكنه لن يأخذ من وقتك كثيرا ! » . فسأله أندرو : « وماذا هناك ؟ »

ـ لقد جن هيوز .. لعلى قلت لك منذ ثمانية أيام ، أننى كنت أخشى ذلك .. لقد كنت على حق ، أليس كذلك ؟ .. جنون حاد .!

فاه بهذه الكلمات فى لهجة مؤثرة ، ثم أردف : « جنون حاد ، قاتل .. يجب ارساله فورا الى (بونتينويد) ، وهذا يتطلب توقيعين على الشهادة : توقيعك وتوقيعى ، فقد رغبت أسرته فى استدعائك . انك على دراية بالاجراءات ، أليس كذلك ؟ » . فأومأ أندرو برأسه ان نعم ، وقال : « وما الدليل الذى سجلته ؟ » . فأجلى براmويل حنجرته ، وأخذ يقرأ ماكتبه .. كان تقريرا كاملا ضافيا عن مسلك هيوز فى الاسبوع الماضى ، تضمن أفعالا دلت على اختلال عقلى .. حتى اذا فرغ براموويل من قراءة تقريره ، رفع رأسه وقال : « أدلة حاسمة .. على ما أعتقد ! » .. فقال أندرو فى بطء : « ان هذا يبدو على جانب كبير من الخطورة .. سألقى نظرة عليه ! » . فهتف براموويل : « شكرا لك يامانسون .. ستجدنى هنا عندما تفرغ » . ومضى يضيف الى تقريره تفصيلات أخرى .

وكان « ايمريز هيوز » فى فراشه والى جانبه اثنان من زملائه فى المنجم ، وقفا على أهبة الاستعداد لمنعه من النهوض عند اللزوم . وعند الطرف الاقصى للسرير ، وقفت « أولوين » وقد شحب وجهها وبللت الدموع خديها ، وهى التى كانت باسمة مرحة على الدوام .. **كان حزنها عميقا ، وكان جو الغرفة مقبضا ، وأثاثها مبعثرا ، حتى لقد ارتجف أندرو وهو يدخلها ، وعراه شىء من الوجل ..** واقترب من ايمريز ، فلم يكد يعرفه فى أول الامر .. ولم يكن ايمريز قد تغير تغيرا جسيما ، ولكنه أصبح صورة مهتزة من ايمريز المعهود ، اذ

غلظت قسماته على نحو عجيب، وتورم وجهه، وانتفخ منخراه ، وامتقع لونه فيما عدا بقعة مائلة الى الحمرة ، فوق أنفه .. وكان – فى مجموعه – يبدو هامدا متبلدا . واذ خاطبه أندرو، أجاب مغمغما بكلمات غير مفهومة ، ثم شد قبضتيه ، وراح ينفث سيلا من اللغو الصاخب الذى يؤكد – اذا ما أضيف الى تقرير براموبل – ضرورة نقله الى المصحة .

وساد المكان صمت أحس أندرو خلاله بأنه فى حاجة الى أن يقتنع . بيد أنه لم يشعر بارتياح ، دون أن يدرك لذلك سببا، ولم يكف عن مساءلة نفسه : ((**لماذا ؟ لماذا يتكلم ايمريز هكذا ؟ .. اذا سلمنا بأنه فقد عقله ، فما سبب هذا كله ؟ .. لقد كان سعيدا دائما ، قانعا بحظه ، فلا هموم عنده .. بل كان لين الجانب ، محبوبا .. فلماذا تغير دون ما سبب ظاهر ؟**))

.. وراح مانسون يكرر لنفسه أن لابد لهذا من سبب ، فان الاعراض لاتظهر دون داع .. وراح يتأمل الملامح المتورمة البادية لناظريه ، باحثا – مثنى وثلاث – عما وراء هذه الاعراض . وبدا له – بدافع خفى – أن يمد يده فيضغط وجه المريض المتضخم ، ملاحظا – وهو شارد البال – أن الضغط لم يترك أى أثر على الخد المنتفخ .

وفجأة ، ومض فى ذهنه خاطر خاطف : ((لماذا لم يتأثر الورم بالضغط ؟)) .. **وقفز قلبه فى صدره ، اذ وثب الى**



ذهنه جواب : « لان الحالة ليست اختلالا عقليا ، وانما هى .. اختلال فى الغدة الدرقية ! » .. لقد اهتدى أخيرا الى التفسير وأمسك بالخيط ! .. كلا ، كلا ، يجب أن لايتسرع . واستعاد هدوءه بقوة، فما كان يخلق به أن يأخذ الامور مأخذا سطحيا كاللاعب يقفز صلفا باستنتاج ما ، بل كان عليه أن يتدرج فى حذر وببطء ، حتى يتأكد ! .. فانحنى ورفع يد ايمريز . أجل ، كان الجلد جافا خشنا ، وأطراف الاصابع منتفخة بعض الشىء ، والحرارة .. مرتفعة جدا .

وأتم فحصه متحاشيا الانسياق لموجات الاغتباط المتعاقبة عليه .. كانت كل الامارات والدلائل والاعراض تتوافق فيما بينها توافق الكلمات المتقاطعة فى وضعها الصحيح : الكلام مضطرب ، والجلد جاف ، والاصابع ملتوية ، والوجه متورم لامرونة فيه ، وشرود فى الذاكرة وبطء فى التفكير ، وهياج يدفع الى الشروع فى القتل ! .. آه ، لشد ما انتشى اذ تبدت له الصورة كاملة !

* * *

ونهض أندرو فهبط عائدا الى الدكتور براموبل ، الذى وجده واقفا فى الردهة وظهره الى المدفأة . وقال هذا: «وبعد؟ .. هل اقتنعت ؟ ان القلم فوق المائدة ! » . فالتفت أندرو، وقال جاهدا ألا يكون فى لهجته مايشعر بالظفر والانتصار : « اسمع يابراموبل . أعتقد انه ينبغى ان لا نوقع هذا التقرير عن هيوز » . فتساءل براموبل ، وقد شحب وجهه ، وصاح فى لهجة من أهين : « كيف ؟ .. لكن هذا البائس فقد عقله !»

وقال أندرو ، ماضيا فى تخفيف انفعاله والحد من ابتهاجه: « لست أرى هذا » .. لم يكن تشخيص المرض كافيا ، بل لابد من مداهنة براموبل بمهارة وبذل الجهد فى ألا ينقلب عدوا . فقال : « فى رأيى أن هيوز ليس مريضا عقليا ، ولكنه

مريض جسميا . وفى تقديرى أنه يشكو من اختلال فى الغدة الدرقية : هذه حالة «ميكسوديما» واضحة تماما » . فحملق فيه براموبل منذهلا، وحاول جاهدا أن يتكلم، الا أنه لم يصدر غير همهمة أشبه ماتكون بصوت سقوط الجليد عن احدى القباب . فمضى أندرو يقول فى لهجة مقنعة : **« ان (يونتينويد) مقبرة ، اذا دخلها هيوز فلن يقدر له مبارحتها أبداً .. ولو قدر له ذلك ، فسوف يعلق به أثرها مدى حياته . لماذا لانحاول أن نصلح هذه الغدة ؟ »**

ـ ماذا تعنى يادكتور ، لست أرى ...

فقاطعه مانسون بشدة : « فكر فى الشرف الذى سوف يقترن به اسمك لو أنك أبرأته ! .. الا ترى أن هذا يستحق العناء فى سبيله ؟ .. هيا ، وسأستدعى مسز هيوز ـ التى مافتئت تبكى وتنتحب منذ سمعت أننا سنأخذ زوجها ، فقل لها كيف أننا سنجرب علاجا جديدا ! » .. وقبل أن يتمكن براموبل من الاحتجاج ، كان أندرو قد برح الردهة . فلما عاد اليها ـ بعد بضع دقائق ـ تصحبه زوجة المريض ، كان براموبل قد هدأ روعه واستعاد هدوءه . وفى نبرات غاية فى الاتزان والتؤدة ، أخبر « أولوين » بأنه قد يكون ثمة بريق من الامل . وراح أندرو ـ من وراء ظهره ـ يلف التقرير بين أصابعه ، ويجعل منه كرة صغيرة جميلة ، ألقى بها فى النار ، ثم اتصل تليفونيا بكارديف ، وطلب كمية من مصل الغدة الدرقية .

* * *

ومضت فترة ارتقاب ممض ، سادتها كآبة مريرة ، قبل أن يبدو على هيوز أثر العلاج . ولكنه مالبث أن أخذ فى التحسن ، ثم جاءت النتيجة كالسحر ، فلم تنقض خمسة عشر يوما حتى أصبح فى حالة تسمح له بمغادرة الفراش . وبعد شهرين عاد

الى عمله . وفى ذات مساء ، قدم الى مستوصف (برينجوير) بخطى رشيقة ، نشيطة ـ تصحبه «أولوين» باسمة الثغر ـ ليقول لمانسون انه أصبح فى صحة لم يستمتع بمثلها فى أى يوم مضى من حياته .. وقالت أولوين : « نحن مدينان لك يادكتور بكل هذا ، ونريد أن نترك الدكتور براmويل ونصبح من عملائك .. لقد كان ايمريز مثبتا فى قائمته قبل أن يتزوجنى ، ولكنه كهل مخرف ، ولولاك ـ ولولا كل ما فعلته لنا ـ لكان ايمريز العزيز فى .. أنت تعرف ماذا أقصد ! » . فأجابها أندرو : « ليس لك يا أولوين أن تبدلى الطبيب ، والا أفسد ذلك كل شىء » . ثم خرج عن رصانته كطبيب ، وأضاف فى تهلل الصغار : « اذا حاولت يوما ما شيئا من هذا ، فسأجرى وراءك بسكين الخبز التى تعرفينها ! »

والتقى براmويل ـ بعد ذلك ـ بأندرو ، فقال له فى غبطة غامرة : « والآن يامانسون ، لابد أنك رأيت هيوز يتجول فى المدينة على قدميه ؟ .. لكم هما معترفان بالجميل كلاهما ، فى وسعى المفاخرة بأنه لم يتحقق على يدى أبدع من هذا الشفاء ، طوال حياتى المهنية ! » .. أما آنى ، فقالت : « ان هذا الكهل براmويل يذرع المدينة طولا وعرضا فى زهو وصلف ، وكأنه شىء ما ، وهو ـ فى الحقيقة ـ لايعرف شيئا ، وزوجه .. يامغيث ! انها لا تستبقى خادما فى خدمتها ! » . أما مسز بيدج ، فقد وجهت لاندرو هذه الملاحظة : « لاتنس أنك تعمل لحساب زوجى ! » .. وأخيرا ، لم يعلق دينى على هذا الامر بأكثر من قوله فى توتر : « أنت الآن يامانسون مزهو بنفسك ، الى حد أنه لم يعد فى وسع المرء ان يعاشرك ، ولن تلبث أن ترهقك نفسك .. سريعا ، فى القريب العاجل ! » . ولكن « أندرو » احتفظ بكل مالديه من قول لكريستين ، وأسرع اليها مزهوا بأسلوبه العلمي !

— ٩ —

• فى شهر يوليو من ذلك العام ، انعقد المؤتمر السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية فى مدينة (كارديف) . وهى جمعية كان لزاما على كل طبيب شريف — كما اعتاد البروفيسور لامبلو أن يقول لطلابه فى محاضرته الختامية — أن ينتمى اليها . وقد اشتهرت الجمعية بمؤتمراتها السنوية التى تنظم تنظيما رائعا ، وتتيح لاعضائها وأسراتهم حفلات رياضية واجتماعية وعلمية ، واقامة بنفقات مخفضة بأرقى الفنادق ، ورحلات مجانية لزيارة أطلال الاديرة المجاورة ، ونشرة تذكارية فنية ، ومفكرات فاخرة يقدمها — على سبيل الهدية — كبار منتجى الادوات الجراحية وكبار موردى المنتجات الصيدلية ، وزيارات لمدن المياه المعدنية المجاورة ، بأجور مخفضة . وفى نهاية أسبوع المؤتمر — فى العام السابق — أرسلت الى كل طبيب وزوجته علب ضمت عينات من بسكويت معد لمقاومة السمنة !

ولم يكن أندرو عضوا فى هذه الجمعية ، اذ كان اشتراكها السنوى — وقدره خمسة جنيهات — أكثر مما كانت موارده تسمح به . بيد أنه راح يرقب نشاطها عن كثب فى شىء من الغيرة ، وهو يشعر بالعزلة فى (بلينيللى) والبعد عن الاوساط الطبية . وضاعف من شعوره هذا ، ما أخذت تنشره الصحف المحلية من صور لجماعات الاطباء وهم يستقبلون بخطب الترحيب ، على المنصة الكبيرة القائمة فوق أرض ملعب الجولف فى (بينارث) ، أو لجماعة أخرى اكتظ بها مركب بخارى يقلها الى رحلة ترفيهية فى (ويستن سوبرمير) . على انه لم يلبث ان تسلم — فى منتصف الاسبوع — خطابا يحمل اسم فندق من فنادق (كارديف) ، بعث فى نفسه شعورا من الغبطة . فقد كان من صديقه « فريدى هامبتون » ، الذي كان يحضر المؤتمر .. والذي سأل مانسون أن يذهب

للقائه ، ودعاه للعشاء فى مساء يوم السبت .

وعرض أندرو الخطاب على كريستين ، اذ أصبح يطلعها على شؤونه الخاصة ، بدافع من شعور داخلى . **فقد ازداد هياما بها منذ تلك الامسية التى تناول فيها العشاء لديها ، قبل شهرين ، وأصبح سعيدا ـ كما لم يسعد قط فى حياته ـ اذ بات فى وسعه أن يكثر من لقائها ، وان يتبين أن هذه المقابلات كانت تدخل السرور على نفس الفتاة** .. ولعل كريستين هى التى بعثت فى نفسه الشعور بالطمأنينة . فقد كانت ذات طابع عملى ، صريحة ، مستقيمة ، خلوا من الخلاعة . وكان يلقاها برما متأثرا وقد برحت به الهموم والهواجس ، فلا يفارقها الا وهو هادىء الروع مطمئن الجنان . اذ كانت تعرف كيف تصغى الى مايكون لديه من قول ، ثم تعقب عليه ببضع عبارات فيها جد حينا ، وفكاهة حينا آخر . فقد كانت ذات روح مرحة .. ولم تكن تتملقه اطلاقا . فقد كان النقاش يحتدم احيانا ـ بالرغم من هدوئها ورصانتها ـ لانها كانت تعتز بآرائها . وقد قالت له ان ميلها الى المعارضة كان موروثا عن جدة لها اسكتلندية الاصل . **وربما كان مرد نزعتها الاستقلالية الى هذا الاصل ذاته ، فكثيرا مالمس فيها قدرا كبيرا من الشجاعة ، الامر الذى كان يهز مشاعره ويوحى اليه بالرغبة فى حمايتها !** .. فقد كانت وحيدة فى هذا العالم ـ فى الواقع ـ وليس لها سوى عمة عاجزة تعيش فى (بريدلنجتون) .

وكانا يتنزهان طويلا سيرا على الاقدام فى طريق (داندى) ـ كلما لطف الجو فى يوم السبت أو يوم الاحد ـ وذهبا مرة لمشاهدة فيلم « البحث عن الذهب » لشارلى شابلن ، كما ذهبا مرة أخرى الى حفلة موسيقية (سيمفونية) فى (توينجلان) ، بناء على اقتراحها . على أنه كان يحظى بأعظم متعة فى الامسيات التى كانت تزورها فيها مسز واتكينز ، اذ كان يحظى بصحبتها ـ فى قاعة الجلوس بدارها ـ فى جو ودى خال من الكلفة .

فكانت المناقشات تدور بينهما امام مسز واتكينز وهى تحيك خيوط الصوف فى دعة وسكون ، بعد أن تكون قد حرصت على أن يكفيها ما معها من خيط الصوف حتى نهاية الجلسة، لتكون مجرد عامل يلطف حدة النقاش !

* * *

واذ لاحت له فرصة هذه الرحلة الى (كارديف) ، ود لو انها صحبته اليها ، اذ ان مدرسة شارع البنك كانت تزمع أن تغلق أبوابها فى نهاية الاسبوع ، بمناسبة العطلة الصيفية التى كانت كريستين تعتزم قضاءها عند عمتها فى (بريدلنجتون)، فرأى ان لابد من حفلة خاصة تقام قبل سفرها !

وما أن قرأت الخطاب ، حتي صاح يغريها : « هلا ذهبت معى ؟ .. ان المسافة تستغرق بالقطار ساعة ونصف ساعة لأكثر . وسأطلب من بلودوين اعفائى من العمل فى مساء السبت ، ويمكن أن ندبر الامر لمشاهدة جانب من المؤتمر . وبالاضافة الى هذا ، أود أن أعرفك بصديقى هامبتون » . فأجابت : « يسعدنى أن أذهب ! » .. وشجعته موافقتها ، فاعتزم ألا يسمح لمسز بيدج بأن تعرقل سفره . ومن ثم حرص — قبل أن يفاتحها فى الامر — على أن يعلق اعلانا فى مكان ظاهر من نافذة المستوصف ، يقول : **« مغلق مساء السبت »** ، ثم توجه منشرح الصدر الى المنزل ، فبادرها قائلا : «من حقى يامسز بيدج — طبقا للائحة الاطباءالمساعدين التى قرأتها — ان أحصل على عطلة لنصف يوم فى كل عام ، وستكون هذه العطلة فى يوم السبت ، فانى مسافر الى كارديف ! »

وضايقها هذا الطلب ، بيد أنها ألفت أندرو واثقا تماما من نفسه ، يخاطبها فى كبرياء . فقذفته بنظرة مفعمة بالشك ، وأجابت فى لهجة المغيظ : « حسنا يادكتور ، بوسعك أن تسافر .. » . **ثم طرأت لها فكرة أومضت لها عيناها ،**



وقالت : « أحسب ان عليك ـ على أية حال ـ ان تحضر لى معك بعض الحلوى من محل (بارى) ، فلست أحب شيئا أكثر من حلوى هذا المتجر ! »

وفى منتصف الساعة الخامسة من مساء السبت ، استقل أندرو وكريستين القطار الى (كارديف) . وكان أندرو فى أتم غبطة ، يروح ويجىء فى صخب ، وينادى الحمال والموظف الموكل ببيع التذاكر فى المحطة ، باسمهما الاول . وراح يرمق كريستين باسما ، وهى تجلس مقابله .. وكانت ترتدى ثوبا أزرق يضفى عليها بهاء لم يعهده فيها من قبل ، وفى قدميها حذاءان أسودان جميلان ، وقد نمت عيناها البراقتان وكل سمة من سماتها عن أنها كانت فى أشد الابتهاج برحلتها الترفيهية هذه . **وشعر ـ وهو يراها الى جانبه فى هذه الغبطة ـ بعطف غامر نحوها ، وتولاه شعور جديد بالرغبة .. كانت صحبتهما هذه أمرا بديعا ، ولكنه أصبح يصبو الى ماهو أكثر ، فتمنى لو يحتويها بين ذراعيه ، ويتحسسها ، ويشعر بأنفاسها الحارة قريبة منه !**

وعلى غير ارادة أو فطنة ، هتف : « لكم سأفتقدك .. أثناء غيابك طيلة الصيف ! » . فاحمر وجهها بعض الشىء ، وسرحت بصرها خلال النافذة .. وباغتها متسائلا : « أما كان ينبغى

لى أن أقول هذا ؟ » . فأجابت دون أن تدير رأسها اليـه : « بل اننى سعيدة اذ قلته .. على أية حال ! » . وهم بأن يقول لها انه .. يحبها ، وأن يسألها — رغم عدم ثبات مركزه — ما اذا كانت ترضى بالزواج منه . فقد رأى — بنفاذ بصيرة مفاجىء — أن هذا هو الحل الوحيد بالنسبة لهما .. الحـل الذى لامناص منه ! .. **غير ان أمرا ما منعه من الافصاح عن هذه الرغبة ، اذ شعر بأن هذا الوقت لم يكن مناسبا ، فقرر مفاتحتها فى الامر وهما فى القطار ، أثناء العودة .**

وريثما يحدث هذا ، مضى يقول فى صوت متهـدج بعض الشىء : « يجب أن نقضى وقتا طيبا هذا المساء . ان هامبتون شاب طيب ، وكان كثير المرح فى الكلية .. انه ذكى بارع ، وانى لاذكر مرة .. » . وأبرقت عيناه لهذه الذكرى ، ثم تابع حديثه : « أذكر ان حفلة خيرية نهارية أقيمت — مرة — فى (داندى) لمساعدة المستشفيات ، وكان البرنامج يضم جميع النجوم .. جميع الفنانين الحقيقيين فى « الليسيوم » ، كما تعرفين . وأشهد أن هامبتون لم يدع شيئـا فى البرنامج الا اشترك فيه ، سواء مغنيا او راقصا ، حتى لقد اهتز .. أجل ، صدقينى .. لقد اهتز سقف القاعة من شدة التصفيق له ! » فقالت مبتسمة : « اذن فهو نجم فنى أكثر منه طبيبا ! »

— لاتسخرى هكذا ، ياكريس ، فلسوف تعجبين بفريدى !

ووصل القطار الى (كارديف) فى السادسة والربع ، فاتجها لفورهما الى فندق « بالاس » ، حيث كان هامبتون قد وعد بأن يلقاهما فى السادسة والنصف . غير أنه لم يكن هناك ، عندما دخلا البهو . فجلسا جنبا الى جنب يستمتعان بالمنظر : كانت القاعة غاصة بالاطباء وزوجاتهم ، وقد راحوا يتحدثون ويضحكون ملء أفواههم وقلوبهم ، ويتبادلون الدعوات الودية من أمثال : « يجب يادكتور أن تجلس ومسز سميث بجوارنا الليلة ! » .. و « اسمع يا دكتور ، كيف نحصل على تذاكر

المسرح ؟ » .. وهكذا لم يكن فى القاعة سوى رواح وغدو مليئين بالمرح والانفعال ، ورجال علقوا شارات حمراء فى عرى ستراتهم ، يعبرون الغرفة فى رصانة ، وفى أيديهم أوراق .. وفى ركن مقابل ، كان ثمةموظف يردد بصوت عال ، وفى رتابة : « قسم القصبة الهوائية ، من هنا ، من فضلك ! » .. وفوق ردهة مؤدية الى الغرفة الملحقة ، علقت لافتة كتب عليها : « المعرض الطبى » .. وفرقة للموسيقى الوترية .

وقال أندرو فى احساس بأنهما تائهان فى خضم الابتهاج العام : « انه مجتمع صاخب ، أليس كذلك ؟ .. أما فريدى فمتأخر كعادته ، قاتله الله ! .. هيا نلق نظرة على المعرض! » . وطافا بشغف بكافة أرجاء المعرض . وامتلأت يدا أندرو بالمطبوعات الانيقة ، فأطلع كريستين مبتسما على نبذة منها ، جاء فيها : « هل مكتبك خاو يادكتور ؟ .. نحن نستطيع أن نرشدك الى طريقة لملئه » ! .. وغير هذا من النشرات والاعلانات عن المسكنات ومختلف أنواع الادوية الحديثة التى يطريها الموردون ويشيد بها الاطباء .. وما لبث أندرو ان قال فى استياء : « لكأن آخر كلمة للطب هى الادوية ! »

وفيما كانا يغادران المعرض — فى نهاية المطاف — تقدم نحوهما شاب يعرض أداة صغيرة لامعة، أشبه بساعة الجيب، قائلا : « أعتقد انك ستهتم بجهازنا هذا يا دكتور ، فهو يستعمل فى أغراض عديدة ، وله تأثير طيب بجوار مضجع المريض . ان ثمنه جنيهان فقط . اسمح لى يا دكتور .. انه يعين — فى المقدمة — فترة حضانة الميكروب . فاذا أدرت الزر ، وجدت فترة العدوى .. وخلفها .. » . **غير أن أندرو قاطعه قائلا : « ان جدى كان يمتلك جهازا من هذا النوع ، ولكنه عزف عن استعماله ! » .. وابتسمت كريستين وهى تعبر الردهة ، وقالت : « يا للفتى المسكين ! .. ما أظن أحدا قد جرؤ على السخرية بجهازه من قبل ! »**

واذ عادا الى البهو ، وصل « فريدى هامبتون » ، فترجل من احدى سيارات « التاكسى » ، وأقبل يتبعه غلام يحمل أدوات الجولف . واذ لمحهما ، سار نحوهما مبتهجا بلقائهما ، هاتفا : « هالو ! هالو ! أهذان أنتما ؟ .. آسف لتأخرى ، فقد كنت مضطرا الى أن ألعب دورى فى مباراة كأس « ليستر » . لم أر فى حياتى مثل حظ غريمى .. أخيرا ، هاأنذا أراك يا أندرو ! .. لكم أنا مغتبط لرؤيتك ! انك ما زلت مانسون القديم كما عرفتك .. ها ! ها ! ها ! لماذا لا تشترى لنفسك قبعة جديدة يا فتاى ؟ » . وربت ظهره فى ود وألفة ، محيطا كريستين أيضا بهذا الترحيب القلبى الصادق ، قائلا : « قدمنى أيها الزميل القديم .. ما الذى شغلك ؟ »

* * *

وجلسوا حول احدى الموائد ، فقال هامبتون : « لابد لنا من كأس » . وفرك اصبعيه محدثا صوتا ، فأقبل الساقى مهرولا . ثم انطلق يروى لهما ـ بين رشفات من الشراب ـ كيف أنه كان على وشك أن يكسب المباراة لولا أن خصمه اكتسحه فى آخر لحظة !

وكان « فريدى » ناعم البشرة ، ذا شعر قمحى مصفف بالادهنة « البريانتين » ، وقد ارتدى بذلة بديعة التفصيل ، ولمع فى كمى قميصه ـ اللذين كان يحرص على اظهارهما ـ زران ثمينان من الياقوت .. ولم يكن مليح الشكل ، بل كانت ملامحه عادية جدا ، بيد أنه ـ مع هذا ـ كان جذابا ، وعلى قسط من الاناقة .. كما كانت تبدو عليه سمات الطيبة والوفاء . ولعله كان على قدر من الزهو ، غير أنه كان يمتاز بصفات خلابة تبدد أثر زهوه عندما يريد ذلك ويروض نفسه عليه . وكان يعقد اواصر الصداقة فى سهولة ويسر . ومع ذلك ، فان الدكتور « موير » ـ أستاذ الباثولوجى ـ قال له

فى لهجة صارمة على مسمع من زملائه فى الجامعة ، ذات يوم: **« انك لا تعرف شيئا يا سيد هامبتون ، لان عقلك المنتفخ كالبالون ، مفعم بالانانية وحب الذات ! .. على أن الحيله لا تعييك قط ، واذا نجحت فى عبث الاطفال هذا الذى يسمونه هنا امتحانات ، فانى أتنبأ لك بمستقبل مشرق رائع ! »** .

وانتقلوا الى قاعة الشاى لتناول العشاء ، اذ لم يكن أحد منهم فى لباس السهرة ، وان كان فريدى قد أخبرهما بأنه سيرتدى لباسه فيما بعد، فقدكانت ثمةحفلة راقصة صاخبة ، ولم يكن بد من أن يظهر فى الحلبة ! .. وطلبوا الطعام وفقا لقائمة أطلق فيها على الاصناف أسماء طبية طريفة ، فكنت تقرأ فيها : « خضر باستور ، وسمك مدام كورى ، وشرائح لحم المؤتمر الطبى » . وطفق هامبتون يستعيد فى حرارة ذكريات الايام الخوالى . **واختتم حديثه ـ أخيرا ـ قائلا : « ما كنت أحسب اذ ذاك أن مانسون الحميم سيدفن نفسه فى وديان ساوث ويلز ! »** . **فسألت كريستين بابتسامة متكلفة : « اذن فأنت تحسبه مدفونا ! »**

وسادهم صمت راح فريدى خلاله يجيل بصره فى القاعة الغاصة بالناس ، ثم سأل أندرو : « ما رأيك فى المؤتمر ؟ » . فأجابه أندرو فى شىء من التردد : « أحسبه وسيلة طيبة للوقوف على ما ينبغى الوقوف عليه ! » . فهتف : « الوقوف على ما ينبغى الوقوف عليه ؟ ! .. كم أنت ساذج ! .. ثق اننى لم أحضر ـ طوال الاسبوع ـ اجتماعا واحدا من اجتماعات الاخصائيين ! .. كلا ، كلا ، ان المهم فيه هو الاتصالات التى تجريها ، وما أظنك تتصور كم من ذوى النفوذ قابلتهم فى هذا الاسبوع ! .. هذا هو سبب وجودى هنا . فاذا ما عدت ، فسوف أتصل بهم تليفونيا ، وأذهب لالعب الجولف معهم .. وفيما بعد ـ وانتبه لما أقول ـ سأحصل على أعمال من وراء ذلك ! »

ـ لست أفهمك تماما يا فريدى !

ـ ان الامر أبسط ما يكون . فأنا الآن فى منصب ، ولكنى أرنو الى حجرة أنيقة فى غربى لندن ، يحمل بابها لافتة نحاسية صغيرة ، عليها : « فريدى هامبتون . بكالوريوس فى الطب » .. لكم سيبدو ذلك بديعا ! فما أن تثبت اللافتة النحاسية ، حتى يرسل لى أصدقائى هؤلاء ، مرضى عديدين. **انك تعرف كيف يحدث هذا ، على قاعدة تبادل المنفعة : حك ظهرى أحك لك ظهرك !**

ورشف فريدى جرعة من النبيذ ، ثم مضى يقول : « وبالاضافة الى هذا ، من الخير أن يكون المرء على صلة طيبة بالزملاء فى الضواحى ، ففى وسعهم أحيانا أن يرسلوا لك عملاء ! .. بل أنك لن تلبث أن ترسل لى ـ بعد عام أو عامين ـ مرضى من تلك المباءة الموحلة : (بلاين) .. أو كما تسمونها ! » . فنظرت كريستين الى هامبتون ، وبدا أنها كانت تهم بأن تقول شيئا ، غير أنها أمسكت ، وراحت تحدق فى طبقها . بينما استطرد هو باسما : « والآن ، حدثنى عن نفسك يا بنى .. حدثنى عما يجرى لك ! »

ـ أوه ! .. لم يجر لى سوى ما هو عادى ، فانى أستقبل المرضى فى كوخ خشبى ، وأقوم بثلاثين زيارة فى اليوم فى المتوسط . وأكثر مرضاى من عمال المناجم وأسراتهم !

وهز فريدى رأسه مواسيا ، وقال : « لست راضيا عن حالك هذه ! » . فأجاب أندرو بصوت خافت : « انها لا تسوؤنى » . وتدخلت كريستين قائلة لاندرو : « والحق أنك تقوم بعمل قيم ! » . فقال أندرو : « أجل .. لقد عرضت لى فى المدة الاخيرة حالة تثير الاهتمام ، وقد أرسلت لصحيفة « الجورنال » نبذة عنها ! » . ومضى يشرح لهامبتون ـ فى ايجاز ـ قصة ايمريز . وعلى الرغم من أن فريدى راح يتظاهر بالاصغاء ، الا أنه لم ينقطع عن اجالة بصره فى أنحاء القاعة .

حتى اذا انتهى مانسون من سرد قصته ، قال فريدى معقبا : « حقا ، هذا عمل طيب .. ماكنت أظن ان هناك من يصاب باختلال الغدة الدرقية الا فى سويسرا ، أو ما اليها .. آمل أن تكون قد أرسلت نبذة وافية . ان هذا يذكرنى بما قاله لى اليوم بالذات أحد الزملاء ، عن أمثل طريقة لحل مشكلة الاتعاب .. » : وأخذ يشرح الخطة التى رسمها له أحد الزملاء للحصول على أتعابه كلها فورا .. وفرغ أندرو وكريستين من تناول عشائهما ، ولم يفرغ هو من شرحه . ثم مالبث ان نهض فألقى عنه منشفته ، وقال : « هيا نشرب القهوة فى البهو ، ونتم حديثنا هناك ! »

وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة الا ربعا ، كان فريدى قد فرغ من تدخين سيجاره ، كما كان قد استنفد أحاديثه مؤقتا ، فتثاءب ونظر الى ساعة معصمه ذات السوار البلاتينى . على أن كريستين كانت قد سبقته فرمقت أندرو بنظرة معبرة وقالت : « ألم يحن موعد قطارنا على التقريب ؟ » . فهم مانسون بأن يقول أن ثمة نصف ساعة أخرى ، ولكن فريدى قال: « واعتقد أنه قد آن لى أن أستعد لحفلة الرقص اللعينة ، فلست أملك أن أهمل الذين سيرافقوننى اليها ! » . وسار معهما حتى الباب ، وصافحهما فى ود ، مستأذنا فى الانصراف ، قائلا وهو يشد على يد مانسون ، ويضربه على ظهره مودعا : « لن أقصر فى الكتابة اليك عندما أضع اللافتة فى حى **الوست اند** »

* * *

وكان الطقس دافئا ـ فى تلك الليلة ـ فسار « أندرو » و « كريستين » ، وفى نفسيهما شعور غامض بأن السهرة لم تنجح بالقدر الذى كانا يرجوان . وأنها خيبت أمل كريستين .. على الاقل . وتعمد **أندرو** أن يتريث حتى تتكلم ، غير

أنها أمسكت عن الحديث . فما لبث أن قال فى شىء من التردد : « أخشى أن يكون قد ضايقك الاستماع الى كل هذه الاحاديث الطبية ! »

ـ كلا ، لم أجد فيها ما يضايق اطلاقا .

وسألها بعد برهة من السكوت : « هل أعجبك هامبتون ؟ » . فقالت : « ليس كثيرا ! » . **ثم استدارت نحوه وقد فارقها هدوؤها ، وبرقت عيناها فى استهجان صادق : « تصور كيف راح يتظاهر ـ طيلة السهرة ـ بأنه أرقى منك .. بشعره المضمخ بالادهنة ، وابتسامته التافهة ! »** . فهتف فى دهشة : « يبدى انه أرقى منى ؟ » . فصاحت فى غضب متقد : « كان سخفا لا يطاق ، أن يقول : « شرح لى زميل أمثل طريقة للحصول فورا على الاتعاب كاملة » .. يقول هذا فى عين اللحظة التى انتهيت أنت فيها من رواية توفيقك الرائع ! .. وهو يسمى الحالة « غدة عنقية » ، مع أننى ـ وأنا البعيدة عن الطب ـ أعرف أنها على خلاف ذلك تماما . وتلك العبارة التى قالها عن المرضى الذين سترسلهم له ... كل هذا لم يكن سوى تفاخر وتعاظم لا أقل ولا أكثر ! » .. وتجهم وجهها ، وهى تختتم حديثها قائلة : « لكم آلمنى أن يهبط بك تحت مستواه ! » . فقال أندرو مرتبكا : « لا أحسب أنه قصد الحط من قدرى ! » . وصمت برهة ، ثم استطرد : « أعترف انه أفضل شاب على وجه الارض .. لقد كنا صديقين حميمين فى الكلية ، وقلما افترقنا » . فقالت كريستين فى مرارة نادرا ما كانت تبدو عليها : « الارجح أنه كان يجد فى مصادقتك نفعا له .. لقد كنت تساعده فى عمله ! » . فاحتج أندرو قائلا : « لا تكونى ظالمة يا كريس ! »

ولمعت عيناها بدموع الغضب ، وقالت محنقة : « انها غلطتك .. لا بد أنك أعمى فلست تراه على حقيقته .. هذا الى انه أفسد علينا رحلتنا ! .. لقد كان كل شىء رائعا حتى اللحظة

التى وصل فيها وراح يتحدث عن نفسه ! .. **كانت الموسيقى تعزف فى قاعة فكتوريا ، وكان بوسعنا الذهاب للاستماع اليها ، ولكننا فوتنا الفرصة ، ولم يعد الوقت ـ فى هذه الساعة المتأخرة ـ يتسع لشىء ، فى حين أنه حرص على موعد الرقص التافه ! »**

واتجها صوب المحطة ، وهما على شىء من التباعد .. كانت هذه أول مرة يحس فيها أندرو بأن كريستين غاضبة ، فغضب هو الآخر .. غضب على نفسه ، وعلى هامبتون ، بل .. وعلى كريستين نفسها . ومع هذا فقد كانت على حق ، اذ أن السهرة قد ضاعت عليهما . ولقد أحس فعلا ـ وهو يتأمل وجهها المقطب الشاحب ـ بأنه فشل فشلا أليما ! .. ودخلا المحطة . وفجأة ، لمح « أندرو » فى الجانب المقابل ـ وهما



يسعيان الى الرصيف ـ شخصين عرفهما على الفور ، فقد كانا مسز برامويل والدكتور جابيل . وفى اللحظة التى وصل فيها قطارهما ، وصل أيضا قطار فرعى ذاهب الى شاطىء البحر فى (بورتكاول) ، وصعدت اليه مسز برامويل والدكتور جابيل ، وهما يتبادلان الابتسامات . ثم أرسل القطار صفيرا ، وبرح المحطة ، فأحس أندرو بحزن مفاجىء ، والقى نظرة خاطفة على كريستين ، آملا ألا تكون قد رأتهما .. **ففى هذا الصباح بالذات ، كان قد التقى ببراماويل ، فقال له وهو يفرك**

يديه فى ارتياح - وقد بدا النهار صحوا والطقس بديعا - ان زوجته ذهبت لقضاء نهاية الاسبوع عند أمها فى (شروز برى) !

والتزم أندرو الصمت ، مطأطىء الرأس ، وقد أثاره ما رأى ، وما انطوى عليه هذا الذى رأى ، حتى لقد أحس لالمه بوخز الالم البدنى ، بل ان رائحته لتزكمه .. لم تكن تنقص غير هذه الحلقة الاخيرة ليكتمل يوم أغبر .. وخيل اليه أن مزاجه قد انقلب انقلابا تاما ، اذ خيم على سروره غمـام .. وتاق من صميم قلبه الى أن يتاح له حديث هادىء طويل ، مع كريستين ، والى أن يفضى اليهـا بمكنون صدره ، ويبدد هـذا الخلاف الصغير السخيف .. وود - فوق كل شىء - أن يكون فى خلوة تامة معها ، ولكن القطار الذى قدر لهما أن يعودا فيه ، وصل مكتظا أيما اكتظاظ بعمـال المناجم الذين راحوا يعقبـون فى حماس وصخب على مباراة كرة القدم التى جرت فى ملعب البلدية .

وبلغا (بلينيللى) فى ساعة متأخرة من الليل ، وقد بدا على كريستين تعب مضنى .. وأيقن أندرو من أنها رأت - هى الاخرى - مسز براموبل وجابيل ، بيد أنه لم يكن من الميسور أن يتحدث اليها فى تلك الساعة المتأخرة ، ولم يكن يملك سوى أن يرافقها الى منزل مسز هربرت ، ويتمنى لها - وهو غير سعيد - ليلة طيبة !

— ١٠ —

• **بالرغم** من أن الساعة كانت تشير الى منتصف الليل عندما وصل أندرو الى (برينجوير) ، الا أنه وجد جو مورجان فى انتظاره ، يذرع أرض الشارع - بين المستوصف المغلق وباب المنزل - جيئة وذهابا . حتى اذا لمحه أشرق وجهه الخشن ارتياحا ، وبادره قائلا : « آه يا دكتور ، ما أسعدنى برؤيتك ! .. لقد قضيت ساعة هنا ، أتمشى طولا وعرضا فى انتظارك ،

فان زوجتى فى حاجة اليك ! » .. وسرعان ما سأله أندرو — وقد صرف بغتة عن مشاغله الشخصية — أن ينتظره ، ودلف الى الدار ليأخذ حقيبته الطبية ، ثم اتخذا معا طريقهما الى المنزل رقم ١٢ فى (تيراس بلينا) .. **وكان الهواء لطيفا ، والليل فى سكون غامض .ومع أن أندرو كان مرهف الاحساس عادة ، الا انه بدا مكتئبا غير مكترث ، فلم يدر بخلده أن هذه الزيارة الليلية فريدة فى نوعها .. بل انها ستؤثر على مستقبله كله فى (بلينيللى) !**

وسارا ، لايتبادلان كلمة ما ، حتى باب المنزل رقم ١٢ ، حيث توقف « جو » لايريم حراكا ، وقال فى صوت يشى بانفعاله : « لن أصعد معك يادكتور ،ولكنى أدرك والله انك ستفعل كل خير لنا ! »

وأفضى بأندرو سلم ضيق الى غرفة نوم نظيفة ، وان كانت فقيرة الاثاث ، لا يضيئها سوى مصباح زيتى واحد . وكانت أم مسز مورجان — وهى امرأة بدينة ، ذات شعر أشيب ، تناهز السبعين — فى انتظاره الى جانب المريضة ، مع مولدة بدينة ، ترقبان مايعبر عنه وجه « أندرو » الذى أخذ يروح ويغدو فى الغرفة . وقالت الام المسنة بعد لحظات : « اسمح لى يادكتور بأن أعد لك قدحا من الشاى ! » . **فارتسمت على شفتى أندرو ابتسامة خفيفة ، اذ رأى أن العجوز أدركت — وقد أكسبتها التجربة حكمة — انه لا بد من فترة انتظار ، فخشيت أن يغادر البيت زاعما انه لن يلبث أن يعود .. ومن ثم قال : « اطمئنى يا أماه ، فلن أهرب ! »**

وتناول الشاى الذى أعدته له ، فى المطبخ بالطابق الاسفل ، وقد أدرك انه لن يستطيع — رغم تعبه — أن يحظى بساعة نوم واحدة لو أنه عاد الى داره . كما أدرك أن الحالة كانت تتطلب كل عناية ، فى حين ان خمولا غريبا ران على ذهنه .. وقرر البقاء حتى ينتهى كل شىء .. وما لبث ان صعد —

بعد ساعة ــ فتفقد تطورالحال ، ثم هبط وجلس الى المدفأة .. وكان السكون شاملا ، لايعكره سوى أزيز الوقود فى المدفأة ، وحركة بندول ساعة الحائط البطىء الرتيب .. لا بل كان هناك صوت آخر .. صوت وقع أقدام مورجان وهو يروح ويجىء فى الشارع ! .. وأمام أندرو ، جلست المرأة العجوز فى ثوبها الاسود لاتتحرك ، وانما راحت ترقبه بعينيها النفاذتين ، المفعمتين بالحكمة !

وكانت أفكاره مرتبكة أيما ارتباك ، فان المنظر الذى رآه فى محطة (كارديف) ظل عالقا بذهنه ، يؤلمه ويحز فى نفسه . وراح يفكر فى براموبل الذى كان مدلها ــ فى غباء ــ بزوجة تخونه دون ماتورع ! .. وفى أدوارد بيدج الذى كان يخضع خضوعا أعمى لسيطرة « بلودوين » المشاكسة .. وفى دينى الذى كان يعيش فى بؤس بعيدا عن زوجته ! .. وحدثه عقله بأن هذه الزيجات كانت فاشلة جميعا ، بدرجة تدعو الى الرثاء .. **وارتجف لهذه النتيجة التى انتهى اليها وهو فى حالة النفسية تلك ، فقد كان يرجو أن يرى فى الزواج وضعا شاعريا .. أجل ، ماكان ليعتبره غير ذلك ، وطيف كريستين ماثل فى خياله ، فان عينيها المتطلعتين اليه فى اشراق ، لم تكونا تنطقان بغير ذلك !** .. وأهاجه الصراع الذى راح يدور بين عقله الحائر ، المرتاب ، وبين قلبه الزاخر بالعاطفة ، فأمال رأسه الى صدره ، وبسط ساقيه ، وراح ينظر الى النار فى المدفأة ، وهو مستغرق فى التفكير ! .. وظل طويلا فى هذا الوضع ، وقد ملأت كريستين فكره فنسى كل من عداها ، حتى أنه انتفض مجفلا حين خاطبته ــ فجأة ــ العجوز الجالسة أمامه ، والتى كان ذهنها منصرفا الى اتجاه آخر : « لقد طلبت سوزان الا تعطى مخدرا ، اذا كان هذا يضر بالطفل ، فهى مهتمة بهذا الطفل أشد اهتمام يادكتور ! » .. ولمعت عيناها المتغضنتان لخاطر طاف بها بغتة ، وقالت بصوت

خافت : « آه ! .. كلنا هكذا ! »

وجهد أندرو فى أن يستعيد هدوءه ، وقال فى تلطف : « ان المخدر لايحدث أى ضرر ، ولسوف تكون الام وطفلها بخير ! » . وفى هذه اللحظة ، سمع صوت المولدة تنادى من أعلى ، فألقى نظرة الى ساعة الحائط — وكانت تشير الى الثالثة والنصف صباحا — ونهض ، فصعد الى المخدع ، حيث تبين أن فى استطاعته أن يبدأ العمل .. وانقضت ساعة .. وكان الصراع طويلا عنيفا . ومع أضواء الفجر الاولى ، التى تسللت الى الغرفة خلال حواف النافذة البالية ، ولد الطفل ، ولا أثر للحياة فيه !

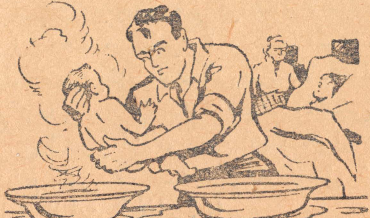
* * *

وعرته قشعريرة فزع وهو يرى الجسم الصغير بلا حراك ولا حياة .. أهذا ماكان يعد به ، بعد كل ماجرى ؟! .. وبرد وجهه فجأة ، بعد أن كان الجهد قد بعث فيه دفئا .. **وتردد موزعا بين رغبته فى محاولة انقاذ الطفل ، وبين واجبه نحو الام التى كانت فى حالة تدعو الى اليأس .. ولم يكن الامر يحتمل أى تباطؤ ، فبت فيه بدون وعى كامل** . اذ دفع الطفل — فى غير تبصر — الى المولدة ، وأخذ يعنى بسوزان ، وهى مضطجعة على جنبها ، فاقدة الوعى ، يكاد نبضها أن يتوقف ، وهى بعد تحت تأثير المخدر .. وراح يعمل فى سرعة واستماتة ، فى سباق مذعور مع قواها المتلاشية .. وفى ثانية واحدة ، فض زجاجة صغيرة ، وحقن المريضة ، ثم ألقى بالمحقنة ، وأخذ يعمل بكل الوسائل على اعادة المرأة الى رشدها .. وبعد بضع دقائق من الجهد العنيف المضنى ، دب النشاط الى قلبها ، فرأى أندرو أن بوسعه أن يتحول عنها دون خطر ، فاستدار ، ودفع كمى قميصه ، وقد لصق شعره بجبينه المقطب ، وسأل : « **أين الطفل ؟** »

وارتجفت المولدة خوفا ، اذ كانت قد وضعته تحت السرير !

.. وفى سرعة البرق ، جثا أندرو على ركبتيه ، وأخذ ينبش الصحف القديمة الملطخة ـ تحت السرير ـ ثم اجتذب الطفل .. كان مولودا ذكرا تام التكوين ، وكان جسمه أبيض ناعما كالشمع ، والحبل السرى ـ الذى قطع فى عجلة فائقة ـ مدلى كساق نبتة كبيرة .. كانت البشرة غضة ملساء ، والرأس يتمايل فوق الرقبة الرقيقة ، والاطراف تبدو كما لو كانت مجردة من العظام .. وراح أندرو يتفرس فى الوليد وهو لايزال راكعا ، مكفهر الوجه .. كان البياض الناصع يعنى شيئا واحدا ، هو : الاختناق . **وخطرت بذهنه المكدود حالة كان قد شهدها فى مركز رعاية الطفل ، فتذكر كيف عولجت .. ونهض على الفور فصاح فى المولدة : « أحضرى لى ماء باردا ، وماء ساخنا ، وحوضين .. أسرعى ، أسرعى ! »** . فهمهمت وهى تركز نظرها على جسم الطفل الهامد : « لكن يادكتور .. » . ولكنه صاح فيها : « أسرعى ! »

وأمسك بملاءة ، فبسط عليها الطفل ، وأخذ يباشر عملية التنفس الصناعى .. وأحضرت المولدة أناءين ، ودلوا وغلاية .. فسكب ـ على عجل ـ ماء باردا فى أحد الاناءين ، وجعل فى الاناء الثانى ماء ساخنا بقدر ما تحتمله اليد . وطفق ينقل الطفل بين الاناءين كمشعوذ يقوم باحدى العابه : فتارة يضعه



فى الماء البارد ، وأخرى فى الماء الساخن .. وانقضى ربع ساعة .. وأخذ العرق ينساب على عينى أندرو فيحجب بصره ، وتهدجت أنفاسه ، ولكن نفسا واحدا لم ينبعث من صدر الطفل الهامد !

وأحس بالهزيمة والخور يدبان فى نفسه ، وبالغضب يستولى على قلبه ، وهو يحس بالمولدة ترقبه فى اهتمام ، بينما وقفت الجدة العجوز فى ركن الغرفة مستندة الى الحائط ، لاتتحرك من مكانها ، ويدها تضغط رقبتها ، دون أن يصدر عنها صوت ما ، وعيناها ترمقانه . **وذكر أنها كانت تتوق الى أن يكون لها حفيد ، بقدر ماكانت ابنتها تتوق الى أن يكون لها ولد .. وها هو ذا أمل كل منهما قد انتهى وتلاشى ، فليس من سبيل الى احيائه !**

ولم تعد أرض الغرفة غير سطح ملىء بالفضلات .. وكاد الطفل المبتل أن يسقط من يدى أندرو ، فقالت المولدة متنهدة: « ارحم نفسك يادكتور .. لقد ولد ميتا ! » . فلم يحفل بها أندرو ، بل واصل جهاده ، رغم انه ظل يعمل بلا هوادة ، زهاء نصف الساعة ، وقد تولاه اليأس والشعور بالهزيمة .. وعمد الى جهد أخير ، فأخذ يفرك بمنشفة جافة الجسم الصغير ، ضاغطا الصدر الرقيق بين يديه مرة ، ومرخيا اياه مرة ، على التوالى .. جاهدا أن يرد الحياة الى هذا الجسم الميت !

وفجأة ، اختلج الصدر الصغير ، اختلاجة قصيرة ، ثقيلة ، وكأن معجزة حدثت .. ثم توالت النبضات ! .. وكان أندرو شارد الذهن ، فلما أحس بالحياة تدب تحت أصابعه ـ بعد كل هذا الصراع المستميت ـ أشرقت أساريره فى غبطة دافقة كادت أن تفقده وعيه ، وضاعف فى اصرار جهوده . واذا الطفل الآن يفتح فاه رويدا .. وبدت نقطة من المخاط فى أحد منخريه الدقيقين .. نقطة تدحرجت مختالة مرحة . ولم تعد الاعضاء بدون عظم ، ولم يعد الراس يتدلى الى الخلف !

وأخيرا ، انطلقت صرخة من الطفل ، تحمل الفرح للجميع !.. وهتفت المولدة مبهورة ، مأخوذة : « يا أبانا الذى فى السموات .. انه .. انه حى !»

ودفع أندرو الطفل الوليد اليها ، وهو يحس بالخور والذهول .. والغرفة من حوله فى فوضى لا يتصورها عقل : الملاءات ، والمنشفات ، والاوانى ، وأدوات متسخة ، والمحقنة وقد غرست ابرتها فى زجاجة الدواء ، والدلو مقلوب ، والابريق فى أحد الاركان ، وبركة من الماء .. وعلى السرير المشعث ، كانت الام فى عالم الاحلام بفضل المخدر .. **وكانت العجوز لاتزال مستندة الى الحائط ، بيد أن يديها انضمتا فوق صدرها ، وأخذت شفتاها تتحركان دون أن يصدر عنهما صوت ما .. فقد كانت تصلى !**

وفى حركة آلية ، أرخى أندرو كمى قميصه ، وارتدى سترته ، وقال للمولدة : « سأعود لاخذ حقيبتى بعد حين !» . ثم هبط السلم ، واجتاز المطبخ .. وكانت شفتاه جافتين ، فدلف الى الحوض حيث شرب قدحا كبيرا من الماء ، ثم تناول معطفه وقبعته .. وفى الخارج ألفى مورجان بادى الكرب والترقب ، فقال له بصوت أجش : « كل شىء على مايرام يا « جو » .. كلاهما بخير ! »

وكان ضوء النهار واضحا ، اذ كانت الساعة قد بلغت السادسة . وظهر فى الشارع نفر قليل من فرقة عمال المناجم الليلية ، عائدين الى دورهم ، فسار معهم فى خطى كخطاهم الثقيلة الوئيدة ، ووقع قدميه يتجاوب مع وقع أقدامهم تحت سماء الصباح . ولم يكف ــ وقد نسى كل شىء آخر فعله فى بلينيللى ــ عن ترديد هذه العبارة : « ياالهى ، لقد استطعت أن أقوم بعمل يذكر .. قمت بعمل حقيقى أخيرا ! »

— ١١ —

• وأحس أندرو بعد أن اغتسل وحلق لحيته ـ وكانت «آنى» قد امدته بماء ساخن وفير ـ بأن الاعياء قد خف عنه . ومع ان مسز بيدج اسرفت فى السخرية اللاذعة والمزاح ـ وقد عرفت أنه لم ينم الليلة فى سريره ـ الا أنه تلقى حملاتها بصمت . فراحت تقول : « آه ! .. انك تبدو مرهقا بعض الشيء فى هذا الصباح يا دكتور ، وهناك بعض حلقات داكنة تحت عينيك . ألم تعد من (سوانسى) الا فى الصباح ؟ .. وها قد نسيت الحلوى من محل بارى .. أراهن أنك كنت فى حفلة مرحة يافتاى ! .. لا ، لا .. لن تغرر بى !.. وكنت أحسبك طيبا ، ولكنكم ـ معشر المساعدين ـ سواء ! .. ماوجدت منكم واحدا لايشرب الخمر ، أو يرتكب اثما ما ! »

واذ فرغ أندرو من استشاراته وجولته الصباحية ، عرج على منزل مريضته .. وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف ، حينما وصل الى (تيراس بلينا) ، وقد اجتمعت ثلة من النسوة يثرثرن أمام أبوابهن المفتوحة ، فلما مر بهن ، أمسكن عن الكلام ليتبسمن له ويحيينه فى ود .. حتى اذا اقترب من المنزل رقم ١٢ ، خيل اليه انه يلمح وجها فى النافذة .. وكان هذا صحيحا ، اذ كان أهل البيت يرتقبونه . **فما أن وطأت قدماه الافريز ، حتى سارعت الجدة الى فتح الباب وقد اشرق وجهها المتجعد ، وبدت الغبطة على أساريرها . واستقبلته داخل الدار وهى متلهفة لان تعبر له عن شكر عجزت عن أدائه الكلمات** . ورجته أن يتناول أولا شيئا من المرطبات فى غرفة الجلوس ، فلما رفض غمغمت : « حسنا .. حسنا يادكتور ، لك ماتريد . ولعلك تجد ـ عند خروجك ـ فسحة من الوقت لتتناول قدحا من الشراب مع قطعة من الحلوى ! » .

وراحت تربت ظهره بيدين مرتعشتين ، وهو يصعد السلم .

ودخل غرفة النوم .. لكم كانت هذه الغرفة بالامس حافلة بالفوضى ، فاذا بها قد أصبحت غاية فى النظافة ، وقد غسلت أرضها جيدا بالفرشاة فبدت لامعة ، وصفت جميع الادوات الطبية التى استعملها ـ نظيفة براقة ـ فوق منضدة مصقولة ، حتى لكأنها من فضـة .. وكانت أغطية الفراش قد بدلت ، فرقدت الام على سرير نظيف ، وعلى محيـاها اشراق المرأة الناضجة ، وبين أحضانها طفلها يمتص ـ فى سكون ودفء ـ ثديها الممتلىء .. ونهضت المولدة البدينة عن مقعدها بجانب المضجع ، وراحت تطلق الابتسامات ، قائلة : « آه ! .. انهما يبدوان فى أتم صحة ، أليس كذلك يادكتور ؟ .. ليست لديهما فكرة عما سبباه لنا من عناء .. ولا هما يحفلان بذلك ! » .

وحاولت سوزان مورجان أن تعبر عن عرفانها بالجميـل ، فرطبت شفتيها ، وقد أبرقت عينـاها بعطف ناعم دافىء .. فهزت المولدة رأسها ، وقالت : « لاتستكثرى الشكر عليه ، ولا تنسى يابنيتى انك ماكنت قادرة ـ فى سنك هذه ـ على أن تعوضى طفلك .. فأما هذه المرة ، واما .. لم يكن ليقدر لك أن تكونى أما الى الابد ! » . **فقاطعتها الجدة بلهجة ذات معنى ، وهى تقف بالباب : « اننا نعرف هذا يامسز جونز ، ولانجهل أننا مدينون للدكتور بكل شىء ! » .**

وسألته الوالدة فى استحياء : « هل دهب زوجى لرؤيتك يا دكتور ؟ .. كلا ؟ انه سيذهب . لك أن تطمئن الى هذا ، فهو يكاد يجن من الفرح .. وهو يقول أننا لن نفتقـد ـ فى جنوب أفريقيا ـ سوى رعايتك لنا ! »

* * *

وبارح أندرو الدار بعـد أن تناول المرطب والحـلوى .. فقد كان رفضه أن يشرب نخب الحفيد ، كفيلا بأن يكسر قلب الجدة ! .. ثم واصل جولته وقـد أحاط بقلبه دفء غـير

معهود . وراح يقول لنفسه : « لو اننى كنت ملك انجلترا ، لما لقيت منهم مالقيت من الاحترام والتبجيل ! » .. **وغدت هذه التجربة بمثابة ترياق يشفى نفسه مما شهده على رصيف محطة (كارديف) ، اذ أثبتت له أن ثمة مايمكن ان يقال فى صالح الزواج والحياة العائلية ، عندما تنبع منهما سعادة كتلك التى ملأت بيت أسرة مورجان !**

واذ انقضت خمسة عشر يوما على آخر زيارة قام بها أندرو للمنزل رقم ١٢ ، قدم « جو » لرؤيته ، وقد تكلف الجد والرصانة . وبعد أن أعياه البحث عن كلمات يفوه بها ، صاح : « ياللشيطان ! .. انى لا أجيد الكلام يادكتور .. ان ما فعلته معنا لا يقدر بثمن ، ولكن زوجتى واياى نود أن نقدم لك هذه الهدية المتواضعة » .

ودفع الى أندرو بوريقة ، فاذا بها اذن مصرفى بخمسة جنيهات ، يتقاضاها من حساب الشركة العقارية . وحملق أندرو فى الورقة .. كانت أسرة مورجان « ميسرة الحال » ـ بالنسبة للقياس المصطلح عليه فى البلدة ـ ولكنها كانت بعيدة عن الثراء ، وكانت على وشك السفر ، وأمامها مشكلة تدبير نفقات الرحلة . ومن ثم كان مبلغ كهذا يمثل تضحية جسيمة وسخاء نبيلا . فقال أندرو فى تأثر عميق : « لا استطيع قبول هذا ، ياصديقى جو ! » . فأجاب جو بالحاح وجد ، وهو يشد على يد أندرو : « بل يجب .. والا كانت اهانة جسيمة لزوجتى ولى .. انها هدية لك ، وليست للدكتور بيدج ، فقد ظل يأخذ من نقودى سنين وسنين ، دون أن نلجأ اليه ، اللهم الا فى هذه المرة .. لقد أخذ أجره بسخاء ، وهذه هدية لك .. لك أنت يادكتور .. أتفهمنى ؟ » .. فقال أندرو مبتسما : « أجل ياجو ! » .

وطوى الاذن المصرفى ، ودسه فى جيبه ، وظل عدة أيام

لايفكر فيه . وتصادف ــ فى يوم الثلاثاء التالى ــ أن كان مارا ببنك الاقاليم الغربية ، فوقف وفكر قليلا ، ثم دخل . ولما كانت مسز بيدج تدفع له مرتبه أوراقا نقدية ، اعتاد أن يرسلها داخل ظرف مسجل الى مؤسسة « جلين » ، فانه لم يكن قد حظى بفرصة التعامل مع مصرف . أما وقد سنحت له الفرصة ، فقد رأى أن يودع هدية « جو » لتكون بداية حساب له مع المصرف ! .. ومن ثم وقع باسمه على ظهر الاذن المصرفى ، وملأ البيانات فى « استمارة » خاصة ، ثم دفع بهما الى صراف الخزانة الشاب ــ الذى كان قابعا وراء النافذة الحديدية ــ وقال مبتسما : « انه مبلغ صغير ، ولكنه بداية على أية حال ! »



وفى تلك اللحظة، فطن الى أن انيورين ريس كان فى الداخل يرقبه . حتى اذا هم بالانصراف ، تقدم مدير البنك ــ ذو الرأس الطويل ــ نحو الخزانة ، **فأمسك بالاذن المصرفى ،وراح يتحسسه ، ثم رمق أندرو بنظرة من خلف عوينتيه ، وقال : « طاب نهارك يادكتور مانسون ، كيف صحتك ؟ »** . ومضت هنيهة استنشق فيها الهواء من خلال أسنانه الصفراء ، ثم عاد يقول : « أتريد أن يودع لك هذا المبلغ فى الحساب الذى سنفتحه لك ؟ » . فقال مانسون فى شىء من الدهشة : «نعم،

الا يكفى لفتح حساب ؟ »
ـ أوه ! كلا ، كلا ، ليس الامر متعلقا بالمبلغ .. بل يسرنا أن تكون عميلا لنا ..

وتردد « ريس » ، وهو يفحص الاذن المصرفى ، ثم رفع عينيه الصغيرتين المتشككتين نحو وجه أندرو ، وقال : « و .. أتحب ايداعه باسمك ؟ » . فقال أندرو : « بالتأكيد » . وتجلت ـ اذ ذاك ـ على وجه الرجل ابتسامة مائعة ، وقال : « حسنا ، حسنا يادكتور .. كل ماهنالك اننى كنت أتساءل .. أردت التأكد .. ماأبدع الطقس الذى نحظى به فى مثل هذا الفصل . الى اللقاء يادكتور مانسون ، الى اللقاء ! »

وبرح مانسون البنك مغيظا يسأل نفسه : ترى ما الذى كان يعنيه هذا الحيوان الاصلع .. ومضت بضعة أيام قبل أن يهتدى الى جواب عن هذا السؤال .

— ١٢ —

• **وانقضى** أكثر من أسبوع على سفر كريستين فى عطلتها السنوية .. وكان أندرو قد شغل بحالة الوضع فى منزل « مورجان » ، حتى انه لم يستطع رؤيتها الا لبضع لحظات ، فى يوم سفرها . ولم يكن قد تحدث اليها ، وها هى ذى قد بعدت عنه ، فتملك الشوق فؤاده ! .. وكان الصيف شديد القيظ ـ فى البلدة ـ بدرجة غير معهودة ، فذوت خضرة الربيع من زمن ، واستحالت الى صفرة كريهة ، ولف الجبال هواء لافح ، وكانت الانفجارات التى تنبعث يوميا من المناجم والمحاجر ، تتردد فى هذا الجو الساكن الراكد ، فتبدو كأنها تلف المدينة بغلالة من القصف المدوى .. وكان العمال يبرحون المناجم بوجوه معفرة بغبار كأنه الصدأ ، والاطفال يلهون متغافلين عن كل شىء .. وأصيب الحوذى الكهل « توماس » باليرقان ، فغدا لزاما على أندرو أن يؤدى جولاته سيرا على قدميه .

فكان يفكر فى كريستين وهو يسير على قدميه فى الطرق التى أصلاها الحر بشواظه : ترى ماذا تفعل هى ؟.. هل تفكر فيه، ولو .. بعض التفكير ؟ .. وما أمر المستقبل، وما يرتجى منها، وحظهما من السعادة معا ؟

ثم تلقى ــ على غير توقع ــ رسالة من واتكينز يدعوه فيها للحضور الى ادارة الشركة . واستقبله المدير فى تلطف، وقدم له مقعــدا ، ودفع أمامه علبة سجـائره ، وقال له فى رقة : « اصغ لى يادكتور ! .. لقد كنت أرغب فى التحدث معك منذ مدة ، ومن الخير أن نحسم هذه المسألة قبل أن أقدم تقريرى السنوى » . وتوقف برهة ليقصى عن لسانه ذرة تبغ علقت به ، ثم مضى يقول : « لقد جاءنى لفيف من العمال ــ يحفزهم « ايمريز هيوز » و وليمز ــ ليطلبوا الى أن أثبتك فى قائمة الاطباء المعتمدين لدى الشركة » .

وهنا اعتدل أندرو فى جلسته، وقد أبرقت أساريره بارتياح سريع ، ثم تبدى عليه الانفعال ، وقال : « اتعنى .. أن تدبر الامر كى أحل محل الدكتور بيدج ؟ » . فقــال واتكينز فى تؤدة : « كلا ، ماقصدت هذا تماما .. ان الموقف دقيق ، اذ أن من واجبى أن أكون على حذر فى معالجة مسائل العمـال هنا . ولست أملك أن أقصى الدكتور بيدج عن القائمة ، فان عددا كبيرا من العمال لايرضى عن هذا . والذى أقصــده ــ لصالحك أولا ــ هو أن أزج بك الى قائمة الشركة ، فيسهل على الذين يريدون ترك الدكتور بيدج ليصبحوا عمـلاء لك ، أن يفعلوا هذا ! » .. **وخبا تحمس أندرو ، وشــد جسمه وقد تقطب جبينه ، وقال : « أنت تدرك أننى لا أسـتطيع قبول هذا . لقد حضرت الى هنا كمساعد للدكتور بيدج . فهل أنافسه وأقف ضده ؟.. مامن طبيب شريف يفعل هذا !»**

ــ ما من سبيل آخر لذلك .

فقال أندرو ملحا : « ولماذا لا تسمحون لي بأن أحل محله

.. اننى على أتم استعداد لأن أدفع له مقابل ذلك من دخلى .. هذه طريقة أخرى ! » . فهز واتكينز رأسه بشدة ، وقال: « لن تسمح بلودوين بذلك .. لقد اقترحت عليها هذا الحل من قبل . ولكنها تعرف أن موقفها متين اذ أن جميع العمال القدامى مثل « أونوك ديفز » فى صف بيدج ، وهم يعتقدون أنه عائد الى عمله ، فاذا حاولت أن أقصيه ، فقد يضرب العمال » .. وامسك لحظة ، ثم قال : « فكر فى الامر يا دكتور الى غد ، وسأرسل ـ بعد ذلك ـ قائمة الاطباء الى الادارة فى (سوانسى) . وما أن تصل الى هناك ، حتى يستحيل علينا عمل أى شىء قبل مضى سنة ! »

وركز اندرو بصره على البساط لحظة ، ثم أوما رافضا فى بطء .. وقد تحطمت كل آماله التى كانت ـ منذ دقيقة واحدة ـ قد حلقت عاليا .. وما لبث أن قال : « ماالفائدة ؟ .. ليس بوسعى أن أفعل هذا ، ولو قضيت أسابيع أفكر فيه ! » .. ولقد كبده هذا القرار ـ والتشبث به أزاء تحمس واتكينز لمساعدته ـ جهدا أليما . غير أنه ما كان يملك أن يغفل انه ما دخل (بلينيللى) الا كمساعد للدكتور بيدج ، فلا مجال للتفكير فى أن يقف فى وجهه ، ولو فى هذه الظروف الاستثنائية .. ثم هب أن القدر شاء للدكتور بيدج أن يستأنف نشاطه ، فبأى مظهر يبدو أندرو وهو يكافح ليأخذ من الرجل مرضاه ؟ .. كلا ، كلا ، لم يكن بوسعه ، ولا كان راغبا فى أن يقبل !

* * *

ومع ذلك ، فقد قضى أندرو يومه حزينا ، مهموما ، ساخطا على بلودوين التى كانت تستغله جهارا ، مستبينا حرج موقفه ، حتى لقد تمنى لو لم يفاتحه واتكينز فى هذا الامر ! .. وقرب الثامنة مساء ذهب ـ وقد فارقته

شجاعته ـ الى منزل دينى . ولم يكن قد رآه منذ فترة من الزمن ، فسعى اليه وهو يشعر بأن الحديث معه قد يطمئنه الى أنه أحسن التصرف ، فيداخل نفسه الارتياح .

وبلغ مسكن فيليب فى حوالى الساعة الثامنة والنصف ، فدخل دون أن يطرق الباب ـ اذ أصبحت هـذه عادته ـ ودلف الى الصالون . فاذا فيليب راقد على الاريكة . وحسب مانسون أول الامر أنه كان يستجم فى نهاية النهار ، بعد يوم حفل بعمل مضن . بيد أن زميله لم يكن قد أدى عملا ما فى هذا اليوم .. وكان مستلقيا على ظهره ، واحدى ذراعيه فوق وجهه .. كان مخمورا الى أقصى حد ! .. واستدار «أندرو» فألفى صاحبة الدار فى مواجهته تماما ، تنظر اليـه وقد بدا القلق فى عينيها . وما لبثت أن قالت : « سمعتك تدخل يا دكتور .. انه على هذه الحال طيلة النهار ، ولم يتناول طعاما ما . لست أعرف ماذا أفعل له ! »

ولم يدر أندرو ماذا يقول ، بل راح يتأمل وجـه فيليب ـ الفاقد الوعى ـ ذاكرا كلمته الاولى الماجنة ، التى وجهها اليه ليلة وصوله لاول مرة .. بينما واصلت صاحبة الدار كلامها ، قائلة : « لقد مضت عشرة أشهر منذ حدثت له آخر أزمة .. ولم يمس الخمر طيلة هذه المدة .. ولكنه لا يكاد يعاود الشرب ، حتى يستغرق فيه .. وليس بوسعى أن أقدر مدى حرج موقفه ، فان الدكتور لويس متغيب فى اجازته ، ويبدو أن من الواجب أن أرسل له برقية ! »

وقال أندرو أخيرا : « ارسلى لى توم ، لنحمله الى سريره ! » . وساعده ابن صاحبة الدار .. وكان شابا من عمال المناجم ، أخذ الامر على أنه فكاهة .. ونزع « أندرو » عن « فيليب » بذلته ، وألبسـه « بيجامته » . ثم نقلاه معا ـ وهو جامد الحراك ، كالجثة الهامدة ـ الى غرفة نومه . وقال أندرو : « ان أهم شىء هو أن تحرصـا على ألا يعود الى الشراب ،

أتفهمان ؟ .. اغلقا الباب بالمفتاح ، اذا استدعى الامر ذلك ! »
.. حتى اذا عادوا الى الصالون ، قال أندرو لصاحبة الدار :
« والآن ، الى بقائمة الزيارات المطلوبة منه اليوم ! » . وكانت مدونة على لوح اردوازى ، فنقلها أندرو وانطلق يؤديها . واستطاع ـ بتعجله ـ أن يفرغ منها قبل الحادية عشرة .

وفى صباح اليوم التالى ، ذهب الى منزل دينى ـ عقب العيادة ـ فاستقبلته صاحبة الدار وجلة ، وقالت : « لست أدرى كيف حصل على خمر ! .. لست أنا .. لقد بذلت كل ما فى وسعى ! » .. **وكان فيليب مخمورا أكثر مما كان بالامس ، وقد فقد رشده تماما . ومكث أندرو يهزه طويلا ، وحاول اعادة الشعور اليه بقدح كبير من القهوة انسكب آخر الامر على الفراش ..** ومرة أخرى ، نقل قائمة الزيارات ، وانطلق يؤديها الى جانب زياراته ـ فى ذلك اليوم أيضا ـ لاعنا القيظ ، والذباب ، ويرقان توماس .. ودينى !

وعاد قرب الغروب ، وقد نال منه الاعياء والغضب ، وعقد عزمه على أن يوقظ فيليب من غيبوبته .. ووجده ـ فى هذه المرة ـ فى « بيجامته » ، ممتطيا مقعدا ، وقد ثمل وراح يلقى محاضرة على توم ومسز سيجر . وما ان دخل أندرو حتى توقف عن الخطابة ، ورماه بنظرة استهجان وازدراء ، وصاح فيه بصوت أجش متلعثم : « آه ، ها هوذا السامرى الصالح (١) ! .. يبدو أنك قمت بجولتى نيابة عنى . انها لشهامة منك .. ولكن ما الذى يدعوك الى ذلك ؟ .. لماذا يبرحنا لويس اللعين ويترك لنا هذا العمل نؤديه نحن ؟ » .

---

(١) المقصود هو السامرى الوارد ذكره بانجيل لوقا ، والذى عنى بغريب وجده ملقى على الارض جريحا فضمد جراحه ، ونقله الى فندق مجاور ، ودفع للفندق مقدما نفقات اقامته وعلاجه . ويكنى بتعبير «السامرى الصالح» عمن يسدى الخير لاخ له فى البشرية لا تجمعه به صلة رحم .

فقال أندرو ، وقد بدأ يفقد صبره : « لست أدرى .. كل ما أعرفه هو أن قيامك بنصيبك كان خليقا بأن يسهل الامور ! »

— اننى جراح ولست من أولئك الاطبـاء الذين يقحمـون أنفسهم فى كل شىء .. « ط . ع » ! ما معنى ذلك ؟ .. هل سألت نفسك يوما ؟ .. كلا ؟ اذن دعنى أشرحه لك : **انها آخر الرواسب التاريخية .. انها العلة المزمنة ، أسوأ العلل .. أغبى نظام وضعه انسان خلقه الله ! .. « ط . ع » ، طبيب عام ! .. وهناك العجوز الطبيب « ج . ب » : الجمهور البريطانى .. ها ، ها !**

وانطلق فى الضحك ساخرا ، وهو يستطرد : « هذا الجمهور هو الذى صنع الـ « ط . ع » ، وهو يحبه ، ويبكى عليه !» .. وراح يهتز فوق مقعده ، وقد توهجت عيناه فى حنـق ومرارة ، وقد راح يحاضرهم وهو ثمل : « ما الذى فى وسعه أن يفعله هذا الـ « ط . ع » المسكين ؟ .. هذا التعس الذى يمارس كل لون .. ورئيسك الكهل بالذات ؟ .. لعله حصل على لقبه منذ عشرين عاما ، فأنى له أن يعرف الطب والتوليد والبكتريولوجيا وكافة غزوات العلم الحـديث ، ناهيـك عن الجراحة ! .. آه ! أجل ، أجل ، لا تنسى الجراحة ! .. انه يمارس — فى بعض الاحيان — اجراء عملية صغيرة فى كوخـه الذى يسميه مستشفى ! .. ها ، ها ! » .. وعاودته اللهجة المرحة اللاذعة : « عملية فتح « خراج » مثلا .. انه يقضى فيها ساعتين ونصفا ، بالدقيقة .. واذا وجد قيحا ، جعل من نفسه منقذا للبشرية .. فاذا لم يفلح ، دفن المريض ! » .

وعلا صوته وهو يواصل كلامه فى سخط المخمور : « **حسـبنا الله ، يا مانسون ! .. ان هذا يجرى منذ قرون ، فهل لم يحن الوقت لتغيير هذا النظام ؟** .. ما الفائدة ؟ أجب عن سؤالى : ما الفائدة ؟ .. أعطنى كأسا أخرى من الويسكى ، فان أدمغتنا جميعا مصدعة ، ويبدو اننى — فوق هذا — ثمل ! »

وكانت لحظات صمت سيطر فيها أندرو على نفسه ، وكبح جماح سخطه وقال: « أما ينبغي لك الآن أن تعود الى فراشك ؟ .. هيا سنعينك ! » .. فقال دينى : « دعنى وشأنى ، ولا تستعمل معى أساليبك كطبيب يقف عند سرير مريض ، فقد استعملتها كثيرا فى حياتى ، وأعرفها جيدا ! » .. ونهض فجأة مترنحا ، ودق كتف مسز سيجر بقبضته ، ودفعها الى المقعد . ثم أخذ ــ وقدماه لا تكادان تحملانه ــ يستجوب المرأة المسكينة المرتعدة ، فى لطف عجيب : « وكيف أنت اليوم يا سيدتى العزيزة ؟ .. أحسن قليلا فيما يبدو لى .. النبض أقوى بعض الشىء . هل تحظين بنوم طيب ؟ .. آه ! احم ! .. اذن يجب أن أصف لك منوما خفيفا ! »

* * *

وكان مشهدا مضحكا ــ وان انطوى على نذير مخيف ــ أن يرى هذا الطبيب الممتلىء الجسم ، غير الحليق ، فى « بيجامته » ، وقد انحنى بكل احترام أمام زوجة أحد عمال المناجم . **وانفجر « توم » فى ضحك عصبى . وفى لمح البصر استدار دينى اليه ، وصفعه بشدة ، وصاح : « انك محق ، فاضحك .. اضحك ملء شدقيك ! ولكنى قضيت خمس سنين من حياتى أمارس هذه المهنة . يا لله ! .. اننى حينما**



أفكر فى هذا ، أكاد أصعق ! » . وتأملهم ، ثم تناول « زهرية » كانت فوق المدفأة ، وألقى بها على الارض بكل قوته . وبعد لحظة تناول مصباح الغرفة ، وقذف به الحائط . ثم تقدم وقد جن جنونه ، متأهبا لتحطيم كل شىء !

وقالت مسز سيجر كالمحمومة : « أمنعاه ، بحق السماء !.. امنعاه ! » . وارتمى عليه توم سيجر وأندرو بقوة ، فحاول – ما وسعته طاقته – التملص منهما ، فى هياج الثمل .. ثم تبدل فجأة ، فاذا به وديع كالحمـل .. وارتمى على كتف أندرو ، هاتفا : « انك لفتى طيب يا مانسون ، وانى لاحبك أكثر من أخ .. لو اننا تفاهمنا – أنت وأنا – لانقذنا الطائفة الطبية كلها ! » . ونهض فسرح بصره فى الفضـاء ، ثم مال رأسه واسترخت عضلاته ، وترك أندرو يساعده على مغادرة الغرفة الى سريره .. حتى اذا استقرت رأسه فوق الوسادة ، تضرع اليه باكيا : « عدنى يا أندرو .. بحق السماء لا تتخذ لك زوجة من بنات الطبقة العليا ! »

وفى صبيحة اليوم التالى ، كان مخمورا أكثر من أى وقت آخر . وعزف أندرو عن عمل أى شىء له ، وقد داخله شك مبهم فى أن « توم سيجر » هو الذى كان يحضر له الخمـر خفية . فلما سئل الفتى ، أنكر – وهو شاحب الوجه – أن له شأنا بهذا الامر !

وظل أندرو طوال الاسبوع يؤدى عيادات دينى – فوق عياداته هو – حتى لقد أعياه العمل .. وبعد أن تناول غداءه – يوم الاحد – ذهب الى شارع (لاشابيل) .. وكان فيليب قد نهض وحلق لحيته ، وارتدى ملابسه ، وبدا فى منظر لا غبار عليه .. وكأنه قد استفاق تماما . وبادره قائلا : « يلوح أنك أديت عملى يا مانسون ! » .. ولم يكن « فيليب » الاليف ، بل بدا عليه الضيق ، والاعياء . فقال أندرو فى جفاء مماثل : « انه أمر بسيط . »

ـ على العكس، لابد أن هذا قد سبب لك كثيرا من العناء !

وكان موقف دينى نابيا ، حتى لقد احمر وجه صاحبه .. لم تكن ثمة كلمة شكر واحدة .. لا شيء سوى ذلك الصلف الغليظ الفظ ! .. لذلك قال أندرو : « اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، فانه زج بى فى كثير من المتاعب ! » . فقال دينى : « أعدك بأن أنظر فى تعويضك ! » . واذ ذاك صاح أندرو فى غضب : **« من تحسبنى ؟ .. أتحسبنى حوذيا بائسا ينتظر منك هبة ؟ .. لولاى لارسلت مسز سيجر برقية الى الدكتور لويس ، ولطردت من عملك ! .. انك متكبر قذر ، وما أراك بحاجة الا الى لطمة مباشرة فى فكك ! »**

وأشعل دينى لفافة تبغ وأصابعه ترتجف ، حتى انها لم تكن تقوى على مسك الثقاب . وابتسم ابتسامة ملؤها الاحتقار ، قائلا : « بديع منك أن تختار هذه الكلمات ، لتعرض بها على مباراة فى الملاكمة . انها الطريقة الاسكتلندية القحة .. سيكون فى مقدورى يوما آخر أن أتيح لك هذا السرور ! » . فهتف أندرو : « أواه !.. اغلق فمك اللعين ! .. اليك قائمة مرضاك . عليك أن تذهب يوم الاثنين لعيادة الاشخاص الذين أشرت ازاءهم بعلامة الصليب ! »

* * *

وانصرف ودمه يغلى غضبا وسخطا . وراح يردد فى نفسه مستشيطا : « يا للشيطان ! .. من يكون هو حتى يسلك هذا المسلك .. كأنه الله القدير !.. كأنما هو قد أسدى الى جميلا ، اذ سمح لى بأن أحل محله ! »

وهدا روعه شيئا فشيئا ، أثناء الطريق .. فقد كان صادق الحب لفيليب ، فاستطاع أن يدرك طبعه المعقد .. **ذلك انه كان خجولا ، فائق الحساسية ، سريع التأثر والانفعال . وهذا وحده هو الذى جعله يحيط نفسه بخشونة وغلظة أشبه ببيت السلحفاة .. ولا بد أن ذكرى اسرافه فى احتساء الخمر ،**

والمظهر الذى بدا به خلال سكره ، كانت مبعث ألم مرير أخذ يضنيه !

وعجب أندرو ـ من جديد ـ لما كان يبديه هذا الرجل من تناقض ، اذ اتخذ من (بلينيللى) جحرا يتحرر فيه من العرف وتقاليد المجتمـع ! .. ولقد كان ديني ذا مواهب خارقة ، كجراح . فلقد رآه أندرو ـ اذ تولى مرة مهمة طبيب التخدير مســاعدة له ـ منهمكا فى اجراء عملية جراحية لاستئصـال حصاة من كلية أحد عمال المناجم ، على مائدة المطبخ .. وكان العرق يتصبب من وجهه الاحمر وساعديه الكثيفى الشـعر .. كان مثالا للسرعة وخفة اليد والدقة ! .. ان رجلا كفئـا لعملية كهذه، لجدير بأن يتجاوز له عن أشياء كثيرة !.. وحين بلغ داره ، كان أندرو لا يزال متألما من برود « فيليب » .. لذلك لم يكن بوسعه أن يحتمل صوت مســز بيـدج وهى تبتدره حين دخل وعلق قبعتـه على المشجب ، هاتفـة : « أهـذا أنت يا دكتور ؟ .. اننى فى حاجـة اليك يا دكتور مانسون ! »

وتظاهر بأنه لم يسمعها ، واستدار يتأهب للصعود الى غرفته . على أنه لم يكد يضع قدمه على أولى درجات السلم، حتى طرق سمعه صوت بلودوين وقد ازداد قوة وحدة عما كان يتوقع : « يادكتور ! دكتور مانسون.. اننى أريدك ! » . **وتلفت خلفه فألفى مسز بيدج تبرح الصالون شاحبة الوجه ـ على نحو غير مألوف ـ متقدة العينين، من جراء انفعال شديد. وتقدمت نحوه صائحة : « أأنت أصم ؟ .. ألم تسمعنى أقول اننى أريدك ؟ »** . فقال بضيق: « ماذا جرى يا مسز بيدج ؟ » . فأجابت وهى لا تكاد تصعد أنفاسها : « آه ، ما الامر حقا ؟ .. أأنت الذى يسألنى ! .. أنا يا دكتور مانسون التى تريد أن تسأل .. » . فصاح بحدة : « اسألى اذن ! »

وبدا كأن لهجته قد أخرجتها عن طورها ، فصاحت : « هاك!

.. نعم ، يا فتاى المهذب .. لعلك تتلطف فتفسر لى هذا ! »
.. وأخرجت من جيبها ورقة دفعتها اليه فى تحد ، وان لم تتركها من يدها . **فنظر اليها ، واذا بها الاذن المصرفى الذى أخذه من ((جو مورجان)) .. ورفع رأسه فلمح ((ريس)) متواريا خلف بلودوين ، عند مدخل الصالون** . ومضت بلودوين قائلة : « أوه ! تأمله مليا ! .. أرى أنك عرفته ، ويحسن بك أن تفسر لى كيف أبحت لنفسك ايداع هذا المبلغ باسمك ، فى حين أنه يخص الدكتور بيدج .. وأنت تعرف هذا جيدا ! » .. وأحس أندرو فجأة بدمه يتصاعد دافقا الى رأسه . وقال : « بل انه لى ، فقد قدمه جو مورجان لى كهدية ! »

ــ هدية ؟ ! .. ها ، ها ، كم هذا جميل ! .. لقد رحل ــ للاسف ــ ولو كان هنا لاخجلك !

وأجاب وهو يصر على أسنانه : « بوسعك أن تكتبى اليه ان كنت فى شك مما اقول » . فصاحت : « عندى من الاعمال ماهو أفضل من كتابة الخطابات .. » . ولم تعد تقوى على ضبط نفسها ، فاشتدت حدتها : « نعم ، انني أشك فيما تقول ! .. لعلك تحسب أنك غاية فى المكر .. هه ! لقد جئت وفى ظنك أنك تستطيع أن تحل محل الدكتور بيدج لدى الشركة ، **ولكن هذا يبديك على حقيقتك .. فأنت لص .. اجل،ولص حقير ! »** .. قذفته بالسباب وهى تستدير ملتمسة مساندة « ريس » لها .. وكان لا يزال واقفا عند مدخل الصالون ، يغمغم بكلمات اللوم وقد اشتد شحوب وجهه عن المألوف .

وأدرك أندرو أنه كان وراء كل ماحدث .. لابد أنه فكر فى الامر بضعة أيام ، ثم سارع يروى القصة لبلودوين . وشد أندرو قبضتيه فى غيظ شديد ، وهبط درجتى السلم الاخيرتين ، وتقدم نحوهما مصوبا نظره فى تحد الى فم ريس

الشاحب الشفتين ، وهو يتحرق غضبا وشوقا الى منازلته . بيد أنه كظم غيظه وقال : « انك تتهمينني يا مسز بيدج ، فاذا لم تسحبى اتهامك هذا ، وتعتذرى لى فى ظرف دقيقتين ، فسأطالبك أمام القضاء بتعويض عن القذف والاضرار التى لحقتنى منك . **وسيكشف اللثام — أمام المحكمة — عن مصدر معلوماتك ، وكم يسر مجلس ادارة السيد ريس — بلا شك — حينما يتبين كيف أفضى بأسرار عمله !** » . فقال مدير المصرف وقد اشتد امتقاع وجهه : « انني لم أفعل .. لم أفعل غير واجبى » . فقال أندرو والكلام يندفع من حنجرته بقوة ، حتى ليكاد يخنقه : « انني أنتظر يا مسز بيدج ، فاذا لم تسرعى ، ضربت مدير مصرفك كما لم يضرب من قبل فى حياته ! »

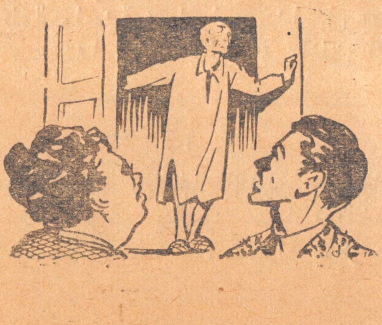
وأدركت أنها ذهبت الى أبعد مما كان ينبغى ، وقالت أكثر مما كان فى نيتها أن تقول . وأزعجها تهديد مانسون وموقفه الرهيب ، حتى لقد كان من الميسور أن يقرأ المرء على أساريرها ما ساورها من مخاوف : **تعويض ! أضرار وقذف ! .. يا لله ، أنه قد يكبدنا نفقات باهظة !.. فاختنق صوتها وازدردت لعابها وغمغمت : « انني .. انني أسحب كلامى . واعتذر لك ! »**

وكان من المضحك أن ترى هذه المرأة السمينة ، القصيرة ، السليطة ، تلين وتتراجع بمثل هذه السرعة . بيد أن أندرو لم ير فى هذا ما يثير الضحك ، بل أحس — فجأة — بأنه مهتاج الى أقصى درجة ، وان صبره ينفد ، ولم يعد فى مقدوره أن يحتمل هذه المخلوقة المتطفلة الشرسة . وراودته — فى سرعة خاطفة — فكرة عميقة أنسته كل شيء ، عدا الاشمئزاز الذى استشعره حيالها ، فأحس بميل ضار حانق الى أن يطلق ما كان يضطرم فى صدره ، فقال : « لدى أمر أو أمران أحب أن أقولهما يا مسز بيدج . أولهما : انني أعرف يقينا أن الجهد الشاق الذى أبذله فى خدمتكم يدر عليك ألفا وخمسمائة جنيه فى العام ، تعطينني منها مائتين وخمسين جنيها تعسة ،

فضلا عن أنك بذلت كل ما فى وسعك لكى أموت جوعا . ولعله مما يهمك أن تعرفى أن وفدا من العمال سعى – فى الاسبوع الماضي – لدى المدير ، فعرض على اثبات اسمى بسجلات الشركة ، كطبيب عامل فيها . وقد يهمك – أكثر من ذلك – أن تعلمى أننى لاسباب تتصل بقواعد الاخلاق – التى لا تستطيعين أن تفهمى منها شيئا – قد رفضت هذا العرض رفضا باتا ! **والآن ، لقد ضقت بك تماما يا مسز بيدج ، وليس بوسعى أن أبقى ! .. انك امرأة بذيئة ، شرهة ، شحيحة .. بل انك لوباء يستحق الدراسة . وانى لانذرك منذ الآن بأننى تارك العمل بعد شهر ! »**

وكانت ترمقه بذهول ، فاغرة فاها ، وعيناها الصغيرتان تكادان أن تقفزا من محجريهما . وقالت فى لهجة كالعواء : « لا .. لن يكون هذا .. انك تكذب .. لا يمكن أن تثبت فى سجلات الشركة ! .. ثم انك مفصول من العمل . ما من مساعد أنذرنى – فى حياتى – بترك العمل . يا لها من فكرة ، بل يالها من قحة وسفالة أن تخاطبنى بهذه اللهجة ! .. أنا التى تكلمت أولا .. انك مطرود ، أفهمت ؟ .. مطرود ، مطرود ، مطرود .. ! »

وكانت تصيح بصوت عال ، وغضب متهوس . حتى اذا بلغت الذروة ، توقفت فجأة .. اذ سمع فى هذه اللحظة باب



ادوارد يفتح ببطء . وبعد هنيهة ، ظهر الرجل المريض ــ أو قل الهيكل العظمى ــ فى قميص نومه ، لا تكاد ساقاه الواهنتان تقويان على حمله . وكان ظهوره مفاجأة غير مرتقبة ، حتى أن مسز بيدج لم تتم الكلمة التى كانت على لسانها . وتطلعت ــ وكذلك فعل ريس وأندرو ــ بينما أخذ المريض يتقدم ، جارا ساقه المشلولة ببطء وألم بالغين ، نحو أولى درجات السلم . ثم قال فى تؤدة رغم انفعاله : « ألا يمكن أن أجد شيئا من الهدوء ؟ .. ما الذى يحدث ؟ »

فتنفست بلودوين ملء رئتيها ، ثم اندفعت نحو مانسون وقالت : « هكذا .. اذن .. أنذرته بأنه مفصول ! » . ولم يعترض « أندرو » على هذا التحوير فى تلخيص الامر ، بينما تساءل ادوارد وهو يرتجف من الانفعال ومن الجهد الذى كان يبذله للبقاء واقفا على قدميه : « أتعنين أنه سيتركنا ؟ » . فأجابت : « نعم يا ادوارد ، لا سيما وأنت عائد قريبا الى استئناف نشاطك ! » . وساد الصمت . وعدل ادوارد عن كل ما كان يود أن يقول . **واتجهت عيناه الى أندرو فى نظرة تعبر عن اعتذار صامت ، ثم الى ريس وبلودوين فى سخط . واتجهتا آخر الامر الى الفضاء فى كآبة وحزن . وتبدى على وجهه العجز ، مع الاستنكار ، ثم قال : « لا ، لن أعود أبدا .. أنتم تعرفون هذا .. جميعا ! »**

ولم يضف كلمة واحدة ، بل استدار فى بطء ، وتحامل حتى غرفته ، مستندا الى الحائط ، وأغلق الباب دون أن يحدث صوتا !

ــ ١٣ ــ

• **تذكر** أندرو الغبطة والفخار اللذين جلبهما له نجاحه فى دار مورجان ، فاذا الزهو ينقلب مرارة بفضل كلمات « بلودوين » السفيهة البشعة ! .. وراح يفكر محنقا فيماذا

كان ينبغى له دفع المسألة الى أبعد مما وقفتَ عنده .. أيكتب الى جو مورجان ؟ .. وهل يطالب بأكثر من مجرد الاعتذار ؟ .. ولكنه عزف عن هذه الفكرة التى لا تليق الا ببلودوين .. ووقع اختياره – آخر الامر – على أفقر مؤسســـة خيرية فى المنطقة ، فأرسل اليها – فى عزم مرير – بالجنيهات الخمسة ، راجيا ارسال الايصال الى أنيورين ريس . **واذ ذاك سرى عنه ، وان ود لو أتيح له أن يرى ريس وهو يقرأ الايصال !**

واذ أصبح مضطرا الى أن يترك (بلينيللى) فى نهاية الشهر ، فقد أخـذ على الفور فى البحث عن وظيفـة أخـرى ، مقلبا الصفحات الاخيرة من مجلة « لانسيت » الطبية . وطفق يكتب الى كل جهة يتراءى له احتمال وجود منصب يلائمه فيها .. وكان هناك عدد من الاعلانات فى باب « مطلوب مســاعدو أطباء » ، وأرسل طلبات ارفقها بصور من شهاداته – أكثر مما يطلب عادة – مع صوره الفوتوغرافية . ولكنه لم يتسلم ردا واحدا فى نهاية الاسبوع الاول .. ولا فى ختام الثانى . مما ساءه وأدهشه .. الى أن شرح له « دينى » السبب فى ايجاز : « لقد كنت فى بلينيللى ! » . فأدرك « أندرو » فى أسى وضيق أن ممارسته المهنة فى أقصى مدينة للتعدين فى (ويلز) كانت وصمة . فليس هناك من يريد مساعدين قادمين من (الوديان) ، اذ كانت سمعتهم غير طيبة !

وبدأ القلق الممض يدب فى نفسه ، حين انقضى أسبوعان : ماذا هو صانع ؟ .. كان لا يزال مدينـا لمؤسسة « جلين » بخمسين جنيهـا .. وصحيح ان المؤســسة قد تسمح له بالتــوقف عن الدفع ، ولـكن .. كيف يعيش اذا لم يجـد وظيفة ؟ .. انه لم يكن يملك أكثر من جنيه ، أو اثنين .. ولم يكن لديه مدخرات ولا معدات .. بل انه لم يستطع منذ وصوله الى (بلينيللى) أن يقتنى بذلة جـديدة ، وأصبحت ملابسه بالية رثة ! .. وأصبحت تراوده ثوان حافلة بالذعر ،

وهو يرى نفسه يتردى بين أنياب الفاقة والعوز .. وتاق — وهو فى غمرة المتاعب والحيرة — الى كريستين . ولم تكن الرسائل وسيلة مجدية ، اذ أنه لم يكن يجيد التعبير بالكتابة ، بل انه قد يسىء التعبير عمـا يبغى .. على أنها لن تعود قبل الاسبوع الاول من سبتمبر . وأخـذ ينظر الى تقويم الحائط فى تعطش وأسى ، يحسب الايام الباقية على أوبتها ، فاذا بها تبلغ الاثنى عشر يوما . فراح يروض نفسه على احتمال انقضائها ، متعللا بالامل المرتجى بعدها !

وفى مساء الثلاثين من أغسطس ، كانت قد انقضت ثلاثة أسابيع على ابلاغه مسز بيدج استقالته .. وكان قد بدأ — تحت ضغط الحاجة الملحة — فى البحث عن عمل فى أحد المستوصفات .. وفيما هو يسـير فى ذلك المسـاء بشارع لاشابيل ، منهارا غاية الانهيار ، التقى ب « دينى » .. وكانا قد التزما — فى الاسابيع الاخـيرة — ودا متكلفا . لذلك دهش « أندرو » حينما اسـتوقفه زميله ، وطـرق كعب حذائه بغليونه ، وأخذ يفحصه كما لو أنه كان يستأثر بكل انتباهه . ثم قال أخيرا : « لكم يؤسفنى أن تفارقنا يا مانسون ، فان وجودك هنا يغير الجو كثيرا ! » .. ثم استطرد فى تردد : « بلغنى عصر اليوم أن « جمعية أبيرالو للاسعاف الطبى » فى حاجـة الى مساعد جديد .. وتقع أبيرالو على مسافة ثلاثين ميلا من هنا ، فى الجانب الآخر من الوادى ، وهى جمعية ملائمة فى هذه الظروف .. وأعتقد أن كبير أطبائها « ليولين » رجـل خدوم . وبما أنها من مدن الوادى ، فلن يرفض القائمون على أمر الهيئة رجلا يأتيهم من المنطقة . فلماذا لا تحاول ؟ »

ونظر اليه أندرو مستريبا .. كانت آماله قد ارتفعت — فى المدة الاخيرة — عاليا جدا ، ثم هوت محطمة تماما ، حتى أنه فقد كل أمل فى مقدرته على النجاح . لذلك لم يلبث أن قال فى بطء : « لا بأس من المحاولة ، ما دام الامر كذلك ! » ..

وأن هى الا دقائق حتى عاد الى داره ـ تحت الامطار الغزيرة ـ وأخذ يعد طلب ترشيحه لهذه الوظيفة !

* * *

وفى السادس من سبتمبر ، انعقد مجلس أدارة جمعية الاسعاف الطبى فى أبيرالو ـ مكتملا ـ لاختيار خلف للدكتور « ليسلى » الذى استقال ليتولى منصبا بمزرعة للمطاط فى الملايو .. وكان عدد الذين تقدموا بترشيح أنفسهم للمنصب سبعة ، وقد دعوا جميعا للحضور .. وكان الاصيل من أبدع أوقات الصيف ، والساعة الكبيرة ـ المقامة على واجهة الجمعية التعاونية ـ تشير الى قرب الرابعة ، عندما راح أندرو يذرع الافريز جيئة وذهابا أمام مقر جمعية الاسعاف ، فى ميدان (أبيرالو) ، **وهو يرمق المرشحين الآخرين فى قلق ، مترقبا ـ فى صبر نافد ـ الدقة الاولى من دقات الساعة .. واذ وضح له خطأ توجسه ، وأيقن أن الامر جدى ، أصبح يتوق بكل جوارحه الى النجاح .**

ولقد راقت له (أبيرالو) ، مما شاهده من معالمها .. اذ كانت تقوم فى الطرف الاقصى لوادى (جيشلى) ، أقرب الى حافته العليا ، منها الى منبسطه . فكانت مرتفعة ، صحية ، وأكبر من (بلينيللى) ، اذ قدر عدد سكانها بقرابة عشرين الفا .. كما كانت بها شوارع واسعة ، ومحال جميلة ، ودار ان للسينما .. مما جعلها تبدو ذات اتساع ضاعف مداه الريف الاخضر المحيط بها . وهكذا تراءت (أبيرالو) لناظرى أندرو ـ فى أعقاب سهل (بلينيللى) الضيق الخانق ـ جنة حقيقية !

وكان يردد فى نفسه بقلق ، وهو يتمشى طولا وعرضا : « لكننى لن أظفر بهذا المنصب » .. أبدا ، أبدا ، أبدا !.. لا يمكن أن يواتيه الحظ ، فقد كان المرشحون الآخرون يبدون أفضل منه أجساما ، وأكثر ثقة بأنفسهم ، لا سيما الدكتور ادواردز المشرق الوجه ، البادى الاطمئنان ! .. وأحس أندرو بكراهية

نحو هذا الرجل البدين ، المتوسط السن ، البادى الرخاء ، الذى أعلن صراحة ـ منذ لحظات ، أثناء الحديث العام الذى جرى فى ردهة مقر الجمعية ـ انه باع عيادته فى الوادى منذ أيام ، ليرشح نفسه لهذا المنصب .. وغمغم أندرو فيما بينه وبين نفسه : « لو لم يكن هذا الرجل واثقا من الحصول على هذه الوظيفة ، لما خطر بباله أن يترك مركزه المضمون ! »

وظل أندرو يروح ويجيء طولا وعرضا ، وعرضا وطولا ، وهو منكس الرأس ، ويداه فى جيبيه .. ترى ماذا تقول عنه كريستين ، اذا هو اخفق ؟ .. لقد كانت عائدة الى (بلينيللى) فى ذلك اليوم بالذات ، أو اليوم الذى يليه ، فقد كان مقررا أن تفتح مدرسة شارع البنك أبوابها فى يوم الاثنين التالى .

وعلى الرغم من أنه لم يذكر لها شيئا عن ترشيح نفسه لوظيفة (أبيرالو) ، فانه كان خليقا بأن يلقاها كاسفا مغتما ـ أو بابتهاج مصطنع ـ اذا قدر له أن يرسب .. وهذا أسوأ ! .. وهكذا راح يتوق ـ فى تلك اللحظة ـ الى الاستمتاع بابتسامتها العذبة الهادئة الساحرة ، أكثر مما كان يتوق الى أى شيء آخر !

وأخيرا ، أزفت الساعة الرابعة ، فاتجه صوب المدخل ، واذا بسيارة أنيقة تعبر الميدان فى غير جلبة ، وتقف أمام مقر الجمعية . وترجل من السيارة ـ فى رشاقة ـ رجل صغير الجسم ، تعلو شفتيه ابتسامة مشرقة ، وعليه سمات اللطف ، وان اجال بصره فى المرشحين مبتسما فى غير اكتراث . وقبل أن يصعد السلم ، لمح ادواردز ، فأومأ اليه برأسه قائلا : « كيف أنت يا ادواردز ؟ » . ثم انتحى به جانبا وقال له : « اعتقد أن كل شيء سيتم على مايرام » . فغمغم هذا فى لهجة تنم عن بالغ الاحترام : « شكرا يادكتور ليولين ، شكرا جزيلا ! » .

فقال أندرو لنفسه فى مرارة : « الامر مرتب مقرر ! »

وكانت غرفة الانتظار ـ فى الطابق الاعلى ـ صغيرة ،

خالية من الاثاث ، تفوح فى أرجائها رائحة الانفاس الكريهة ، وتقوم فى نهاية ردهة قصيرة تؤدى الى قاعة اللجنة .

وكان ترتيب أندرو الثالث ، فمثل أمام اللجنة ـ فى القاعة الكبرى ـ مقطب الجبين متوتر الاعصاب ، فما كانت به من حاجة الى أية زلفى أو هوان يبذله للحصول على المنصب ، ما دام غيره قد وعد به من قبل ! .. واتخذ المقعد الذى عين له ، دون أن يبدى شيئا مما كان فى نفسه .. وكانت القاعة غاصة بنحو ثلاثين عاملا من عمال المناجم ، جلسوا جميعا يدخنون وينظرون اليه فى فضول خشن ، وان شابه شيء من العطف . وفى أحد جوانب الغرفة ، جلس ـ الى منضدة صغيرة ـ رجل رصين ، ذو وجه معبر ينم عن ذكاء ، تنتشر على بشرته نقط زرقاء تشى بأنه عامل قديم عهد بالعمل فى المناجم .. ذلك كان « أوين » ، السكرتير . ووجه الدكتور ليولين ابتسامة الى أندرو ، وهو يستند الى حافة المنضدة . وما لبث « أوين » ان بدأ الحديث ، فشرح ـ بلهجة متئدة ـ المركز المعروض ، قائلا : « الامر يادكتور هو أن فى القطاع منجمى فحم « انتراسيت » ، ومصنع صلب ، ومنجم فحم حجرى . **وبمقتضى نظام مؤسستنا ، يقتطع من الاجر الاسبوعى لكل عامل فى (أبيرالو) مبلغ معين يدفع للجمعية . وبهذا المال تؤدى الجمعية الخدمات الصحية اللازمة ، وتدير مستشفى صغيرا ومستوصفات ، وتوفر الادوية والاجهزة ، الخ ..** وبالاضافة الى هذا تستخدم الجمعية أطباء : الدكتور ليولين ككبير للاطباء وجراح ، وأربعة مساعدين ، بخلاف جراح فى طب الاسنان . والجمعية تخصص لهم نسبة مئوية معلومة عن كل شخص ، تبعا لعدد المرضى المقيدين فى قائمة كل منهم . وأعتقد ان دخل الدكتور ليسلى كان ـ عندما تركنا ـ نحو خمسمائة جنيه فى العام » . وصمت برهة ، ثم قال : « هذا النظام يبدو لنا فى مجموعه نظاما جيدا » .

وغمغم الاعضاء الثلاثون موافقين . فرفع أوين رأسه قائلا : « والآن أيها السادة ، الديكم أسئلة توجهونها ؟ »

وانهالوا بسيل من الاسئلة على أندرو ، فجهد أن يجيب فى هدوء وأمانة ، وفى غير مبالغة أو اسراف . ولكنه قذف مرة بجواب عنيف ، اذ أن عاملا شابا يدعى « تشنكن » سأله فى اصرار : « هل تتكلم اللغة الغالية (لغة ويلز) يادكتور ؟ » . فأجابه أندرو : « لا ، فقد تربيت على اللغة الغايلية ! » . واذ ذاك قال الشاب : « ان اجادة الغالية تفيدك كثيرا هنـــا » . فقال أندرو : « ولكننى وجدت اللغة الغايلية جد نافعة دائما لسب مرضاى ! » . فضحك الجميع ، وعتبوا على تشنكن . . وما لبث الامر ان انتهى ـ أخيرا ـ فقال أوين : « شكرا جزيلا يادكتور مانسون » . وعاد أندرو الى غرفة الانتظار الصغيرة ، ذات الرائحة الكريهة ، وراح يتأمل المرشحين الآخرين وهم يدخلون متصببين عرقا .

وكان « ادواردز » آخر من دعى ، فبقى أمام اللجنة وقتا طويلا . . طويلا جدا . ثم خـرج مشرق الوجه بابتســامة عريضة ، تقول فى جلاء ووضوح : « آسف من أجلكم يارفاق . . كأنى بخطاب تعيينى فى جيبى ! » . وأعقبت ذلك فتـرة انتظار كأنها الدهر ، ثم انفرج باب قاعة الاجتمـاع ، وظهـر



السكرتير « أوين » ـ من خلال سحب الدخان ـ ممسكا بورقة فى يده . وأجال بصره حتى استقر عند أندرو ، معبرا عن ود حقيقى : « هل تتفضل بالحضور دقيقة يادكتور مانسون ؟ .. ان اللجنة تريد أن تراك مرة أخرى » . فتبعه « أندرو » وقد ابيضت شفتاه ، وتسارعت خفقات قلبه .. محال ، لا ، لا ، محال أن يفكروا فيه !

واذ عاد الى الجلوس على مقعد المتهمين ، ألفى نفسه محوطا بالابتسامات وكلمات التشجيع . على أن الدكتور « ليولين » لم ينظر نحوه ، وانما بدأ « أوين » ـ وهو المتحدث باسم اللجنة ـ الكلام قائلا : « سنكون صرحاء معك .. ان اللجنة مترددة ، فهى تميل كثيرا ـ بناء على مشورة الدكتور ليولين ـ الى مرشح آخر اكتسب خبرة طويلة فى ممارسة مهنته بوادى جيثلى » . وهنا قاطعه أحد العمال ـ من أقصى القاعة ـ متهكما : « انه بدين جدا هذا الادواردز . ترى كيف يتسلق طريق تل (ماردى) الى المساكن ؟ ! » .

وكان اندرو من شرود الذهن بحيث لم يستطع الابتسام ، فقد كان ينتظر فى لهفة كلمة اوين .. واستأنف السكرتير كلامه ، قال : « على أنه ينبغى لى القول أن اللجنة نظرت اليك اليوم بعين الرضى البالغ .. ان اللجنة ـ كما قال توم كيتلز منذ لحظة ـ تريد رجالا وشبانا نشيطين ! » .

وتعالى ضحك وهتاف : « برافو ، برافو ! » ، و « يا لهذا الكهل الطيب توم ! » .. بينما مضى اوين يقول : « ومن ناحية أخرى ، ينبغى لى يادكتور مانسون أن أقول لك ان اللجنة تأثرت تأثرا عميقا بشهادتين .. ويمكنني ان اضيف انهما ارسلتا دون رجاء منك ، الامر الذى يزيد من قيمتهما فى نظر هؤلاء السادة . فقد تلقيناهما فى بريد هذا الصباح ، من طبيبين يعملان فى مدينة (بلينيللى) .. وأولى الشهادتين من طبيب يدعى « دينى » ، الحاصل على اجازة الجراحة ، وهى

اجازة ذات قيمة كبيرة ، كما يدرك الدكتور ليولين ، المحيط بهذه الامور . اما الشهادة الثانية — الى جانب شهادة الدكتور دينى — فتحمل توقيع الدكتور بيدج ، الذى تعمل ، على ما أعتقد ، مساعدا له فى الوقت الحاضر . **والآن يادكتور مانسون ، أقول أن اللجنة تقدر — بالاختبار — قيمة الشهادات ، وهاتان الشهادتان تتحدثان عن شخصك الكريم بعبارات حارة كان لها أعمق وقع فى نفوس هؤلاء السادة ! »**

وخفض أندرو عينيه ، وهو يعض على شفتيه ، اذ علم بتدخل «دينى» النبيل لصالحه .. وعاد «أوين» يقول: «لاتوجد يادكتور مانسون سوى عقبة واحدة .. » . وتوقف لحظة ، وتململ فى جلسته وهو يعبث بمسطرة فى حيرة . ثم مضى يقول : « اذا كانت اللجنة الآن فى صفك بالاجماع ، فان هذا المركز ب .. تبعاته ، يتطلب بنوع ما رجلا متزوجا . وأنت تدرك — بالاضافة الى أن الرجال يؤثرون الطبيب المتزوج ، عندما يتعلق الامر بمعالجة عائلاتهم — ان ثمة دارا جميلة فى (وادى فال) .. دارا بديعة لايمكن أن تليق لاعزب ! » ..

وساد المكان صمت ممض . وتنفس أندرو ملء رئتيه ، ثم ركز أفكاره فأومض ضوء خاطف على صورة كريستين الماثلة فى ذهنه .. وراحوا جميعا — حتى الدكتور ليولين — ينظرون اليه مرتقبين جوابه . فتكلم دون ترو ، وبنحو لاارادى تماما . وسمع نفسه ينطق بهذه الكلمات : **« الواقع أيها السادة أنى خطيب فتاة من (بلينيللى) ، وانما كنت .. كنت أنتظر حتى التحق بوظيفة ملائمة كهذه ، لاعقد زواجى ! »**

وطرق « اوين » المنضدة بمسطرته ، فى شعور بالرضى والارتياح .. وتعالت الجلبة التى أحدثتها الاحذية الثقيلة ايذانا بالموافقة . وصاح كيتلز على سجيته : « حسن جدا يافتاى ! .. ان (أبيرالو) مكان قلما يوجد له مثيل لقضاء شهر العسل ! » . بينما ارتفع صوت اوين فوق الجلبة يقول:

« أفهم من هذا أنكم موافقون ياسادة ؟ .. هل يعين الدكتور مانسون بالاجماع ؟ » . **فانبعثت غمغمة قوية تنم عن اقرار . وأحس أندرو بنشوة الفوز العذبة تسرى فى عروقه !**

ـ متى تستطيع تسلم العمل يادكتور مانسون ؟ .. ان اللجنة من جانبها ترى أن الاسراع خير من الابطاء .

فأجاب مانسون : « يمكننى أن أبدأ العمل فى مستهل الاسبوع القادم » . ثم ارتجف وهو يسائل نفسه : **« وماذا يكون اذا لم تقبلنى كريستين ؟ .. اننى ان فقدتها فقدت معها هذا المركز المرموق ! »**

ـ واذن فقد استقر الرأى ! .. شكرا يادكتور مانسون . وانا ـ بالاصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن اللجنة بالتأكيد ـ أتمنى لك ولمسز مانسون المقبلة ، كل نجاح فى المركز الجديد .

تصفيق .. ثم صافحه الجميع ـ الاعضاء ، وليولين ، وأوين ـ مهنئين . وعاد الى غرفة الانتظار ، حيث جهد الا يبدى غبطته ، والا تشى ملامحه بأنه لحظ تجهم ادواردز بدرجة لاتصدق ! .. غير ان جهده لم يكن مجديا البتة . وبينما انطلق فى طريقه الى المحطة ـ سيرا على قدميه ـ فاض قلبه لفوزه ، وصارت خطاه سريعة وثابة .. ولمح الى يمينه ـ وهو يهبط التل ـ حديقة عامة صغيرة بها نافورة وكشك للموسيقى ! .. نعم ، **كشك للموسيقى ، فى حين أن أبرز مافى المنظر العام لبلينيللى ، هو كومة من النفايات !..** وهناك دار السينما كذلك ، ها هى ذى .. وهذه المحال التجارية الجميلة الكبيرة ، وهذا الطريق الصلب الجيد الذى يسير عليه بدلا من درب جبلى صخرى . ثم ، الم يتكلم أوين عن مستشفى كذلك .. مستشفى صغير جميل ؟ .. واذ طاف بخيال أندرو ماسيكون لوجود مستشفى من أثر فى عمله ، تنفس ملء رئتيه فى سعادة غامرة ، وأسرع الى مقصورة خالية فى قطار (كارديف) .. وظل طوال الرحلة ينعم بغبطة دافقة .

— ١٤ —

• **والمسافة** بين (ابيرالو) و (بلينيللى) ليست طويلة . غير أن القطار يقطعها عبر الجبال فى منعرجات عديدة ، متوقفا فى كل محطة . أما قطار (بلينيللى) – الذى استقله فى السكة المتفرعة من خط (كارديف) – فراح يسير ببطء ، حتى ليخيل لراكبه انه لايسير . ولكن مزاج مانسون كان قد تغير ، فقبع فى ركنه متململا ، متحرقا الى الوصول ، وأفكاره تعذبه .. لقد أدرك – لاول مرة – كم كان أنانياحين نظر الى الموقف من زاويته هو فحسب .. **كانت جميع شكوكه بصددالزواج ، وتردده فى مفاتحة كريستين ، راجعة الى أن مشاعره هو قد أوحت اليه بأنها ستقبله . ولكن .. هب انه ارتكب بذلك خطأ بشعا ؟ .. هب انها لم تكن تحبه ؟ ..** وتصور نفسه وقد رفضت « كريستين » الزواج منه ، واضطر الى أن يكتب – فى حزن عميق – خطابا الى اللجنة ، يقول فيه انه – «لاسباب خارجة عن ارادته » – لايستطيع قبول المنصب ! .. وخيل اليه انه يراها رأى العين .. يراها كما يعرفها جيدا : هذه الابتسامة الرقيقة المتسائلة ، والطريقة التى تسند بها ذقنها الى يدها ، وصراحة عينيها القمحيتين .. وهزته رعشة شوق اليها .. كريستين الحبيبة !.. انه لن يبالى بشىء بعدها ، اذا اضطر الى أن يعيش بدونها !

وبلغ القطار محطة (بلينيللى) فى التاسعة ، فقفز الى الرصيف فى سرعة البرق ، وسار فى شارع السكة الحديدية . وعلى الرغم من أنه لم يكن يتوقع عودة كريستين الا فى صباح اليوم التالى ، فقد خيل اليه ان من المحتمل أن تكون قد وصلت اليوم . فلما بلغ شارع (لاشابيل) ، دار حول المعهد ، معرجا على الدار ، واذا رعشة أمل تهز كيانه ، اذ لمح ضوءا ينبعث من الغرفة الامامية .. وقال لنفسه – وهو يحاول

كبح شعوره ـ ان الامر قد لايعدو ان تكون صاحبة الدار منهمكة فى اعداد الغرفة .. وهرول الى المنزل ، ودخل الصالون .. أجل ، تلك كانت كريستين !.. وقد جئت ترتب كتبا فى الرف الاسفل من خزانة كتبها . واذ فرغت ، جمعت بقايا الورق والخيط التى كانت ملقاة على أرض الغرفة . وكانت حقيبتها وسترتها وقبعتها على أحد المقاعد، فأدرك أنها وصلت منذ لحظات .

وهتف : «كريستين!» . فاستدارت ـ وهي لاتزال راكعة ، وقد تدلت خصلة من شعرها على محياها ـ ثم ندت منها صيحة عجب واغتباط ، ونهضت على قدميها ، قائلة : « كم هو جميل منك ياأندرو أن حضرت ! » . ودنت منه مشرقة الوجه ، ومدت له يدها . ولكنه أخذ يديها معا فى يديه ، وشد عليهما بحرارة . وراح يحملق فيها .. لقد كان يحبها فى هذا الثوب الذى ترتديه بالذات ، اذ كان يضاعف رشاقتها ويبرز نضارة شبابها .. وعاد قلبه الى النبض بقوة ، وقال : « كريس ، أحب أن أقول لك شيئا ! » . فاضطربت عيناها قلقا ، وتأملت فى لهفة وجهه الشاحب المغبر ـ من وعثاء السفر ـ وأسرعت قائلة : « ماذا حدث ؟ .. أهناك متاعب جديدة مع مسز بيدج ؟ .. هل سترحل ؟ »

وهز رأسه ، وزاد ضغط يدى كريستين بين يديه ، ثم انفجر يقول : « كريستين ، لقد حصلت على منصب .. أبدع منصب .. فى (أبيرالو) . لقد ذهبت اليوم لمقابلة اللجنة . خمسمائة جنيه فى العام ، ودار .. دار ياكريستين !.. أواه ! يا حبيبتى .. كريستين .. هل لك .. هل لك أن تتزوجينى ؟ ! » . فشحب وجهها شحوبا شديدا ، وبدت عيناها لامعتين فى وجهها المتقع ، ولاح كأن أنفاسها كانت تختلج فى صدرها . ثم قالت فى وهن : « حسبت .. حسبت انك مخبرى بنبأ سىء ! » . فقال : « كلا ، كلا ، بل انه أبهج

نبأ ياحبيبتى .. آه ! لو أنك رايت المدينة ! .. انها واسعة ، نظيفة ، تحيط بها حقول خضراء ، وتكثر فيها المحال التجارية الجميلة ، وبها شوارع كبيرة ، ومتنزه ، وبها أيضا .. أواه ياكريستين ! .. بها مستشفى .. اذا قبلت الزواج منى يا حبيبتى ففى وسعنا السفر الى هناك على الفور ! »

وارتجفت شفتا الفتاة فى رفق ، بيد أن عينيها ابتسمتا له فى اشراق خارق . وقالت : « أتريد هذا من أجل (أبيرالو)، أم من اجلى انا ؟ » . فهتف : « بل من أجلك ياكريستين . أواه ! .. أنت تعرفين جيدا اننى احبك ، لكن ، آه ! .. لعلك لاتحبيننى ! » .. وهمهمت بصوت مختنق ، ثم أقبلت عليه، ودفنت رأسها فى صدره ، وفيما هو يحتويها بين ذراعيه ، قالت بصوت متقطع : « أوه ، يا حبيبى ، يا حبيبى ! .. لقد أحببتك منذ .. » . وابتسمت من خلال دموع سعادتها ، ثم اردفت : « منذ اليوم الذى رأيتك فيه تدخل قاعة الدرس السخيفة ! »

القسم الثانى

— ١ —

• **راحت** سيارة النقل العتيقة ـ التى يملكها ويقودها « جويليم جون لوسين » ـ تصعد الطريق الجبلى وهى تلهث ، وقد علاها غطاء مهلهل تدلى طرفه على مؤخرتها، فوق اللوحة التى تحمل رقمها ، والمصباح الزيتى الذى لم يشعل قط . ومضت ـ تاركة على الغبار آثارها ـ وجوانبها المفككة ترسل قعقعة تتناغم مع ضجيج المحرك العتيق . وفى المقدمة ، جلس الدكتور مانسون وزوجته يزاحمان « جويليم جون » فى مقعد القيادة ، فى اغتباط . **وكان قرانهما قد عقد فى صباح ذلك اليوم بالذات ، وكانت هذه مركبة زفافهما ! .. فتحت الغطاء**

استقر أثاث كريستين القليل : منضدة مطبخ مستعملة — كانت قد اشترتها فى (بلينيللى) بعشرين شلنا — وعدد من أوانى الطهى ، وحقائبهما . ولما كانا بعيدين عن الغرور ، فقد وجدا أن أقل الوسائل نفقة — لنقل أمتعتهما الى (أبيرالو) — هى ان يستعيرا سيارة « جويليم جون » القديمة .. وكان الطقس لطيفا ، والنسيم المنعش يدفع السحب فى القبة الزرقاء ، فراحا يضحكان ويتبادلان بعض النكات مع سائقهما الذى عزف لهما — بهذه المناسبة — بعض المقطوعات على بوق السيارة ، بطريقته الخاصة !

وتوقفا عند الحانة المنعزلة — فى أعلى الجبل — ليتيحا « لجويليم جون » فرصة احتساء شىء من الجعة ، نخب صحتهما .. وكان جويليم جون رجلا طيب القلب ، نحيل الجسم ، أحول العينين ، غير رصين . وقد أحضر لهما من الحانة بعض الشرائح ، وأخذ لحسابه كأسا من « الجين » . وراحوا — بعد ذلك — يناضلون فى هبوط المنحدر الحاد ، ذى المنحنيات ، المتفرعة على شكل مشبك الشعر ، الممتدة على حافة هوة سحيقة ، عمقها خمسمائة قدم .. فكان هبوطا شاقا لعينا . ثم عبروا — فى النهاية — آخر ربوة ، هابطين الى (أبيرالو) . وكانت لحظة مفعمة بالنشوة . اذ امتدت المدينة أمام أنظارهم : صفوف من السقوف المتعرجة مع تعرج مرتفعات ومنخفضات الوادى ، وقد تجمعت متاجرها وكنائسها ومكاتبها فى الطرف الاعلى ، بينما كانت — فى الطرف الاسفل — المناجم ، والمصانع تتصاعد منها سحب من الدخان دون انقطاع . وكانت شمس الظهيرة تغمر كل ذلك .

وقال أندرو وهو يضغط ذراع كريستين بقوة وابتهاج :

« أنظرى ياكريس ، أنظرى ! .. ياله من مكان رائع ! .. هذا هو الميدان . لقد وصلنا عبر الطريق الخلفية .. ثم انظرى ! ليس هنا مصابيح زيتية ، فهذا هو مصنع الغاز يا حبيبتى !

.. **ترى أين دارنا ؟ »** . واستوقفوا عاملا من عمال المناجم ، كان يسير على مقربة ، فأرشدهم لفوره الى موقع (فيل فيو) ، وكانت — كما أخبرهم — فى ذات الطريق الذى كانوا يقطعونه ، ولكن عند طرف المدينة تماما .. وان هما الا دقيقتان حتى بلغوا الدار ، فصاحت كريستين : « اوه ! انها ... انها رائعة ، أليس كذلك ؟ » . فقال أندرو : « أجل يا حبيبتى . يبدو .. يبدو أنها دار بديعة ! » . فقال « جويليم جون » وهو يدفع قبعته الى خلف : « والله انها لمبنى عجيب ! »

والواقع أن (فيل فيو) كانت مبنى غريبا ، يبدو — لاول وهلة — وسطا بين « الشاليه السويسرى » وكوخ الصيد المألوف فى المناطق الجبلية ، ذا أبراج صغيرة أكثر مماينبغى ، وقد استقر بأكمله على نصف فدان من حديقة مهملة ، نمت فيها الاعشاب والحشائش البرية ، وجرى خلالها جدول راح يتعثر فى أنواع مختلفة من العلب الصفيحية المهملة ، وقد قامت على منتصف مجراه قنطرة ريفية متداعية . ولم يدركا — اذ ذاك — ان (فيل فيو) كانت مبدأ سلطان « اللجنة » وتشعب اختصاصاتها ، حين تدفقت عليها الاكتتابات ابان الرخاء فى عام ١٩١٩ . وكانت قد أعلنت — فى مباهاة — أنها ستبنى دارا جميلة تشرفها ، دارا نموذجية فى تصميمها وهندستها . فاذا لكل عضو رأى خاص فيما ينبغى أن يكون عليه النموذج الحقيقى .. وكانوا ثلاثين عضوا . ولكن الرأى انتهى الى (فيل فيو) .

* * *

وكيفما كان شعور « أندرو » و « كريستين » ازاء المظهر الخارجى للدار ، فان داخلها لم يلبث أن طمأنهما . اذ كان البيت فى حالة جيدة جدا : أخشاب أرضه سليمة ، وجدرانه مكسوة بورق ملون نظيف .. غير أن عدد الغرف بدا لهما — على الفور — كبيرا ، لايشغل أثاث « كريستين » أكثر من

غرفتين منه . بيد أن أحدا منهما لم يصارح صاحبه بذلك . بل قالت كريس ، وهي تعد على أصابعها في تفكير عملي ، حينما عادا الى الردهة بعد معاينة أولية سريعة : « اسمع يا حبيبي .. أرى أن أجعل ـ في الطابق الاسفل ـ غرفة الطعام وقاعة الجلوس ، والمكتبة ، أو .. قاعة للجلوس في الصباح ، حسبما يطيب لنا أن نسميها .. وفي الطابق الأعلى خمس غرف للنوم ! » . فقال أندرو مبتسما : « تماما ! .. لاعجب في انهم ارادوا رجلا متزوجا ! » . ولكن ابتسامته لم تلبث ان خبت ، ومضى يقول : **« الحق ياكريس أنني أشعر بالخجل .. فأنا لا أملك فلسا ، وسأستخدم أثاثك الجميل ، كما لو كنت أستغلك . فقد اعتبرت أن كل شيء مفروغ منه ، وجررتك الى هنا دون أن أترك لك دقيقة تفكرين فيها .. بل لم أدعك تمهلينهم ريثما يعثرون على بديلة لك في المدرسة .. يالي من أناني ! .. كان يجب أن أحضر الى هنا أولا ، وأعد لك مسكنا لائقا ! »**

ـ أندرو مانسون .. أكنت تجرؤ على تركي هناك لحظة واحدة ؟

فقال وهو ينظر اليها في جد : «على أية حال ، سأدبر الامر . اصغي لي جيدا ياكريس .. » . ولكنها قاطعته مبتسمة : « أحسب يا غرامي اني صانعة لك قرص عجة حسب وصفة « مدام بولار » .. هكذا يقول كتاب الطهو ، على الاقل ! » . واذ قطعت عليه حديثه ـ قبل أن يبدأه ـ وقف يحملق فيها فاغرا فاه . ثم تلاشى عبوسه تدريجا ، وتبعها الى المطبخ .. فما كان يستطيع احتمال ابتعادها عنه ! .. وراحت خطاهما ترن في الدار الخاوية ، وكأنهما في كنيسة هائلة !

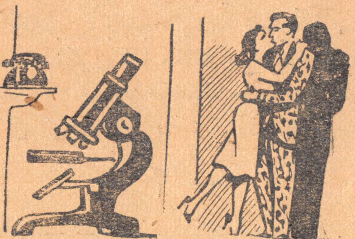
وكانا قد أرسلا جويليم جون ليحضر لهما بيضا ، قبل أن يعود الى بلدته .. وسرعان ما خرج قرص «العجة» من المقلاة ساخنا ، شهي المذاق ، ذا صفرة تسيل اللعاب . فأكلاه وهما

يجلسان جنبا الى جنب ، الى حافة منضدة المطبخ . وصاح أندرو بحرارة : « يالله ! ... آسف يا حبيبتى ، لقد نسيت اننى بدأت عهدا جديدا .. والله انك لتحسنين الطهو ! .. ان نتيجة الحائط هذه ، التى تركوها هنا ، لابأس بها على الجدار ، فهى تزينه بشكل رائع . وكم أحب الصورة التى تحليها .. هـذه الازهار ! .. هل بقى شىء من « العجـة » ؟ من هى « بولار » ؟ أن اسمها ليوحى بطيف دجاجة ! **شكرا لك يا حبيبتى ! .. والآن ، لست تعـرفين كم أتلهف على بـدء العمل . لابد أن يـكون هنا عمـل كثير ، وفرص .. فرص عظيمة ! »** . وتوقف بغتة ، اذ حانت منه التفاتة الى صندوق من خشب مطلى ، وضع فى الركن بجانب أمتعتهما .

وهتف : « قولى لى ياكريس ، ماهذا ؟ » . فقالت فى غير اكتراث : « أوه ! .. انه هدية الزفاف من دينى » . فصاح : « من دينى ؟ ! » . وتغير وجهه . كان « فيليب » قـد بدا جافا حينما أسرع اليه أندرو ليشكره على مابذله فى سبيـل حصوله على هـذا المركز ، ولينبئه بزواجه من « كريستين » .. كما انه لم يحضر – فى الصباح – لتوديعهما ، فاستـاء أندرو ، وازداد شعورا بأن « دينى » أكثر تعقدا وأشدغموضا من أن يظل صديقه ! .. **وتقدم ببطء – وفى شىء من التوجس – نحـو الصـندوق ، ظانا أنه واجد بداخـله بعض الاحذية القديمة ، فقد كان دينى يستسيغ هذا النوع من المزاح ! ..** وفتـح الصندوق ، ثم هتف مبتهجـا ، اذ رأى بداخله ميكروسكوب « دينى » البديع ، ومعه كلمة : « انى حقيقةفى غير حاجة الى هذا الجهاز ، فأنا – كما قلت لك – لست الا جراحا .. أتمنى لك حظا سعيدا » !

ولم يـكن هناك شىء يقال .. وعاد « أندرو » يـستكمل الاكل وهو غارق فى التفكير ، لايرفع عينيه عن «الميكروسكوب» . ثم تناوله بحذر ، وحمله – تصحبه كريستين – الى الغـرفة

التى كانت خلف غرفة الطعام ، فوضعه فى اجلال وسط أرض الغرفة العارية ! .. وقال : « ليست هذه غرفة المكتبة ، أو غرفة الجلوس فى الصباح ، أو غرفة المكتب ، أو أى شىء من هذا القبيل ياكريس .. اننى بفضل صديقنا الطيب «دينى»، اطلق اسم « المعمل » على هذه الحجرة ! » . وابرازا لمعنى هذا الحفل ، طبع على وجنتها قبلة حارة . وفى هذه اللحظة، دوى جرس التليفون فى رنين متواصل طويل ، تردد فى الردهة الخاوية ، فكان له وقع فريد .. وتبادلا نظرة متسائلة ، ثم قال أندرو : « ربما كان المتكلم أحد المرضى ياكريس .. فكرى فى هذا ! .. مريضى الاول فى ابيرالو ! » . وجرى فى الردهة.



ولم يكن المتكلم أحد المرضى ، وانما كان الدكتور « ليولين » ، وقد أراد أن يرحب بمقدمه ، متحدثا من منزله فى الطرف الآخر من المدينة . وكان صوته يصل واضحا ، عاليا ، حتى أن كريس ــ وقد وقفت على أطراف قدميها ، مستندة الى كتف « أندرو » ــ سمعت حديثه : **« هالو مانسون ، كيف أنت ؟ .. لاتنزعج ، فليس الوقت وقت عمل ، وانما أردت فقط أن أكون اول المرحبين بقدومك ومسز مانسون الى أبيرالو ! »**

ــ شكرا يادكتور ليولين ، شكرا .. انه للطف فائق منك. ومع ذلك فلا يضيرنى أن ادعى للعمل !

فأجاب صاحبه فى قوة : « أواه ! .. لن أفكر فى هذا قبل أن يستقر بك المقام . اسمع ، اذا لم يكن عندكما هذا المساء ماتفعلانه خيرا من هذا ، فاحضرا لنتعشى سويا بدون كلفة .. سنكون ـ زوجتى وانا ـ سعيدين برؤيتكما فى الساعة السابعة والنصف . وسيتاح لنا أن نتكلم معا . اتفقنا اذن ، فالى اللقاء ! » . وأعاد أندرو مسماع التليفون ، وقد بدا عليه ارتياح عميق . وقال : « أليس هذا كرما منه ياكريس ؟ .. أن يدعونا هكذا فور وصولنا ! .. ولا تنسى أنه كبير الاطباء ، والرجل الذى يحمل أضخم الالقاب . يمكننى أن أؤكد لك هذا . لقد بحثت عن اسمه فى الدليل : طبيب بمستشفيات لندن ، وعضو جمعية الجراحين الملكية ، الخ ! .. تصورى ، انه قطب ، وقد خاطبنى بلهجة ودية للغاية ! .. صدقينى يامسز مانسون . ستكون لنا مكانة مرموقة هنا ! » . لكم كان مغتبطا وفى غمرة الفرح، فأحاط خصرها بذراعه ، ومضى يروح ويغدو بها فى أرجاء الغرفة ، يراقصها فى حماس .

— ٢ —

• وفى الساعة السابعة مساء ، انطلقا الى (جلينماور) ـ دار الدكتور « ليولين » ـ خلال الشوارع الحافلة بالنشاط والحركة . وكانت نزهة تذكى النشاط .. وراح أندرو ينظر الى مواطنيه الجدد فى غبطة غامرة ، وهو يقول : « هل ترين الى هذا يا كريستين .. هذا الشخص الذى يسعل فى الجانب الآخر ! » .. فأجابت : « نعم يا حبيبى . ولكن لماذا .. ؟ » . فقال فى غير اكتراث : « لا شىء ، سوى أنه من المحتمل أن يصبح من عملائى ! » .

ولم يجدا عناء فى الاهتداء الى (جلينماور) . **وكانت « فيلا » رائعة ، تحيط بها حديقة تبدو عليها آثار العناية . وكانت سيارة الدكتور ليولين البديعة أمام الباب ، كما كانت**

ثمة لوحة مصقولة ـ تحمل ألقابه بحروف صغيرة منسقة ـ مثبتة على السور المصنوع من حديد مشغول!.. ودقا الجرس وهما مأخوذان بهذا البذخ العريض ، فاقتيدا الى الداخل . وأقبل الدكتور من « الصالون » متقدما نحوهما ، وهو أكثر نشاطا من ذى قبل ، وقد ارتدى لباس السهرة ، وقميصا منشى ذا أزرار ذهبية . وانفرجت أسارير وجهه ، وبدت عليه البشاشة ، وهو يقول : « أهلا ، أهلا .. سعيد بالتعرف اليك يا مستر مانسون . آمل أن يطيب لكما المقام فى (أبيرالو) ، أؤكد لكما أنها مدينة صغيرة جميلة . تفضلا من هنا .. ستأتى مسز ليولين بعد لحظة ! »

وسرعان ما أقبلت ، لا تقل اشراقا عن زوجها .. وكانت فى نحو الخامسة والاربعين ، ذات شعر مائل الى الحمرة ، ووجه شاحب انتثرت فيه حبوب باهتة . وما أن حيت مانسون ، حتى استدارت نحو كريستين ، وصاحت فى حرارة : « أوه يا عزيزتى ، كم أنت رائعة ! .. أعترف أنك أسرتنى ولما نكد نلتقى لاول مرة . يجب أن أقبلك .. لابد ! أتسمحين يا صغيرتى العزيزة ؟ » . وقبلتها ، دون أن تنتظر اذنا ، ثم راحت تتأملها ـ وهى ممسكة بذراعيها ـ فى غبطة وابتهاج .. وسمعت طرقات نحاسية فى نهاية المشى ، فساروا الى حجرة المائدة .. وكان العشاء فاخرا : حساء بالصلصة ، ودجاج محمر ، وطبق من السجق ، و « بودنج » . وراح الدكتور ليولين وزوجه يتجاذبان أطراف الحديث مع ضيفيهما فى ود ورقة .

واخذ ليولين يقول: « ستقف على كل شىء فى وقت قريب ، يا دكتور مانسون . أجل .. وسأساعدك بقدر ما أستطيع . ودعنى أقول لك ـ فى سياق الحديث ـ اننى سعيد لعدم فوز « ادواردز » بهذه الوظيفة . ما كنت لازكيه بأى ثمن ، وان كنت قد بذلت شبه وعد بأن أقول كلمة فى صالحه . وماذا

كنت أقول ؟ .. آه ! انك ستكون فى العيادة الغربية ، فى الطرف الذى تقع فيه داركما .. ومعك الدكتور الشيخ « ايركهارت » . صدقنى انه رجل حاذق ! .. وسيكون معك أيضا الممرض « جادج » . أما هنا - فى العيادة الشرقية - فلدينا الدكتور « ميدلى » ، والدكتور « أوكسبورو » ، أوه ! انهم جميعا رجال طيبو الخصال ، ولسوف تحبهم . هل تلعب الجولف ؟ .. يمكننا من حين لآخر الذهاب الى ساحة « فيرنلى » ، على تسعة أميال من هنا ، فى أسفل الوادى . الواقع أن عملى هنا كثير .. كثير يقينا . ولست أعنى شخصيا بالعيادات ، فان المستشفى يشغل كل وقتى ، وأنا أتولى الحالات التى يكون على الشركة أن تدفع تعويضات من جرائها ، كما اننى طبيب صحة المدينة ، وطبيب مصنع الغاز ، وجراح الملجأ ، والطبيب المتولى شئون التطعيم لمقاومة الاوبئة كذلك . . واضطلع بكافة الحالات التى تقرها الشركة ، وبعدد لا بأس به من الاستشارات للمحكمة العليا فى الاقليم .. هذا الى اننى الطبيب الشرعى » . **ولمعت عيناه وهو يستطرد قائلا : « وأخيرا ، فاننى أعالج بعض حالات خاصة فى أوقات فراغى !»**

وقال مانسون : « انه برنامج حافل ! » . فابتسم ليولين قائلا : « لا بد يا دكتور مانسون من موازنة الدخل مع نفقات المعيشة . ان ثمن هذه السيارة الصغيرة - التى رأيتها عند الباب - نحو ألف ومائتى جنيه . أما .. أوه ! دعنا من هذا ! .. ليس ثمة داع يمنعك من أن تكسب دخلا طيبا هنا .. حوالى ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه لك خاصة ، اذا اجتهدت وعرفت كيف تساير القوم ! » . **وتغيرت لهجته وهو يسر بصوت خافت ، وفى اخلاص : « هناك مسألة ثانوية أرى أن أخبرك بها .. من المتفق عليه بين المساعدين ، أن يدفع لى كل منهم خمس دخله »** . ثم أسرع قائلا فى بساطة : « ذلك لاننى أعنى بمرضاهم ، فما أن تزعجهم حالة ، حتى يلجأوا الى

وصدقنى ، ان هذا قد عاد عليهم دائما بنفع جزيل ! » . فرفع أندرو عينيه فى شىء من الدهشة ، وقال : « ألا يدخل هذا فى نظام مشروع الاسعاف الطبى ؟ » . **فأجاب ليولين وهو يقطب حاجبيه : « لا يدخل بنص صريح .. على أن الاطباء أنفسهم هم الذين رتبوا هذا الامر واتفقوا عليه فيما بينهم ! »**

وعاد أندرو يتساءل فى حيرة : « ولكن .. ؟ » . وهنا نادته مسز ليولين من طرف المائدة ، قائلة بصوت عذب : « دكتور مانسون .. لقد كنت أقول لزوجتك العزيزة الجميلة أنه من الجدير بنا أن نلتقى كثيرا ، وأن تزورنى من آن لآخر ، لنتناول الشاي معا . فهل تتفضل فتنزل لى عنها قليلا ، يا دكتور ؟ .. انها ستذهب معى فى السيارة من حين لآخر الى (كارديف) كذلك ، ففى هذا تسلية لها ، أليس كذلك يا عزيزتى ؟ » . وعاد ليولين يواصل شرحه قائلا : « لا بد أنك ستفوق « ليسلى » ، الزميل الذى كان هنا قبلك .. كان رجلا مهملا . أوه ! ، كان طبيبا تافها ، تفاهة « ادواردز » .. على أنه كان يجيد التخدير ، على أية حال . وأرجو أن تكون محيطا باعطاء المخدر أثناء الجراحة ، فاننى أحتاج عادة الى من يحذق ذلك ، عندما يكون على اجراء عملية خطيرة ، وبخاصة لاحد مرضاى الخصوصيين .. ولكن ، كفى ! .. لن نتحدث فى هذا الآن . عجبا ! .. انك لم تكد تتناول طعامك . ما كان من اللائق أن أضايقك بهذه الامور ! »

وصاحت مسز ليولين لزوجها : « أدريس ! .. تصور انهما لم يتزوجا الا هذا الصباح ! .. هكذا أخبرتنى مسز مانسون . فهى عروس ! أتصدق هذا ؟ .. يا للبريئين العزيزين ! » . فابتسم ليولين متعجبا : « حقا ؟ .. بديع ! » . وداعبت زوجه يد كريستين ، وهى تقول : « يا للصغيرة المسكينة ! .. اننى أشفق عليك من الجهد الذى سيتطلبه منك تنسيق (فيل فيو) .. يجب أن أخف لمساعدتك من حين لآخر ! » . واحمر وجه

مانسون قليلا ، وهو يحاول جمع شتات فكره . فقد أحس أنه تحول وكريستين الى كرة رخوة يتقاذفها الدكتور ليولين وزوجه بمهارة .. على أن العبارة الاخيرة بدت له اســتهلالا حسنا ، فقال فى حزم يخالطه شىء من العصبية : « ان ما تقوله مسز ليولين صحيح تماما ، يا دكتور ليولين .. فقد كنت أفكر فى أن أطلب اجازة ليومين — وان كنت أكره اضطرارى لذلك — كى أصطحب زوجتى الى لندن ، وندبر أمر تأثيث دارنا ، و .. ننجز أمرا أو أمرين آخرين ! » . ورأى كريستين تنظر اليه فى دهشة . بيد أن ليولين أشار برأسه موافقا .

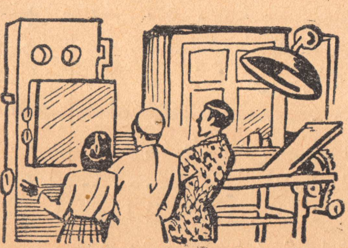
— لم لا ، لم لا ؟ .. انك بعد أن تبدأ عملك ، لن تجد من اليسير أن تتغيب . خذ غـدا وبعد غـد . أرأيت يا دكتور مانسون ! .. هذه ناحية من نواحي نفعى لك ! .. ان بوسعى أن أعمل الكثير للمساعدين ، وسأعتذر للجنة عنك !

وما كان أندرو يجفل من أن يتحدث بنفسه الى اللجنة ، بل والى « أوين » نفسه . غير أنه ترك رئيسه يقول ما كان بنفسه ! .. وانتقلوا الى « الصالون » لتناول القهوة . وكانت الاقداح ذات زخارف منقوشة باليــد ، على ما ذكرت ربة البيت . وقدم الدكتور سجائر من علبته الذهبية . وقال : « أنظر يا مانسون .. هذه هــدية سيقدم لك مثلها ، من مريض عارف بالجميل ! .. انها ثقيلة ، أليس كذلك ؟ .. انها تساوى عشرين جنيها على الاقل ! » .. وحوالى الساعة العاشرة ، نظر الدكتور ليولين الى ساعته « الكرونومتر » الجميلة . والاصح أنه تأملها مزهوا ، فقد كان يعرف كيف يتأمل الاشياء الجامدة بوجه خاص — لا سيما اذا كانت مملوكة له — فى حنان عذب يتميز به . وحسب أندرو أنه مقبل على الدخول فى أحاديث شخصية حول ساعته ، غير أنه قال : « لا بد لى من الذهاب الى المستشفى ، فلقد أجريت فيه صباح اليوم عملية استئصال مصران الاثني عشر لمريض !

ما رأيك فى أن تذهب معى فى السيارة ، لتلقى نظرة عليها ؟ »
فنهض مانسون على الفور ، قائلا : « أوه ! .. هذا يسعدنى يا دكتور ليولين . وكانت الدعوة تشمل كريستين ، ولهذا استأذنا مسز ليولين فى الانصراف .. ولوحت لهما بيدها عند الباب الخارجى ، مودعة اياهما فى ود قلبى . وسرعان ما انطلقت بهم السيارة رشيقة ، هادئة ، فى الشارع الكبير ، ثم صعدت المنحدر الايسر . وقال الدكتور وهو يضىء كشافى السيارة ليرى ضيفيه قوتهما : « ان كشافى قويان .. أليس كذلك ؟ انهما من طراز « لو كسيت » ، وقد أضفتهما الى السيارة للاستزادة من الضوء ، لا غير ! » . **فقالت كريستين فجأة بصوت عذب : « لوكسيت ! .. لا شك أنهما غاليا الثمن! »** . **وأجاب الدكتور فى لهجة رصينة ، مغتبطا بتعليقها : « يمكنك أن تقولى هذا ، فاننى لم أدفع أقل من ثلاثين جنيها ثمنا لهما ! »** .. وتمالك « أندرو » نفسه ، وهو لا يجرؤ على أن يدع نظراته تلتقى بنظرات زوجته . وما لبث ليولين أن قال بعد دقيقتين : « ها نحن قد وصلنا .. هذه دارى الروحية ! »

* * *

وكان المستشفى مشيدا بالطوب الاحمر ، جيد البناء ، ينفذ اليه القادم خلال درب رملى، غرست على جانبيه أشجار



الغار . وما أن دخلا ، حتى أبرقت عينا أندرو . . كان ــ برغم صغره ــ مؤسسة حديثة ، مجهزة بشكل رائع . وبينما كان ليولين يريهما غرفة الجراحة ، وغرفة أشعة «اكس» ، وغرفة تجبير العظام ، وقاعتى المرضى الجميلتين ــ خسنتى التهوية ــ لم ينقطع أندرو عن القول لنفسه : « هذا رائع ، رائع غاية الروعة ! . . ما أعظم الفارق بين هنا وبلينيللى . . لعمرى ، ان بوسعى أن أطمئن على مرضاى هنا ! »

وقابلوا المديرة فى طريقهم . . وكانت طويلة القامة ، بادية العظام ، لم تحفل بوجود كريستين ، واستقبلت أندرو فى غير حرارة ، ثم انحنت بتجلة واحترام أمام « ليولين » . فقال هذا : « اننا نحصل هنا على كل مانحتاج اليه بوفرة ، أليس كذلك أيتهـا المديرة ؟ . . ليس علينا سوى أن نقول للجنة ماينبغى . أجل، أجل، انهم فى مجموعهم حسنو الخصال ! . . كيف حالة جراحه الاثنى عشر أيتها المديرة ؟ » . فغمغمت هذه : « حسنة جدا ، يادكتور ليولين » . فقال : « حسن ، سأرى المريض بعد لحظة » . ثم صحب ضيفيه الشابين الى الردهة ، قائلا : « الحق اننى فخور بهذه المؤسسة ياما نسون، واعتبرها من صنعى . . ومن حقى أن أعتبرها كذلك . ستعرفان طبعا كيف تعودان الى داركما . أليس كذلك ؟ . . اسمع ، عندما تعود يوم الاربعاء ، اتصل بى تليفونيا ، فقد احتاج اليك لتخدير مريض ! » .

والتزم أندرو وكريستين الصمت لحظة ، وهما يهبطان الشارع . ثم تناولت كريستين ذراع زوجها ، وسألته ، وقد أحس ــ برغم الظلام ــ أنها كانت تبتسم : « وبعد ؟ » . . فبادر قائلا : « انه يروق لى ، بل اننى أميل اليه كثيرا ! . . هل لاحظت المديرة أيضا ؟ . . لقد خيل الى أنها ستقبل أطراف معطفه . لكن الحق أن هذا المستشفى الصغير رائع . ولقد قدم لنا الدكتور وزوجته عشاء طيبا ، فهما ليسا بخيلين .

كل ماهنالك .. أوه ! **لست أدرى لماذا يتعين علينا أن ندفع له خمس دخلنا ؟ .. ان هذا لايبدو لى عدلا ، بل ولا يطابق المبادىء الخلقية .. لكم أشعر بأنه كان يتلطف معى ، ويوصينى بأن أكون عاقلا جدا ! »**

ـ لقد كنت عاقلا جدا اذ طلبت عطلة ليومين ، ولكن ما الذى سنفعله ياحبيبى ؟ .. لسنا نملك نقودا لشراء أثاث .. » . فقال فى لهجة غامضة : « انتظرى ترى ! »

وصارت أضواء المدينة خلفهما .. وران عليهما صمت غريب ، وهما يقتربان من (فيل فيو) . وكان ملمس يد كريستين لذراع أندرو يبعث فيضا من الحب فى أعماقه .. وراح يفكر فيها ، فى كيف أنها تزوجت بغتة ، فى قرية من قرى عمال المناجم ، وانتقلت عبر الجبال ـ فى سيارة نقل خربة ـ ليلقى بها فى دار خاوية ، أو تكاد ، حيث لم يكن يوجد سرير للزفاف سوى ذلك المضجع الصغير الذى كان لها وهى فتاة .. **ومع ذلك فقد تحملت هذه المصاعب والتغيرات بجلد وحنان باسم ! .. لقد كانت تحبه وتثق فيه وتؤمن به، فامتلأ صدره بعزم قوى .. كان لابد من أن يجزيها عن كل هذا ، بأن يثبت لها بعمله أن ثقتها فيه وايمانها به يصادفان أهلهما !**

وعبرا القنطرة الخشبية .. وكان خرير الماء فى الجدول ـ ذى الضفتين المليئتين بالاعشاب والاشواك ـ ينبعث فى الظلام الساكن .. كل شىء كان يفتنهما . وأخرج المفتاح من جيبه ـ مفتاح دارهما ـ وأولجه فى القفل .. وكانت الردهة فى ظلام تام تقريبا . وما أن أغلق الباب ، حتى عاد الى المكان الذى كانت كريستين تنتظره فيه . وكان وجهها أشبه بهالة من ضوء خافت ـ وسط العتمة ـ وجسمها النحيل يقف مترقبا، دون ما دفاع ! .. وطوقها بذراعه فى رفق ، موجها اليها هذا السؤال الغريب : « ماأسمك ياحبيبتى ؟ » . فأجابته فى

عجب : « كريستين » . وعاد يقول : « كريستين من ؟ » . فقالت : « كريستين مانسون » .. وتسارعت أنفاسها ، وأحس بها « أندرو » حارة ، على شفتيه !

— ٣ —

• ما أن بلغ القطار — عصر اليوم التالى — محطة (بادنجتن)، حتى قفز أندرو وكريستين الى الرصيف ، فى ثقة ؛ وان أدركا أن الخبرة كانت تعوزهما فى هذه المدينة الهائلة ، التى كانا يريانها لاول مرة .. وسألها أندرو فى اهتمام بالغ : « أتلمحينه ؟ » . فقالت كريستين : « ربما كان خارج الرصيف » . وكانا يبحثان عن رجل يحمل « كتالوج » . كان أندرو قد شرح لها فى القطار خطته فى جمالها وبساطتها ، وكيف أنه — بما أوتى من بصيرة عجيبة — كان قد تبين قبل أن يبرحا (بلينيللى) ، ما كانا بحاجة اليه ، فاتصل بشركة « ريجنسى » .. وهى شركة لتوريد الاثاث فى شرقى لندن ، لم تكن من المؤسسات الضخمة ، ولا كانت من تلك المتاجر الكبيرة التى يتوه المرء فيها ، وانما كانت متجرا متواضعا ، يملكه فرد واحد ، تخصص فى البيع بتسهيلات فى الدفع . وكان فى جيب « أندرو » خطاب من مدير هذه الشركة . ولكنه .. وفجأة ، صاح فى ارتياح : « آه ! .. ها هو ذا ! »

وأشار الى رجل صغير الحجم ، يرتدى بذلة زرقاء لامعة رثة ، وقبعة ذات قبة ملساء ، وقد أمسك فى يده «كتالوج» كبيرا ، أخضر ، يشبه تلك الكتب التى تمنح كجائزة فى المدارس. وعرفهما الرجل من بين جماعات المسافرين ، وكأن ثمة اتصالا روحيا بينه وبينهما ، فتقدم نحوهما ، ورفع قبعته باحترام وقال : « الدكتور ومسز مانسون ؟ .. اننى مندوب « الريجنسى » . لقد وصلتنا ياسيدى برقيتك هذا الصباح ، والسيارة فى انتظارك .. هل لى أن أقدم لك سيجارا ؟ » .

ولعل شيئا من القلق بدا على وجه أندرو – وهم يعبرون الشوارع المكتظة التى لم يكن يعرفها – وقد راح ينظر من طرف عينه ، متأملا السيجار الذى كان يمسك به فى يده ، دون أن يشعله . وتمتم : « اننا نكثر من استخدام السيارة فى غدونا ورواحنا ، فى هذه الايام . ولكن لا بأس .. انهم يكفلون لنا كل شىء ، حتى الانتقال مجانا من المحطة واليها ، بل نفقات سفرنا بالسكة الحديدية ! »

ومع هذا الاطمئنان ، فان انطلاقهما خلال طرقات معقدة ، يخيم البؤس على كثير منها ، بعث فى نفسيهما قلقا لم يدريا مبعثه . ووصلا أخيرا ، فاذا المؤسسة رائعة الى حد لم يتوقعاه ، وقد غصت واجهتها بعديد من المرايا والاوانى النحاسية البراقة . وفتح لهما باب السيارة ، ثم اقتيدا الى داخل مخازن « الريجنسى » . وهناك استقبلهما – كما يستقبل الامراء – بائع مسن يرتدى « ردنجوت » وياقة عالية ، وقد بدا فى مظهره المتانق أشبه مايكون بالمرحوم البرنس « البرت » .. زوج الملكة فيكتوريا !

– من هنا ياسيدى .. من هنا ياسيدتى . يسعدنى أن أكون فى خدمة أحد أعضاء الهيئة الطبية يادكتور مانسون . سيدهشك أن تعرف عدد اخصائيى شارع (دارلى) ، الذين شرفونى بأن يكونوا من عملائى ، وكم تلقيت من شهاداتهم .. والآن يادكتور ، ما الذى تريد ؟

واخذ – وهو يسير بخطى رصينة ، جيئة وذهابا ، فى أروقة المخازن – يريهم صنوفا من الاثاث بأثمان ذات ارتفاع مثير ، وهو يكثر من كلمات « تودور » ، و « جاكوبان » ، و « لويس السادس عشر » ، فى حين ان ماكان يعرضه عليهما كان من حثالة الاثاث الواهن المطلى . وراحت كريستين تعض على شفتيها ، وهى تبدو مهمومة بنحو متزايد .. وتمنت من كل قلبها الا ينخدع أندرو ، والا يزحم مسكنهما بهذه الاشياء

البشعة . وأسرت اليه فى عجلة ، اذ أدار البرنس « البرت » ظهره : « ان هذا الاثاث لايساوى شيئا .. لايساوى شيئـا على الاطلاق ! » . فلم يجبها بأكثر من أن زم شفتيه بشكل غير ملحوظ .. وتأملا أيضـا بعض نمـاذج الاثاث . ثم قال أندرو للبائع فى هدوء ، شابته خشـونة غريبة : « اسـمع ، لقد قمنا برحلة طويلة لنبتاع أثاثا .. أقول أثاثا ، لا فضلات كهذه ! » . **وضغط بابهامه ـ بقوة ـ صوانا كان بجانبه ،كان مصنوعا من الخشب الرقيق (الابلكاج) ، فاذا به يخـرقه . وأسقط فى يد البائع ، وتجلى على وجهه انه أوشك ان يتداعى** بدوره .. وقال: «ولكنى أريتك أفضل مافى المحل يادكتور! » . فأجاب أندرو غاضبا : « اذن فأرنا أسـوأ ماعنـدكم .. أرنا أثاثا مستعملا ، على شريطة أن يكون أثاثا حقيقيا ! »

وساد الصمت برهة ، قال البائع خلالها لنفسـه ، وهـو يعض على شفتيه : « ماذا يصنع بى صـاحب المحل ، ان لم أبعهما شيئا ؟ » . وسار متعثرا ، ولم يعد . وان هى الا ثلاث دقائق ، حتى أقبل شخص صغير الحجم ، يميل وجهه الى الحمرة ، فقال لهما فى حدة : « ماذا تريدان ؟ » . فأجابه أندرو : « أثاثا مستعملا ، جيدا ، غير مرتفع الثمن ! »

* * *

ألقى الرجل على أندرو نظرة جافة واسـتدار ، ودون أن يفوه بكلمة ، قادهما نحو الداخل الى مصعد خدم هبط بهما الى طابق تحت الارض شديد الرطوبة ، تكدست فيـه قطع أثاث مستعملة فمـلأته حتى سقفه ! .. وراحت كريستين تنقب بين الغبار ونسيج العنكبوت ، فتعثر هنا على خـزانة متينة ، وهناك على منضدة غاية فى البساطة ، أو مقعدصغير منزو تحت عمود من الاكياس ، بينما كان أندرو يساوم على الثمن مع المستخدم الصغير فى اصرار وعناد . وأخيرا اكتملت قائمتهما ، وشدت كريستين على يد أندرو وهما ينتظران

المصعد ، مغتبطة ــ رغم الغبرة التى ألمت بوجهها ــ ومنتشية بنشوة الفوز .. ثم غمغمت :

ــ هذا بالضبط مايلزمنا .

وقادهما الرجل ذو الوجه الاحمر الى الادارة ، وهناك وضع أندرو على مكتب المدير الدفتر الذى دون به طلباته ، وقال فى لهجة من بذل غاية جهده : « هذه هى القائمة الكاملة للطلبات ياسيد ايزاك . » .. ففرك السيد ايزاك أنفه ، وقد بدا الامتعاض والاسف فى عينيه الرطبتين ، وهو يفحص الدفتر ، ثم قال : « أخشى يادكتور مانسون ألا يكون فى مقدورى منحك تسهيلات فى الدفع عن هذه المشتريات ، فأنت تدرك ولا شك أنها ليست سوى أثاث مستعمل » .. ثم هز كتفيه محتجا وأضاف : « نحن لانعقد صفقات بهذه الشروط . »

شحب وجه كريستين ، بيد أن أندرو جلس فى عناد صلب ، جلسة الرجل الذى يأبى التراجع ، وأجابه : « بل تعقدون ياسيد ايزاك ، أو فى القليل تقولون هذا فى خطابكم ، وتطبعونه بشكل واضح تماما فى أعلى أوراقكم ، حيث توجد عبارة : « أثاث جديد ومستعمل ، مع تسهيلات فى الدفع » .

وساد صمت . ومال الرجل ذو الوجه الاحمر نحو السيد ايزاك وأسر اليه بكلمات تصحبها حركات معبرة سمعت منها كريستين بوضوح عبارات غير مهذبة تشعر بصلابة زوجها ، وبالعناد المتأصل فى جنسه .. فقال السيد ايزاك مبتسما بجهد : « لا بأس يادكتور مانسون ، سيكون لك ماتريد . سوف لاتقول أن (الريجنسى) لم تكن متساهلة معك . لاتنس أن تقول هذا لمرضاك وأن تذكر كيف عوملت هنا معاملة حسنة . قيد ياسميث هذا الطلب فى سجل المبيعات بنصف الثمن نقدا ، واحرص على ارسال صورة منه فى ساعة مبكرة من الصباح الى الدكتور مانسون . »

ــ شكرا لك يا سيد ايزاك .

وساد صمت مرة أخرى ، ثم استطرد المدير مختتما الحديث : « اتفقنا اذن ، اتفقنا . ستصلك البضاعة يوم الجمعة . »

وتظاهرت كريستين بمغادرة المكتب ، غير أن أندرو لم يتحرك من مقعده ، وقال فى رصانة : « والآن يا سيد ايزاك ، ماذا عن نفقات سفرنا بالسكة الحديدية ؟ »

وكأنما انفجرت قنبلة فى الغرفة ! .. ولو أنك رأيت وجه سميث الاحمر لحسبت أن عروقه توشك أن تنفطر ! ..

وصاح المدير : « يالله يادكتور مانسون ، ماذا تعنى ؟ لا يمكن عقد صفقات بهذه الطريقة . لابد من الامانة ، ولكنى لست مطية . ماذا تعنى بنفقات السفر ؟ ! »

فأخرج أندرو — دون أن يلين له جانب — حافظة نقوده من جيبه ، وقال بصوت معتدل ، وان كان مرتعشا بعض الشيء : « لدى هنا ياسيدايزاك خطاب تقول فيه بوضوح وجلاء أنك تدفع نفقات السفر لعملائك من أهل انجلترا أو بلاد الغال متى تجاوزت مشترياتهم خمسين جنيها . »

واحتج السيد ايزاك بشدة قائلا : « ولكنى أكرر لك انك لم تشتر الا بخمسة وخمسين جنيها .. وكل ما اشتريته أثاث مستعمل ! »

— فى خطابك يا سيد ايزاك ..

— انى أسخر من خطابى .. (ورفع ايزاك ذراعيه نحو السماء واردف) : انى اسخر من كل شيء . لقد ألغيت الصفقة . قط لم أر فى حياتى عميلا مثلك ! لقد اعتدنا أن نتعامل مع عرسان رقيقى الجانب يمكن التفاهم معهم . ولكنك بدأت بسب مستخدمى — السيد « كلاب » — ثم لم يستطع مستخدمى السيد « سميث » أن يحصل منك على شيء ، وها أنت تجيىء أخيرا فتحطم قلبى بالتحدث عن نفقات السفر . لايمكن يادكتور مانسون أن نعقد معا أية صفقة .

حاول ان استطعت أن تفلح مع غيرنا ! »
جن جنون كريستين ، وحانت منهـا التفاتة الى أندرو . ان عينيها تستعطفانه فى يأس ، فهى تحس أن كل شىء ينهار . ان زوجها ينزل عن كافة الميزات التى حصل عليها بعد كل هذا العناء ! . بيد أن أندرو تظاهر حتى بأنه لايراها ، وأعاد حافظة نقوده الى جيبه ، وهـو بادى الصرامة .. ثم قال : « حسن جدا ياسيد ايزاك ، سننصرف . ولكننى أؤكد لك أن هذا سوف لايكون له أثر حسن عند جميع مرضاى واصدقائهم . أن زبائنى عديدون والامر سينتشر ويعرف حتما . سيعرف أنك جعلتنا نحضر الى لندن على وعد منك بأن تدفع لنا نفقات السفر ، وأنك عندما .. »
فقاطعه ايزاك متنهـدا فى مرارة : « **كفى ، كفى . ماثمن تذكرتيكما ؟ ادفع لهما الثمن يا سيد سميث ، ادفع ، ادفع ، ولا تقل أن (الريجنسى) اخلت بما وعدت . هل أنتمستريح الآن ؟** »
ـ جد الارتياح يا سيد ايزاك ، شكرا لك . سننتظر البضاعة يوم الجمعة . وداعا ياسيد ايزاك .
وشد مانسون فى رصانة على يده وتناول ذراع كريستين وقادها مسرعا نحو الباب . كانت السيارة « الليموزين » العتيقة التى جاءت بهما تنتظرهما فى الخارج ، وصاح أندرو كما لو كان قد عقد أكبر صفقة فى تاريخ الريجنسى .
ـ الى فندق (ميوزيوم) أيها السائق .
وانطلقت بهما السيارة على الفور ، دون أن يتدخل أحد ، مبتعدة عن (الايست اند) فى اتجاه (بلومسبرى) . وعندئذ شدت كريستين بقوة على ذراع زوجهـا فهدأ روعها شيئـا فشيئا . وغمغمت :
ـ أوه ! يا حبيبى ، لكم كان مسلكك فى هذه المسألة رائعا ، فى اللحظة ذاتها التى حسبت فيها ..

فهز رأسه وضغط شدقيه ، وقاطعها : « ان هؤلاء الحيوانات يريدون تجنب المتاعب . لقد كان تحت يدى وعدهم ، وعدهم المكتوب ! » .. ثم استدار نحوها ، ملتهب العينين ، واستطرد : « لم يكن الامر ياعزيزتى أمر هاتين التذكرتين التافهتين ، أنت تعرفين هذا جيدا ، وانما كان أمر مبدأ . الناس ينبغى عليهم أن يحترموا كلمتهم ، ثم ان الذى ساءنى أيضا تلك الطريقة التى استقبلونا بها . وهذا أمر يبدو بوضوح من بعد ميل . أحسبهم قالوا لانفسهم : « هذان عروسان غريران ، ومن اليسير ابتزاز مالهما » . آه ! وأيضا السيجار الذى وضعوه فى يدى .. ان كل هذا ينفث رائحة الغش والخداع ! »

فأجابته مغتبطة : « لقد نجحنا على أية حال فى الحصول على ماأردنا ! » .. وأومأ هو برأسه مؤمنا على قولها . انه مايزال ثائرا متوتر الاعصاب ، بحيث لايستطيع التطرق الى الجانب الهزلى من المسألة ! .. ولكن ما أن احتوتهما غرفتهما فى فندق (ميوزيوم) حتى برز هذا الجانب أمام ناظريهما ، فأشعل الزوج سيجارة وهو مستلق على الفراش ، فى حين أخذت الزوجة تصلح من شأن شعرها .. ثم انفجر اندرو فى الضحك مقهقها بشدة ، الى حد ان العدوى سرت اليها فقهقهت مثله .. وقال هو بصوت كالصفير وهو يمعن فى الضحك حتى ليمسك بجنبيه : « ان موقف ذلك الرجل المسن ايزاك كان سخافة مابعدها سخافة ! » .. فقالت معلقة : « حينما .. (وغص حلقها شيئا ما) .. حينما طلبت منه نفقات السفر .. » .. فاستطرد مقلدا ايزاك : « الصفقات ، لايمكن أن تعقد صفقة كهذه ! » ، وانفجر فى الضحك مرة أخرى ، ثم استأنف : « هل أنا مطية ؟ .. آه ، يا الله ، مطية .. ! »

ـــ بلى ، ياغرامى ..

واستدارت نحوه والمشط فى يدها ، والدمع فى عينيها بحيث لاتكاد تقوى على الكلام .. واردفت تقول : « أما أنا فكان أعجب شىء شهدته هو تكرارك القول فى اصرار وعناد : « ان الخطاب معى هنا ، انه يقول فى وضوح وجلاء .. » ، فى حين أنى .. أنى أنا ، ياللسماء .. كنت على يقين من أنك تركت الخطاب فوق المدفأة فى البيت ! »

اعتدل الزوج وحدق فيها بنظرة ، ثم استلقى ثانية الى الخلف منفجرا فى الضحك ، وراح يدور حول نفسه على الفراش سادا فمه بالوسادة ، محاولا بغير طائل أن يمسك عن الضحك .. بينما تشبثت هى بمنضدة الزينة وقد تسربت اليها عدوى الضحك ، وراحت تتوسل اليه أن يكف اذا كان يريد لها الا تموت ضحكا !



.. وحين أمكنهما بعد ذلك أن يستعيدا هدوءهما ، ذهبا الى المسرح . وقد ترك لها أن تختار الرواية التى يذهبان لمشاهدتها ، فاختارت « جان دارك » لبرنارد شو ، وهى تمثيلية قالت عنها انها ظلت حياتها كلها تتوق الى أن تشهدها .

ولم تفتنه التمثيلية وهو جالس بجوارها فى الصالة الخاصة بالنظارة ، قدر مافتنتها هى .. وقال لها فى النهاية : « انها رواية تاريخية أكثر مما ينبغى . ماذا يحسب نفسه هذا الشو ؟ » .. فى حين تلون وجه كريستين الملتهب بحمرة

باهتة . كانت هذه أول سهرة لهما فى المسرح ـ ولن تكون الاخيرة فى الغالب ـ وانه ليدير بصره فى الصالة المكتظة . ربما عادا يوما الى هنا ، ولكن لا ليجلسا فى الصالة بل فى احدى هذه المقصورات !.. انه سيعد لهذا عدته .. سترتدى كريستين ثوبا من أحدث طراز ، وسيكون هو محط الانظار .. ويتدافع الناس بالمناكب قائلين : « هذا هو مانسون، أنت تعرف ، انه الطبيب الذى كتب ذلك المؤلف الرائع عن الرئة !» .. واعتدل أندرو متنبها من خيالاته ، وقد بدا عليه شيء من الخجل .. وفى الاستراحة أحضر لكريستين شيئا من المثلجات .

ثم استباح لنفسه تبذيرا خليقا بالامراء ، فقد أحسا وهما يبرحان المسرح أنهما مغموران تماما فى الضوء الباهر ، والسيارات ، وحشود الجماهير المتدافعة من كل صوب .. فرفع أندرو يده آمرا ، فجاءت سيارة أجرة .. واحسا ، وهى تحتويهما وتتجه بهما نحو فندقهما ، بشعور من الغبطة والامان والسكينة ، وبأنهما رائدان جريئان استطاعا أن يستقلا سيارة أجرة من سيارات لندن !

— ٤ —

• بدا لهما نسيم (أبيرالو) بعد عودتهما من لندن عذبا عليلا . وأحسه أندرو ، وهو يبرح (فيل فيو) صباح الخميس سيرا على قدميه الى حيث يبدأ عمله ، أحسه يداعب خديه فيشيع فى نفسه القوة والنشاط . انه يقبل على عمله فى هذه البلدة فى حماس وغبطة ، ويتمثله عملا متقنا ينهض به على خير وجه ، ملتزما دائما فى ادائه المبدأ الذى جعله رائدا له ، وهو أن ينتهج « النهج العلمى » .

وكانت « العيادة الغربية » ـ التى تقع على مسافة لاتكاد تتجاوز أربعمائة متر من داره ـ بناء مرتفعا تعلوه قبة من الصلصال الابيض ، ولا يوحى منظره بأنه مؤسسة صحية .

وكانت قاعة الانتظار فيه تشغل قسمه الاوسط ، وهو القسم الرئيسى . وفى الطابق الاسفل منه يوجد المستوصف ، يفصله عن قاعة الانتظار حاجز به باب . وفى الطابق الاعلى مكتبان للاستشارات الطبية، أحدهما يحمل اسم الدكتور «أوركهارت»، والآخر ، وقد طلى حديثا ، يخص الدكتور « مانسون » الذى ترنو اليه الابصار على نحو خارق .

أحس أندرو بهزة حبور عندما ألفى أن شخصيته قد برزت بافراد حجرة خاصة له.. حجرة ، وان كانت متوسطة الرقعة ، الا انها تحتوى على مكتب لائق ، وأريكة بديعة من الجلد للفحص الطبى . كذلك أحس الطبيب الشاب بالزهو يغمر كيانه حينما رأى جمعا من المرضى فى انتظاره . وكان الجمع من الكثرة بحيث آثر « أندرو » أن يأخذ فى العمل على الفور ، دون أن يقدم نفسه أولا – كماكان ينوى– الى الدكتور « اوركهارت » والى مستخدم المستوصف « جيدج » .. ومن ثم جلس وأومأ الى المريض الاول بالدخول . كان هذا المريض يطلب مجرد شهادة طبية . لكنه أضاف الى ذلك – كما لو كانت فكرة تعاوده – انه يشكو من ألم فى ركبته ، ففحصه أندرو ، وتبين أن عنده تدفقا دمويا مفصليا ، فأعطاه شهادة بعدم قدرته على العمل . وكان الثانى يطلب بدوره شهادة عن اضطراب فى العصب البصرى .. والثالث عن نزلة شعبية ، والرابع عن كدم فى المعصم .. الخ

ثم نهض أندرو ليتبين ماأنجز من عمل وما بقى أمامه . ان هذا الفحص بغية اعطاء شهادات يستنفد وقتا كبيرا .. فوقف بالباب وسأل : « كم يتبقى من مرضى يطلبون شهادات ؟ هل تتفضلون بالوقوف ؟ »

كان نحو أربعين رجلا ينتظرون ، فوقفوا جميعا ! وفكر أندرو بسرعة ، فأدرك ان فحصهم جميعا فحصا ملائما يستغرق نصف النهار ، وهذا محال . وإذ ذاك قرر – على

مضض منه ـ ارجاء الحالات التى تتطلب فحصـا أطول الى ما بعد . ومع هذا لم يفرغ من آخر مريض الا فى العـاشرة والنصف . وفى هـذه اللحظة ، ما أن رفع عينيه حتى دخل مكتبه رجل متوسـط الحجم مسن بعض الشىء ، ذو وجه أحمر قان ، تبدو عليه الغلظة وروح الشر .. وقـد أحنت السنون ظهره قليلا ، وبدا على وجهه الميل الى الشجار . وكان يرتدى لباسا قصيرا وطماقين وسـترة من الصـوف انتفخت جيوبها بما تحتويه حتى لتكاد تتمزق ! فقد كان فيها : غليون ، ومنديل ، وتفاحة ، وكيس من المطاط ! ومن حوله كانت تفوح رائحة الادوية وحامض الفنيك والتبغ . حدس أندرو قبل أن يفوه الرجل بكلمة ، انه الدكتور « أوركهارت »

وقال هذا دون أن يمد يده أو ينطق بكلمة يقدم بها نفسه : « ياللشيطان ، يافتاى ، أين كنت اذن هذين اليومين ؟ لقـد اضطررت أن أقوم بعملك . ولكن ، لاعليك ، لاعليك ، سوف لا نتكلم فى هذا . أحمد الله أن قد جئت ، انك بادى الصحة جسما وروحا . هل تدخن الغليون ؟ »

ـ كلا .

ـ احمد الله على هذا أيضا . هل تعزف على الكمان ؟

ـ كلا .

ـ ولا أنا أيضا، ولكنى أجيد اصلاح هذه الآلات وصيانتها . ثم أنى من هواة مجموعات الاوانى الصينية ، ولقد ذكر اسمى فى أحد الكتب . سأريك كل هذا يوما حين تحضر عندى . أنى أقطن بالقرب من العيادة تماما ، ولا بد أنك لحظت ذلك . والآن هيا لترى « جيدج » ، انه رجل مسكين ولكنه يعـرف تماما أعماله المتضاربة .

تبع أندرو « أوركهارت » وهما يعبران قاعة الانتظار الى المستوصف ، حيث استقبله جيدج بايماءة عابسة من رأسه .

انه رجل طويل القامة نحيل الجسم ـ أشبه مايكون بجثة ـ ذو رأس أصلع الا من بضع خصلات شعر سوداء ، وله شارب متهدل من نفس اللون . وكان يرتدى سترة قصيرة من الصوف اخضرت بفعل القدم وبقع الادوية ، وبان تحتها معصمان باديا العظام وكتفان بارزان . وكان ذا طابع مكتئب متعب ، وعليه سمات الرجل الذى هو أبعد مايكون عن الإخيلة والاوهام . **وفى اللحظة التى دخل فيها أندرو كان يخدم مريضه الاخير . قذف اليه من خلال الباب بعلبة أقراص كما لو كانت سم فئران ، وكأنه يقول له : « خذها أو دعها . انك فى الحالين مائت ! »** .

وقال أوركهارت لاندرو بلهجة حازمة ، بعد أن فرغ من تقديم أحدهما الى الآخر : « أما وقد تعرفت الى « جيدج » فقد عرفت أسوأ شىء . انى أخبرك منذ الآن أنه لا يؤمن بشىء اللهم بزيت الخروع و « شارل برادلو » . والآن ، هل من أمر تريد الاستفسار عنه ؟ »

ـ انى أضيق بعدد الشهادات التى كان على امضاؤها . لقد بدا لى بعض هؤلاء الرجال هذا الصباح فى حالة يستطيعون معها العمل !

ـ لاعليك ، لقد كان « لسلى » يتركهم يتكدسون فى الغرفة المقابلة . ان فحص مريض لم يكن يحتاج منه لاكثر من جس نبضه خمس ثوان لاتزيد . لم يكن يكترث بهذا الامر اطلاقا .

فاعترض أندرو بشدة قائلا : « ماذا يظن الناس فى طبيب يوزع الشهادات كما توزع بطاقات السجائر ؟ »

فرمقه أوركهارت بنظرة ، وقال بغتة : « كن حذرا ! انهم قمينون ، ان أنت أبيت عليهم شهادة ما ، ألا يرضوا عن مسلكك ! »

ولاول ـ وآخر مرة ـ هذا الصباح ، أبدى جيدج

ملاحظة ، بصـوت أجش .. قال : « ان نصفهم ليس بهم شيء على الاطلاق ، بل أن علائم الصحة تبدو على وجوههم ! »

شغلت هذه المسألة أندرو طوال النهار وهو يعود مرضاه . ولم تكن جولته سهلة ميسرة ، ذلك لانه لا يعرف الحى ، وقد خدعته الشوارع حتى لقد اضـطر أكثر من مرة الى النكوص على عقبيه . هذا الى أن منطقته أو فى القليل معظمها كانت تقع على منحدر شاطىء (ماردى) الذى أشار اليه « توم كيتلز » ، الامر الذى يحتم عليه تسـلق مرتفع حاد يتوسط صفين من الدور .

.. وقادته تأملاته قبل العصر الى أن يتخذ قرارا بغيضا : انه لا يستطيع بحال أن يجامل فى اعطاء الشهادات .. فذهب الى عيادة المساء مقطب الجبين مهموما ، ولكن ثابت العزم قوى التصميم .

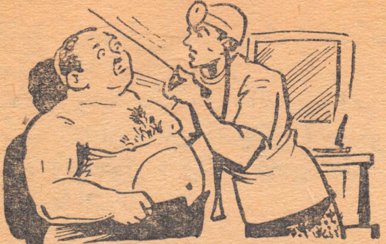
ولم يكن المرضى الذين وجدهم فى انتظاره يقلون عمن كانوا فى الصباح . وكان أول مريض تقدم له رجـلا بدينا مكتنز الشحم ، تنبعث منه رائحة الجعة ويبدو كأنه لم يعمل فى حياته يوما واحدا بأكمله ! وكان فى نحو الخمسين ، ذا عينين صغيرتين تحسبهما عينى خنزير ، خفضهما وهو يغمز بهما لاندرو .. ثم قال فى غير كلفة : « شهادة .. »

ــ بماذا ؟

ــ باضطراب فى العصب البصرى ــ (ومد يده) ــ اسمى « تشينكن » ، « بين تشينكن » .

وكانت لهجته وحدها كافيـة لان تبعث الريبـة فى نفس أندرو ، فنظر الى الرجل ، وسرعان ما اقتنع بعد فحص سريع أنه لا يشـكو من اضـطراب فى العصب البصرى !

وكان الطبيب يدرك تماما ، بصرف النظر عن ملاحظة «جبدج» ، أن بعض عمال المناجم القدامى هؤلاء كثيرا ما يصطنعون



الاصابة باضطراب فى العضب البصرى ويحصلون بمرور السنين على تعويضات ليس لهم أى حق فيها ! .. على أنه كان قد أحضر معه فى هذا المساء جهاز الفحص الرمدى ، ولن يلبث أن يتحقق من الامر تماما . وهكذا نهض وقال للمريض:
« اخلع ملابسك .. »

ـ لماذا ؟ **ـ سأفحصك ..**

أسقط فى يد العامل وفغر فاه ! .. ان الدكتور « لـملى » ـ بقدر ما يذكر ـ لم يفحصه مرة خلال سبع سنين ! .. وخلع مستاء ـ وعلى كره منه ـ لثامه وسترته وقميصه المخطط بخطوط حمراء وبيضاء ، كاشفا عن جسم مفتول كثير الشحم والشعر .. وفحصه أندرو فحصا شاملا ، تناول على الاخص العينين اللتين فحص فيهما الشبكية بواسطة عدسته الكهربائية الدقيقة . واذ فرغ من ذلك قال بلهجة جافة : **« ارتد ملابسك يا تشينكن .. »**

ثم جلس وتناول قلمه وأخذ يكتب شهادة . فقال «بين» : « آه ، كنت على يقين من أنك ستعطنيها . »

ونادى أندرو المريض التالى ، بينما أخذ « تشينكن » الورقة الوردية اللون ـ أو قل انتزعها انتزاعا من يد الطبيب ـ ثم برح العيادة بادى الشعور بالظفر ..

ولكن لم تكد تمضى خمس دقائق حتى عاد شاحب الوجه مزمجرا ، يشق طريقه بين زملائه الذين كانوا ينتظرون

جلوسا على المقاعد . وصاح : « أنظروا ما فعل معى، فلندخل، قولوا لى ما معنى هذا ؟ »

ودفع الشهادة فى وجه مانسون ، الذى تظاهر بأنه يقرأها . كان قد كتب بيده : **« أن (بين تشينكن) يشكو من الاسراف فى احتساء البيرة والكحول ، ولكنه قادر تماما على العمل . وهذه شهادة منى بذلك »**

امضـــــاء

دكتور ٠ أ ٠ مانسون

ثم سأله : « والآن ماذا تريد ؟ » .. فصاح تشينكن : « اضطراب فى العصب البصرى .. أريد شهادة بأنى مصاب باضطراب فى العصب البصرى . ليس من حقك أن تتلاعب بنا .. نحن نشكو منذ خمسة عشر عاما من اضطراب فى العصب البصرى . »

فاعترض أندرو : « انك لا تشكو منه فى الوقت الحاضر . » .. وتجمـع خلق كثير أمام البـاب المفتـوح ، ولمح رأس « أوركهارت » ينظـر بتطلع من الغرفة المجـاورة ، ورأس « جيدج » يتأمل فى غبطة من خلال حاجزه هذه الجلبة .. بينما زأر تشـينكن : « لآخر مرة أسألك ، هل سـتعطينى شهادة بأنى مصاب باضطراب فى العصب البصرى ؟ »

فصاح أندرو بدوره وقد نفد صبره : **« كلا ، لن أعطيكها ، أخرج من هنا اذا أردت ألا أقذف بك الى الباب ! »**

اشتد غضب « بين » ، وبدا كأنه يوشك أن يمسح الارض بجسم أندرو . ثم خفض عينيه وراح يغلظ القول ويتوعد .. وبرح العيادة ! .. وما أن غادر المكان حتى تقدم «جيدج» يفرك يديه فى غبطة يخفيها تحت ستار أسى مصطنع ، وقال : « أتعرف من هذا الذى طردته منذ لحظة ؟ انه « بين تشينكن» الذى لابنه نفوذ فى اللجنة ! »

— ٥ —

• **أحدثت** مسألة « تشينكن » أثرا عميقا ، وانتشر أمرها فى الحى انتشار النار فى الهشيم .. فامتدح فريق معاملة الطبيب له بخشونة نتيجة لادعائه المرض، وأعطاءه اياه شهادة بـ « صـلاحيته » للعمـل ! — بل ذهب البعض فى امتداح تصرف الطبيب الى حد التحمس العنيف — غير أن الغالبية كانت فى جانب « تشينكن » .. فان جميـع المرضى الذين يقبضـون تعويضـات بسبب العجز عن العمل كانوا ثائرين بنوع خاص على الطبيب الجديد .. وقد صار أندرو يلحظ ، وهو يجول جولاته ، نظرات حانقة توجه اليه . وكان يعانى فى المساء ، وهو فى العيادة ، آلاما أشد وأنكى ، لشعوره بأنه بعيد عن قلب الجمهور .

ورغم أن كل طبيب مساعد كان له — من الوجهة النظرية — الحى الذى يختص بعلاج سكانه حين يمرضون ، فانه كان من حق العمال مع ذلك أن يختاروا الطبيب الذى يريدون . ذلك أن كلا منهم كان يحمـل بطاقة ، يكفى أن بسـحبها ويسلمها لطبيب آخر كى يتم التغيير والانتقال !

ولقد بدأ أندرو يعانى هذه المذلة . صار فى كل مساء من أيام الاسبوع الاخير يشهد أشخاصا لم يرهم من قبـل فى العيادة ، يجيئون اليه ليقولوا ، دون أن ينظروا اليه : « أن كان هـذا لا يضيرك يا دكتـور ، فانى أريد بطاقتى ! » .. بل أن البعض منهم ، ممن لم تكن تعنيهم رؤيته بأنفسهم ، كانوا يرسلون اليه زوجاتهم كى يطلبوا هذا الطلب ! .. وكم كان يؤلمه ويخجله الى حد لا يطاق أن ينهض ويأخذ البطاقة من الصندوق الموجود فوق مكتبه .. ومن ناحية أخرى ، كانت كل بطاقة تسلم ، تعنى نقصا فى أتعابه قدره عشرة شلنات ؛ ودعاه « أوركهارت » مساء السبت الى زيارته فى داره .

وراح الطبيب المسن — وقد بدا عليه الاعياء والانفعال من جراء التجوال طوال الاسبوع لكسب عيشه — راح يريه الكنوز التى جمعها خلال أربعين عاما قضاها فى ممارسة المهنة . ان عنده عشرين كمانا ، كلها من صنعه ، وقد علقها على الجدران .. ولكنها لا تعد شيئا يذكر اذا قورنت بالمجموعة التامة من الاوانى الصينية الانجليزية القديمة التى يملكها . فقد كانت عنده منها تشكيلة منتقاة رائعة أخاذة : أطباق ، وأقداح جعة ، وفناجين ، وأوانى ، وجرار ، من أنواع مختلفة ، تملأ غرف الدار كلها وتفيض منها الى غرفة الحمام حيث يستطيع أوركهارت وهو يغتسل أن يتأمل فى زهو وفخار طقم شايه القديم طراز « أوسول » الذى يعتز به أشد الاعتزاز .

لقد كان جمع الاوانى الصينية بالنسبة له هواية العمر ، حتى انه أصبح منذ زمن أستاذا فى فن اقتناء هذه القطع الجميلة ، وانه لفن يتطلب الكثير من المهارة والحذق . كان أينما اكتشف فى منزل أحد مرضاه « قطعة جميلة » ، على حد تعبيره ، تعاقبت زياراته لهذا المنزل ، الزيارة تلو الاخرى ، فى غيرة لا تكل ، وخلال هذه الزيارات كان يركز بصره فى نوع من اصرار ورع على القطعة المرموقة المأمولة ، الى أن يجيىء اليوم الذى تصيح فيه ربة الدار يائسة : « يلوح يا دكتور أن هذا الشىء يفتنك الى أقصى حد ، ولا يسعنى الا أن أقدمه لك . »

وهنا يحتج الطبيب بقوة ، ولكنه حين يحمل غنيمته ملفوفة فى صحيفة قديمة الى داره ، يرقص غبطة وابتهاجا ، ويضعها فى حنان فوق أحد الرفوف !

وكان هذا الرجل الطاعن فى السن معروفا فى المدينة بأنه شخصية غير عادية . وكان يقول أنه فى الستين من عمره ،

ولكن الارجح أنه كان فى السبعين ، بل ربما فى الثمانين ! .. وهو مرن كالحوت ، لا يعرف غير المشى ، وهو يسير مسافات لا تصدق .. ويلعن مرضاه ولكن يعرف كيف يحنو عليهم حنو الام ! .. وكان يعيش بمفرده منذ وفاة زوجته ، قبل أحد عشر عاما ، ويتغذى بالاطعمة المحفوظة دون سواها تقريبا .

وبعد أن فاز فى ذلك المساء باعجاب أندرو بمجموعتـه ، ابتدره فى لهجة المستاء : « يا للشيطان يا صديقى ، انى أضيق بمرضاك .. فان لى من مرضاى ما يكفى . ولكن ما حيلتى معهم وهم يأتون الى ملحين ؟ انهم لا يستطيعون أن يذهبوا جميعا الى العيادة الشرقية ، فهى جد بعيدة . »

.. فاحمر وجه أندرو ولم يحر جوابا . بينما مضى صاحبه يقول فى مزيد من رقة الجانب : **« كن حذرا يا فتاى ، أوه ! انى أعرف .. أعرف أنك تريد أن تهدم جدران بابل .. أنا ايضا كنت شابا . لكنى مع ذلك أنصحك أن تسير فى رفق وبطء ، وأن تتريث قبل أن تندفع . طابت ليلتك ، احترامى لزوجتك . »**

كانت كلمات أوركهارت هذه تطن بلا انقطاع فى أذنى أندرو .. فبذل قصارى جهده ليمضى فى طريقه بحيطة وحذر ، ولكن برغم هـذا حلت به كارثة أفدح : ذهب يوم الاثنـين التالى الى شارع (سيفان) لعيادة « توماس ايفانز » ، أحد عمال مصنع الفحم فى (أبيرالو) ، وكان قد انقلب على ذراعه اليسرى اناء به ماء يغلى ، فنتج عن ذلك حرق خطير متسع فى منطقة المرفق — الكوع — وحينما وصل أندرو تبين أن ممرضة الحى التى كانت مارة وقت الحادث قد ضمدت الذراع بزيت الكتان ثم استأنفت جولتها .

فحص أندرو الذراع ، حريصا أشد الحرص على ألا يبدى شيئا من الفزع الذى عراه حينما رأى هذا التضميد المؤسف .

وألقى نظرة عابرة على زجاجات الزيت المغطاة بقطعة ورق ، والتى تحوى سائلا قذرا أبيض اللون ، تسبح فيه « البكتريا» بالآلاف ، اذا صح التعبير ! .. وقال المصاب « ايفانز » ، وهو متوتر الاعصاب الى حد ما : « أحسب الممرضة « لويد » قد عالجت الحالة على نحو مرض ، أليس كذلك يا دكتور ؟ »

وكان المصاب رجلا فى مقتبل العمـر ، قوى الجسم ، ذا عينين سوداوين. وقد وقفت زوجته الى جانبه ترقب أندرو بانتباه ، وهى متوترة الاعصاب مثله .. فقال « مانسون » ، بلهجة توحى بالتحمس الصادق : « انه تضميد رائع ، قلما رأيت أفضل منه ! ولكن من المفهوم أنه مؤقت . وسنجرب الآن شيئا من حامض البيكريك . »

كان يعرف أنه اذا لم يستعمل مطهرا على الفور فأغلب الظن أن الذراع سيتلوث .. واذا حدث ذلك فلن يشـفى المريض الا بمعجزة ! .. وفيما هو يفحص ، كان الزوجان يتأملانه ، غير واثقين به ولا مطمئنين اليه .. بينما راح هو ينظف الذراع فى حيطة بالغة ويضع عليه ضمادة مبللة بحامض البيكريك .. ثم هتف بالمصاب : « ألست الآن مرتاحا أكثر من ذى قبل ؟ » .. فأجاب ايفانز : « لست أدرى تماما ، هل أنت واثق يا دكتور من أن كل شىء سيسير على مايرام ؟»

ــ بكل تأكيد .. (وطمأنه أندرو بابتسامة ، ثم استطرد) : اعتمد على الممرضة وعلى .

وقبل أن ينصرف ، كتب كلمة للممرضة حرص فيها كل الحرص على التمسك بآرائه فى لباقة بالغة ، فشكر لها عنايتها الرائعة التى بذلتها فى هـذه الحالة العاجلة ، وطلب اليهـا ــ كاجراء ضد أى تلوث محتمل ــ أن تستمر مشكورة فى وضع ضمادات مبللة بحامض البيكريك .. ثم وضع الخطاب فى المظروف وأغلقه بعناية .

وحينما عاد فى صباح اليوم التالى ، كانت ضماداته قد نزعت وألقيت فى النار ، وكانت على الذراع ضمادة أخرى مبللة بزيت الكتان ! .. وكانت الممرضة فى انتظاره ، متأهبة للنزال .. فابتدرته : « ما معنى كل هذا ، أود أن أعرف . هل ما فعلته لا يروقك كثيرا يا دكتور مانســـون ؟ » ..

وكانت الممرضة امرأة بدينة متوسـطة السن ، ذات شـعر سنجابى أشعث ، يبدو على ملامحها التوتر والاعياء ، ولا تكاد



ـ لشدة انفعالها ـ تقوى على الكلام ..

وأحس أندرو أنه ينهار ، بيد أنه تمالك نفسه بقوة وحاول أن يبتسم : « افهمينى جيـدا ، أيتها الممرضـة لويد : هلا تناقشنا بصدد هذا فى الغرفة الامامية ؟ » .. فوقفت وألقت نظرة الى حيث كان ايفانز وزوجه ينصتان فى قلق ، وهما يحدقان فيهما بتفرس .. ثم أجابت : « كلا ، سنتفاهم هنا ، فليس عندى ما أخفيه ، انى مرتاحة الضمير . لقد ولدت ونشئت فى (أبيرالو) .. هنا سعت قدماى الى المدرسة ، وهنا تزوجت ورزقت أبنائى ، وفقدت زوجى .. وهنا أعمل منذ عشرين عاما كممرضة لهذا الحى ، ولم يقل لى أحد فى أى وقت ألا أضع زيت الكتان على حرق أو جرح ! »

ـ اصغى الى أيتها الممرضة . قد يكون زيت الكتان رائعا فى

ذاته ، ولكن حالتنا هذه تنطوى على خطر حدوث تقلص !

ولكي يوضح تماما ما يعنيه ، شد مرفقها الى أعلى ، ثم أردف : « من أجل هذا أود ان تجربى طريقتى فى التضميد . »

— لم أسمع قبل الآن عن هـذا الحامض . ان الدكتور أوركهارت المسن لا يستعمله ، وهذا ما قلته للسيد ايفانز . انى لست فى جانب المخترعات الحديثة يأتى بها رجل لم يحضر الى هنا الا منذ ثمانية أيام !

احس أندرو بجفاف فى شفتيه وحلقه . انه قلق متطير ، يخشى حدوث متاعب أخرى . ذلك أن الممرضة تنتقل من بيت الى بيت وتتكلم كيفما راق لها . فهى انسانة من الخطر الاشتباك معها فى نزاع ما . ولكنه لا يستطيع ولا يجرؤ أن يعرض مريضه للأذى بهذا العلاج الذى عفا عليه الزمن ! .. وأخيرا قال فى صوت خفيض : « اذا كنت لا تريدين أن تمارسى هذا التضميد، فسآتى أمارسه بنفسى صباح مساء !»

فأجابت : « حسن ، يمكنك أن تفعل ، أما أنا فلا يسعنى سوى أن أرجو بقاء ايفانز على قيد الحياة ! »

وما هى الا دقيقة حتى توارت عن الدار .

.. وفى صمت كصمت القبور، فك أندرو — هذه المرة أيضا — الضمادة ، وأنفق نحو نصف ساعة فى غسل الذراع الجريحة وعلاجها ، بتؤدة وصبر . **وفى مساء اليوم نفسه ، وهو فى عيادته ، جاءته مسز ايفانز ، شاحبة الوجه ، وقالت وهى تتجنب النظر اليه : « يؤسفنى حقا أن أزعجك يا دكتور ، ولكنى .. هل يمكننى أن آخذ بطاقة توم ؟ »**

فانتاب أندرو يأس قاتل ، ودون أن يفوه بكلمة ، نهض فبحث عن البطاقة المطلوبة وقدمها لها !

— أنت تدرك يا دكتور ، أنك .. سوف لا تكون مطالبا بأن تجيىء ثانية !

ـ أدرك ذلك يا مسز ايفانز ..

.. وفيما هى تتجه نحو الباب ، سألها ـ وقد عجز عن كتمان هذا السؤال ـ عما اذا كان الحرق قد ضمد مرة أخرى بزيت الكتان ؟ .. فأومأت بالايجاب ، وانصرفت !

وحينما فرغ أندرو من اجراء جراحاته ، اتخذ طريقه الى (فيل فيو) متثاقلا فى اعياء ، وهو الذى ألف أن يمضى الى داره فى خطوات سريعة تشبه العدو ! .. وأخذ طوال الطريق يردد فى مرارة ، بينه وبين نفسه : « يا له من انتصار للنهج العلمى ! .. ولكن ، هل أنا حقيقة رجل ذو ضمير .. أم انى مجرد متهور أهوج ، لا أقل ولا أكثر ؟ .. غبى ، أهوج .. أهوج وغبى .. ! »

وأثناء العشاء لم يتكلم الا قليلا . لكنه حين جلسا ـ هو وزوجته ـ جنبا الى جنب على الاريكة فى مواجهة الموقد المشتعل فى الصالون ـ الذى صار الآن مؤثثا بأحسن أثاث ـ أسند رأسه الى صدر كريستين الناعم الغض ، وقال متنهدا :

ـ آه يا حبيبتى ، لقد أفسدت بداية حياتنا هنا ، على نحو شنيع !

وفيما راحت هى تفرك جبينه مواسية ومشجعة ، أحس دموعا تصعد الى مآقيه .

— ٦ —

• **تساقط** الجليد بكثرة وغزارة ، ايذانا بقدوم الشتاء مبكرا ، وعلى غير انتظار . ورغم أن أكتوبر كان بالكاد قد انتصف ، فان (أبيرالو) كانت تقع على ارتفاع شاهق بحيث اجتاحت المدينة موجات من البرد القارس ولما يتجرد الشجر

بعد من أوراقه . وفى أعقاب ليلة انهمر فيها الثلج فى موجات ناعمة متتابعة ، دون ما جلبة ، استيقظ أندرو وكريستين فى الصباح فاذا الارض كلها قد اكتست حلة بيضاء ناصعة . وكان رتل من جياد « البونى » (١) الجبلية قد تسلل الى الدار من خلال ثغرة فى الجدار الخشبى الخارجى ، وتجمع قرب الباب الخلفى . ان هذه الحيوانات البرية الصغيرة تهيم على سليقتها فى السهول المترامية التى تحيط (أبيرالو) بحزام من الاراضى ذات الاعشاب الكثيفة ، وتهرب مختفية اذا اقترب منها انسان . فاذا سقط الجليد وعضها الجوع ، هبطت الى أطراف المدينة .

وكانت كريستين قد أطعمت هذه الجياد طوال الشتاء ، بعد أن تجنبتها هذه فى أول الامر ، وجلا وضراوة ، ثم انتهت الى أن تأكل من يدها .. وأصبح واحد منها بنوع خاص صديقا لها ! كان له عرف كثيف أســـود ، وعينان يشع منهما الخبث . وكان قصير القامة حتى لا يكاد يرتفع عن الارض الا قليلا . وقد أطلقا عليه اسم « داركى » . ومن عادة هذه الفصيلة من الخيل أن تأكل أى شىء : من كسر الخبز ، الى قشر التفاح أو قشر البطاطس أو البرتقال . وذات يوم قدم أندرو الى داركى علبة ثقاب فارغة — على سبيل الدعابة — فمضغها ولعق شفتيه ، كما يفعل الحيوان الشره حين يلتهم طعاما شهيا .

وكانت كريستين وأندرو، على ما بهما من فاقة وما يعانيان من مشقة ، قانعين سعيدين . لم يكن أندرو يملك سوى « بنسات » يعبث بها فى جيبه ، لكن دينه لمؤسسة (جلين) كان على وشك الانتهاء . كما أنه كان يدفع بانتظام أقساط

---

(١) البونى : سلالة من الخيل صغيرة الحجم جدا سريعة العدو تعيش فى الجبال .

تأثيث البيت الشهرية . وكانت كريستين تتميز ، رغم وهنها وقلة خبرتها ، بما تتميز به بنات جلدتها فى (يوركشير) .. فهى ربة بيت قديرة ، وهى تستعين بفتاة تدعى « جينى » — ابنة لاحد عمال المناجم من جيرتها — تحضر لمساعدتها كل يوم لقاء بضعة شلنات فى الاسبوع . وبفضل هذه المساعدة وحدها تحتفظ كريستين بالدار فى حالة من النظافة تبهر الانظار ، بالرغم من أن أربع غرف من الدار ما تزال خالية . **وكانت كريستين قد أحالت (فيل فيو) عشــا حقيقيـا للزوجية ، ففى كل مساء ، حين يعود أندرو الى داره ، وقد أنهكه العمــل طوال النهار ونال منه الاعياء ، كانت تعد له عشاء ساخنا سرعان ما ينعشه ..**

ولشد ما كان يتألم بسبب مرضاه ، لا لكثرة عددهم ، بل بسبب تساقط الثلج وصعوبة الصعود الى الاجزاء المرتفعة من الحى ، والمسافات الطويلة بين دار وأخرى . ولكم كان يضنيه السير أيضا عندما يذوب الثلج نهارا ويحيل الطرقات أكداسا من الوحل ، قبل أن يعود الى التجمد ليلا ! .. وكثيرا ما كان يعود الى داره وقد ابتل بنطلونه ، حتى لقد ابتاعت له كريستين طماقين لحماية البنطلون ، فصار اذا ما تهاوى متعبا على أحد المقاعد بعــد عودته ، جثت هى الى جانبــه لتنزعهما عنــه وتنزع معهما حذاءه الثقيل ، ثم تلبسه خفيه .. وهى لا تفعل ذلك كصنيع تسـديه اليه ، وانما تفعله راضية بدافع حبها له .

ان الناس ما يزالون على تشككهم فيه واعراضهم عنه . ولقد تكتل أقرباء « تشينكن » جميعهم — وانهم لعـديدون ، فان التزاوج كثير بين أهل الوادى — تكتلوا لتكوين جبهة مناهضة له .. والممرضة « لويد » تناصبه العداء الشديد جهرا . وتنال من سمعته كل منال ، وهى تتناول الشـاى فى الدور التى

تغشاها لتمريض سكانها حيث تصغى اليها جماعة من الجارات. وعليه فوق هذا أن يناضل ضد شعور جامح بالاشمئزاز والغضب يتفاقم باضطراد . وكان الدكتور ليولين يلجأ اليه للتخدير أكثر كثيرا مما يود . **ان أندرو يمقت هذا العمل الآلى المحض الذى يتطلب طبيعة خاصة ومزاجا متئــدا معتدلا ، ليســا طبيعته ولا مزاجه بحال.** انه لا يأبى هذه الخدمة على مرضاه هو . أما أن يبذلها ثلاث مرات كل أسبوع لفائدة أشخــاص لم يرهم من قبل فهذا عبء ثقيل اولى به غيره . وهو لايجرؤ على المجازفة بالاحتجاج خشية أن يفقد مركزه . على أنه فى ذات يوم من نوفمبر لحظت كريستين أن حادثا غير مألوف قد أثاره أثارة شديدة ، فقد عاد فى ذلك المساء دون أن يناديها ، وعلى الرغم من محاولته اخفاء مابين جنبيه من هم فانها بفعل حبها الغامر له تبينت ــ من خلال تقطيبه ، ومن عدد من العلامات البسيطة الاخرى ــ أنه أصيب بصدمة لم تكن فى الحسبان ! .. لكنها لم تلمح الى هذا أثناء العشاء من قريب أو بعيد ، وحين نهضا من المائدة تناولت تطريزها وطفقت تخيط قرب المدفأة .. فجلس الى جانبها يعض غليونه ، وفجـأة قال فى انفعال :

ــ لــكم أخشى ، ياكــريس ، أن أسبب لك كــدرا ، فانه ليؤلمنى أن أضايقك .. والله يعلم أنى أحاول الاحتفاظ بالهموم لنفسى ..

ان هذا لمن الغرابة بمــكان ! فهــو يتخفف كل مســاء من همومه بين يديها ! .. ومع هذا بدأت كريستين تستمع اليه دون أن تبتسم :

انتهى الجزء الاول .. ويليه الجزء الثانى ، وفيه تتبلور عناصر القصة وتأخذ حبكتها فى الظهور ، فنرى كيف يبهر بعض أبطالها من الاطباء بريق المجد والمال ، ويشتد فى نفوسهم الصراع بين الخير والشر .. فيسقط فى هذه المعمعة من يسقط ! .. حتى تتضح المأساة التى توقظ الضمير الانسانى ، وتفتح العيون على أبشع صور الانحلال والنفاق اللذين يعيش فيهما المجتمع الحديث فى جيلنا الحاضر .

وسوف يبدأ ترقيم صفحات الجزء الثانى من هذه القصة بحيث يراعى فيه التسلسل مع صفحات هذا الجزء ، بعد نزع هذه الورقة من الجزء الاول ، والورقات الثلاث التى يستهل بها الجزء الثانى ، اذا أريد تجليد القصة بأكملها فى مجلد واحد .

كتــابى يقفز قفزته الضخمة

فيستهل عامه الثامن بعدد ممتاز فاخر يتفوق على جميع اعداده السابقة

زيادة فى الصـفحات ـ أبواب جديدة
أقلام جـديدة ـ طباعة جـديدة ..

ويخطو خطوة جديدة فى خدمة الثقافة ، فيفسح صدره وصفحاته للباب الذى يتطلع اليه القارىء العربى منذ زمن طويل :

النقد الادبى

للكتب العربية الحديثة ، القصصية وغير القصصية ، وفيه يتابع كبار النقاد ـ بالتحليل والنقد النزيه ـ أحدث ثمرات المطـابع من الانتاج الادبى فى جميع البلاد العربية ..

أدب السينما والمسرح

.. كما يفسح « كتابى » صفحاته لكاتب كبير ينقد لك الانتـاج السينمائى والمسرحى والفنى ، العربى والاجنبى ، بصراحة ونزاهة مجردة من جميع الاعتبارات والاهواء !

ميزان امين يرفعه « كتابى » فى العالم العـربى للانتـاج الادبى والفنى .. ليساهم به فى خدمة الثقافة ، على نسق كبريات المجلات الأدبية العريقة فى فرنسا وانجلترا .

وعلاوة على هذه الابواب يقدم لك كتابى :

اقرأ معى

« مجلة » جديدة يضيفها الى صفحاته ، يقدم لك فيها مقتطفات سريعة من أمتع المواد الثقافية التى تنشرها صحف العالم ومجـلاته وكتبه ، أولا بأول .

وأبواب أخرى جديدة

يفاجئك بها العدد القادم من كتابى ، فى مستهل العام الثامن من كفاحه الادبى .

بالاضافة الى « جميع » أبواب كتابى المألوفة التى تعشقها

عدد ممتاز فاخر ـ ٣٢ صفحة اضافية

الثمن ١٢ قرشـا .



من غمرة المأساة التى تكتنف الكفاح الدائر بين الطب من ناحية - والمرض والموت، من ناحية أخرى، استخلص الدكتور "ا. ج. كرونين" وهو طبيب يعيش وسط المعمعة - هذه القصة الجبارة التى صدرت بها ٦٤ طبعة فى أعوام قلائل :

القلعة!

قصة لا تمثل النزاع بين الإنسانية والمرض فحسب، وإنما هى تمثل كذلك الصراع الإنسانى والعاطفى بين نزعة الخير ونزعة الشر فى نفسية الطبيب حين يبهره بريق المجد والمال .. قصة تفضح ما يعيش فيه جيلنا الحاضر من نفاق يطغى على كل المقاييس والقيم فى المجتمع الحديث، وفى أرقى طبقات هذا المجتمع .. بوجه خاص.

إنها مأساة تهز القلوب، وتملك العواطف، وتوقظ ضمير المجتمع.. قصة لكل طبيب.. ولكل إنسان!

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية